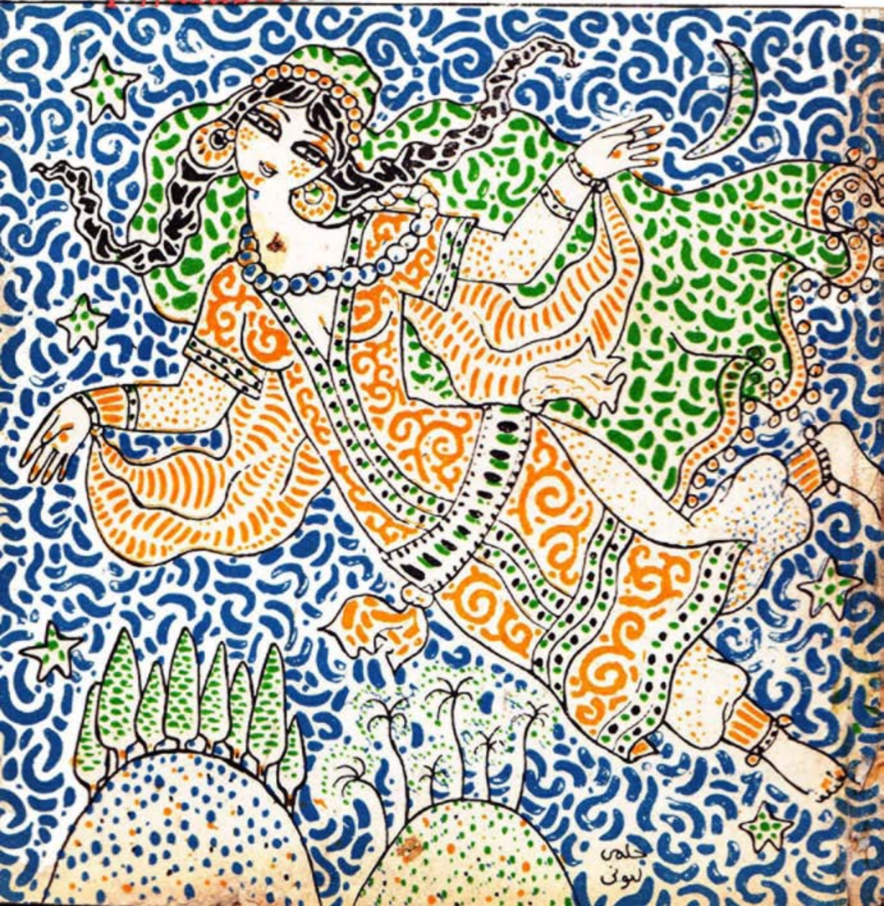
كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

راقصون بلا حكومة

راجي عنايت



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمى

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٦١٠ ، ٢ ١ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٩ ـ جمادى الثانى ١٤٠٤ ـ مارس ١٩٨٤

No. 399 — March 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية و ٦٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي والباكستان عشرة دولارات أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة :
الفنان حلمى التونى

راجى عنايت

راقصون بلا حكومة

دار الهلال

اهداء

الى وزير الثقافة الاسبق دكتـــــور ثروت عكاشة ، الاب الروحى للفرقة القومية للفنون الشعبية .. والذى ـ رغم خلافاتنا أثناء عملى معه ـ مازلت اعتبره صاحب الفضل فى كل ما هو جاد وباقى فى حياتنا الثقافية ..

راجى عنايت

مجتمع بلا حكومة

ما موضوع هذا الكتاب ؟ .. الكتاب يتحدث فى بساطة عن مجتمع بلا حكومة ! .

مجتمع كامل .. حقيقة ، لا يتجاوز فى عدده التسعين شخصا ، لكنه يضم نماذجا تمثل كافة قطاعات وفئات مجتمعنا الكبير ... شباب منطلق .. فتيات صغيرات لا يتجاوزن الخامسة عشر .. رجال كبار قاربوا الستين من عمرهم .. مراهقون تعتمل فى نفوسهم كل رغبات التحدى والتجريب .. رجال أتقياء لا يفوتهم الفرض .. أطباء ، مهندسون ، مدرسون ، موظفون حكوميون .. عمال نجارة وكهرباء .. رجال بسطاء من فنانى الصعيد البعيد .. متزوجون يصطحبون زوجاتهم العاملات بالفرقة ... أزواج بلا زوجات ، وزوجات بلا أزواج .. عزاب ، وأرامل ..

ومنذ اللحظة التى وضع فيها أفراد هذا المجتمع اقدامهم على أرض مطار أنقره ، فى صباح السادس من ابريل عام ١٩٦٨ .. وحتى اللحظة التى صعدوا فيها على سلم الباخرة « الجزائر » فى ميناء دورسى بالبانيا ، فى الثالث عشر من مارس عام ١٩٦٩ ، كان ذلك المجتمع

بلا حكومة .. قطع صلته بكل مايحكم المجتمع من سلطات تنظيم وتشريع ورقابة ومحاسبة وردع .. وأصبح مطلوبا منى أن أحكم هذا المجتمع فى حركته المتواصلة لما يقرب من خمسة أشهر ونصف .

كنت أتصور أن سـفاراتنا فى البلاد التى نزورها ، ستكون عونا أساسيا لى فى هذه المهمة ، الا أن التجربة العملية أثبتت لى عدم جدوى الالتجاء اليها ، كما أكدت ضرورة أن أعتمد على نفسى فى ادارة شئون هذا المجتمع ، بوسائل ابتكرها ابتكارا ، تتيح للقافلة أن تواصل مسيرتها المرسومة ، وأن تفى بالتزاماتها قبل الدول المضيفة ، وأن تشرف البلد الذى خرجت منه ، وسعت من أجـل الدعوة لثقافته وحضارته .

والواقع أن تجربتى هذه كانت قد سبقتها تجربة شبيهة مع مسرح القاهرة للعرائس ، عندما كنت أتولى ادارته ، فى رحلة الى أوروبا زار فيها ثمانى دول على مدى ثلاثة أشهر ، ورغم الفارق الملموس فى عدد أفراد الرحلة ومداها الزمنى ، فقد استطعت أن أستخلص من رحلة مسرح العرائس بعض التجارب التى أفادتنى كثـيرا فى رحلتى هذه ، وخاصة فى تنظيم العمل عن طريق وضع لائحـة خاصة للرحلة قبل أن نتحرك من القاهرة .

عقدت عدة اجتماعات مع أعضاء الفرقة القومية للفنون الشعبية ، وشرحت لهم طبيعة المهمة التى يتصدون لها ، وعرضت عليهم فكرة وضع لائحة تنظم حياتنا اليوميـة ومسئوليات عملنا ، فتمت فى هذه الاجتماعات مناقشة كافة التفاصـيل ، وحرصت على أن أجعلهم يقترحون

بأنفسهم العقوبات المتدرجة على الاخطاء المختلفة ، واسلوب تنفيذ هذه العقوبات ، ابتداء من لفت النظر والانذار ، حتى الحرمان من الاشتراك فى اللقاءات الرسمية والعروض الى الخصم من مصروف الجيب الذى نتقاضاه من الدولة المضيفة .

وقد تم توزيع المسئولية على لجان مختلفة ، كما أوكل الى احدى هذه اللجان أمر تسجيل المخالفات ، وتحديد العقوبات ، وفقا للائحة التى وضع أعضاء الفرقة جميعا بنودها .

بهذا ، وبشىء من حسن التصرف فى استخدام الشدة واللين ، امكن لهذا المجتمع ان يواجه مهمته ، فى اطـار معقول من الالتزام ، وبلا سلطات خارجية تمنع وتبيح وتجازى وتثيب .

وغنى عن البيان ، ان تطبيـق اللائحة التى وضعوها لانفسهم ، لم يكن يتم فى ظل الاستجابة الكاملة والرضا التام فى كل الاحوال ، فالموافقة على اللائحة المكتوبة شىء ، وتحملُ ماتقضى به شىء آخـر .. الا أن مراعاة الدقة والعدالة التامة فى تطبيق هذه اللائحة الخاصة المبتكرة ، قد أكسبها قوة تفوق قوة القـانون ، وجعلها نافذة بلا حاجة الى سلطة قسر تلزم الافراد بقبولها ... وفى كثير من الاحيـان ، وعنـدما تقتضى الظروف ، وتسمح الامكانيات ، كنا نعقد ما يشـبه الجمعيـة العمومية ، نتدارس أحوالنا ، ونناقش امورنا ونبتكر الاساليب التى من شأنها أن تسهل عملنا ، وتشـيع روح التآلف ، والاحساس بالعدالة بين الجميع .

الغربة المركبة :

الا ان المجتمع الذى بلا حكومة ، ليس هو فقط موضوع هذا الكتاب ..

هناك أيضا الغربة المركبة التى عاشها أفراد هذا المجتمع على مدى خمسة أشهر ونصف .

وتعبير « الغربة المركبة » ، هو خير ماينطبق على حالنا طوال ذلك الزمن .

فأنت ، عندما تسافر الى بلد ما ، لفترة محدودة .. تشعر بالغربة ، ولكنك على مر الايام ، وكنوع من الدفاع عن النفس فى مواجهة هذا الشعور بالغربة ، تبدأ فى الاحساس بالالفة نحو عناصر حياتك الجديدة ، السرير الذى تنام عليه ، الحجرة التى تعيش فيها ، الشارع الذى تسير فيه ، البشر الذين تحتك بهم ... وأنت تستعيض بهذه الالفة بعض الشىء عن شعور الالفة الذى تستمتع به فى بيتك وبين أهلك ... وكلما طالت فترة اقامتك فى المكان الذى انتقلت اليه ، تدعمت الفتك نحوه ، حتى تقترب من الفتك بحياتك الاولى فى بلدك .

اما فى حالتنا هذه ، فقد كان علينا ، وفقا لبرامج العمل الموضوعة لنا ، الا نمكث فى مدينة واحدة أكثر من ثلاثة ايام متواصلة فى اغلب الاحيان .

١٥٩ يوما بالتحديد زرنا فيها حوالى ٦٠ مدينة ... معنى هذا ان اقامتنا فى كل مدينة ، فى المتوسط ، بلغت يومين ونصف يوم ... مانكاد نصل الى مدينة ونتعرف على بعض معالمها ، حتى ننتقل الى المدينة التالية ..

السرير الذى تنام عليه يتغير كل يومين .. المطعم الذى تأكل فيه لا تزوره أكثر من ثمانى مرات .. المسرح الذى تعمل عليه لا تقدم من فوق خشبته أكثر من عرضين .. كل شيء يتغير ، المبانى ، الشوارع ، الناس ، وأيضا اللغة .. مؤامرة محكمة على شعورك بالالفة . المدن تتوالى متلاحقة ، وكذلك الدول .. تركيا ، بلغاريا ، رومانيا ، الاتحاد السوفييتى ، بولندا ، المانيا الديموقراطية ، تشيكوسلوفاكيا ، المجر ، يوغوسلافيا ، البانيا .. لغات مختلفة ، عملات مختلفة ، طبيعة جغرافية متباينة . طقس متغير ، عادات متناقضة ... بشر جدد فى كل مرة .

ولو أن هذه الرحلة يقوم بها فرد واحد ، ربما كانت قد ابتلعته هذه الدوامة ، وافقدته حتى القدرة على الاحساس بالغربة .. الا أن وجودنا كمجتمع يتكون من تسعين مصريا .. لهم ارتباطاتهم السابقة على الرحلة ، كان سببا فى مزيد من احساسنا بهذه الغربة المركبة .

ماذا فعلنا فى مواجهتها ؟..

الشيء الوحيد الذى ساعدنا على تحمل هذه الغربة ، هو برنامج العمل المتصل الذى لا يتوقف .. سفر .. تدريبات .. عروض .. ثم سفر من جديد .

ثم آلاف الجماهير التى كانت تتجمع فى صالات العرض بالمسارح التى عملنا عليها ، وعواصف التصفيق التى كانت تعقب كل عرض .. وكلمات الاعجاب والتقدير التى نتلقاها من المختصين ، ونقرأها على صفحات الجرائد والمجلات ، ونسمعها فى برامج الاذاعة والتليفزيون ...

احساسنا الدائم بأن نجاحنا هو نجاح لمصر .. كل ذلك ، كان زادا لنا يعيننا على تحمل الغربة المركبة .

اما الخطابات القادمة من مصر ، فقد كانت لها قصة اخرى ..

كنا نتسلم هذه الخطابات ، اما من سفارة الدولة التى نصلها ، أو من مندوب التبادل الثقافى القادم من مصر .. وكنت قد وزعت على الاعضاء جدولا زمنيا بتحركاتنا ، بحيث يرسل الاهل خطاباتهم على سفاراتنا فى الدول المختلفة ، وقبل وصولنا اليها . وكانت مناسبة تسليم الخطابات من المناسبات الحرجة دائما .. وخاصة بالنسبة للفتيات اللائى لم يكن بمقدورهن الالتزام بالتحفظ والتماسك الذى يبديه الرجال . ما أكاد أنتهى من توزيع الخطابات ، وقبل أن انصرف لاقرأ خطاباتى ، يرتفع النحيب .. هذه لم يصلها خطاب من أهلها ... وتلك وصلها خطاب يحمل أخبارا لا تطمئن .. وثالثة وصلها أكثر من خطاب كلها أخبار طيبة ، أثارت حنينها للاهل والاقارب .. كان وصول الخطابات مناسبة للبكاء الجماعى أيا كان عددها أو الاخبار التى تحملها .

من اجل ان تتكرر :

الى جانب هذا المجتمع الذى بلا حكومة ، وغربته المركبة ، دفعنى الى كتابة هذا ، رغبة شديدة فى تسجيل ذلك الجهد المشرف الذى بذلته مجموعة من المواطنين ، على مدى الايام والاسابيع والاشهر ،

واستطاعوا بهذا الجهد أن يؤدوا خدمة جليلة لبلادهم .. استطاعوا أن يجعلوا اسم مصر يتردد على أفواه ، لم تكن لتردده لولا زيارتهم .. استطاعوا أن يؤكـدوا لجمـاهير الشعوب التى عملوا امامها ، المستوى الثقافى والحضارى الذى حققته بلادنا ... بعروضهم الفنية .. بأحـاديثهم الشخصية .. بلقاءاتهم الخاصة .. وتحملوا فى سـبيل ذلك الكثير من العناء ، وقطعـوا عشرات الآلاف مـن الكيلومترات ، وسط أقسى الظروف الجوية .. عملوا ، ومرضوا ، وقاموا من جديد ليواصلوا عملهم .. وظلوا حتى آخر يوم من ايام رحلتهم ، غاية فى الحـرص على مستوى عملهم الفنى ، والغيرة عليه .

ومن أجل أن تتكرر هذه التجربة ، وان نخرج منهـا بخبرات مستفادة ، اكتب عنها ، مؤكدا ضرورة الالتفات الى الفائدة العظمى من مثل هذا النشاط ، فى تحقيق تواجدنا الايجابى فى جميع أنحاء العالم . ومازلت أذكـر ما قاله لى سفيرنا فى تركيا بعد أن انتهت جولتنـا بها « صدقنى ، ان الاثر الذى تركتموه على الشعب التركى ، ليتجاوز كل مافعلته سفارتنا طوال السنوات الماضية » .

فنادق.. فنادق!

ملل من اللعبة الطريفة :

في البداية بدت المسألة وكأنها لعبة طريفة مسلية .. ما ان تعلن أرقام الحجرات حتى يندفع كل واحد ليخطف مفتاح حجرته ، ويسارع اليها فى تلهف، قريب من لهفة هواة « حظك اليوم » فى الجرائد اليومية .. كيف يبدو شكل الحجرة ؟... السرير ، الدولاب ، نوع الاضاءة ، الحمام ، البانيو .

وسرعان ماتصل الحقائب الى الحجرة ، وتبدأ هواية ممتعة اخرى ، كيف تنتقل محتويات الحقيبة الى الدولاب والادراج ، ماذا يوضع فى الحمام ، وماذا يوضع عند المرآة ، هل تكفى الشماعات الموجودة فى الدولاب ، أم يحسن البحث عن المزيد ؟.

وبعد يومين او ثلاثة ، تبدأ الرحلة العكسية .. كيف تدخل هذه الاشياء جميعا الى الحقائب التى خرجت منها ؟.. شكل جديد من اشكال التحدى ، يبدو ممتعا ومثيرا للمواجهة النشيطة .

هكذا كان الحال فى بداية الامر ...

وتتغير المدينة .. فيتغير الفندق ، وتتكرر من جديد عمليات الفضول والاستطلاع ثم مواجهة التحديات الصغيرة .. مدينة وراء مدينة ، وفندق فى عقب فندق بشكل متلاحق ، منتظم فى تلاحقه ، أربعة أيام على الاكثر لتبدأ الرحلة الى فندق جديد .

يخفت الفضول .. ويهبط حب الاستطلاع .. وتفتر التحديات .. ويحل محل هذا جميعا ، نوع من السأم .. والاستسلام القدرى يحيل المسألة بأكملها الى روتين بغيض .

وتبدأ المشكلة .. لاى سبب .. وحتى بدون سبب .

قبل أن تبدأ الرحلة ، كنا قد عقدنا عدة اجتماعات ، فى محاولة للاتفاق على سير حياتنا خلال الرحلة .. وفى هذه الاجتماعات تم وضع كشوف لترتيب أعضاء الفرقة فى الحجرات ، مع التباديل اللازمة ، سواء كانت حجرات الفندق مفردة ، أم لشخصين ، أم لثلاثة..وحتى لاربعة، حتى نحتاط لكافة الاحتمالات . وتم اختيار مسئول عن هذه المهمة ، يتسلم من ادارة الفندق بمجرد الوصول أرقام الحجرات وبياناتها ، ويوزع الاعضاء عليها مستعينا بالكشوف السابق اعدادها .

فى بداية الامر .. نجح المسئول فى مهمته ، ولكن مع التغيير المستمر وبعد أن فقدت العملية جدتها وطرافتها ... بدأت المشاكل .

جميل لا يطيق الاقامة مع بهى فى غرفة واحدة ، خلاف صغير بين سوسن وسعاد جعل من المستحيل وضعهما فى مكان واحد .. وحالة وراء الاخرى ، أصبحت الكشوف

القديمة غير ذات موضوع ، وأصبح علينا أن نعد كشوفا جديدة من واقع الحالة النفسية الجديدة لاعضاء الفرقة .

ثم جدت مسألة اخرى ..

عدد أفراد الفرقة يصل الى تسعين شخصا ، والفنادق عادة غير مستعدة لتقديم نفس الخدمات لهذا العدد الضخم ، خاصة فى المدن الصغيرة ، وكنا نضطر الى توزيع أعضاء الفرقة على فندقين أو ثلاثة . ثم ، مسألة الحمام .. بعض الحجرات بها حمام ، وبعضها الآخر يفترض فيه الاعتماد على حمام عام لخدمة عدد من الحجرات . ثم مسألة الادوار ، بعض الفنادق بلا مصاعد وبعضها تصل طوابقه الى أربعة طوابق .. وتبدأ من هنا التفرقة ، من الذى سيسكن فى الطابق الاول ، ومن الذى سيلزمه التوزيع بالصعود الى الطابق الرابع . ثم اتساع الحجرات ، بعضها لفرد واحد ، ويستوعب بعضها أربعة اشخاص .. وكانت ادارة الفندق فى بعض الاحيان تواجه العدد الضخم باضافة سرير من النوع السفرى الى الحجرة ، وتبدأ المشاكل حول من الذى سيكون من نصيبه السرير الاضافى .

بدأ السأم من الفنادق .. وهبط الحماس لحياة الفندق .. وظهرت المشاكل تباعا .. بعضها حقيقى وبعضها مفتعل .

وكان من الضرورى مواجهة هذا الوضع بشىء من التنظيم المقنع ، فعملية الانتقال من مدينة الى اخرى ، ومن فندق الى آخر ، كانت تتم كل يومين أو ثلاثة أيام ، وكان وصولنا الى الفندق بحقائبنا يسبب ازدحاما

شديدا ، تضاعف من وقعه على نزلاء الفنـدق طبقة صوتنا العادية فى الحديث .. هذه الطبقة التى لم تتعود عليها الاذن الاوربية . فيبدو وصولنا الى اى فنـدق وكأنه نوع من الغزو .. وثمة معركة على وشـك أن تلتهب !!

عقدت اجتماعا مع قيادات الفرقة ، وتم وضع نظـام دورى يعـوض كل فرد عن فرصته الضائعة .. الذى بلا حمام فى هذا الفندق ، يكون من حقه أن يحصـل على حجرة بحمام فى الفندق الذى يليه .. وهكذا بالنسـبة لباقى الميزات . كما أعيدت كشوف نزول الاعضـاء فى الحجرات المشتركة ، وفقا للعـلاقات الشخصية التى استقرت بعد زمن من الرحلة ، مع التنبيه بأن أى تغيير يطرأ على هذا الوضـع يجب الاعلان عنه فى موعـد سابق ! !

حقائب على الرصيف الالبانى :

وما أن انتهينا من وضع ترتيب الحجرات بالفنادق : حتى ظهرت مشكلة جديدة ، الحقائب .. !

حقائب ٩٠ شخصا فى رحلة تستمر ستة أشـهر ، فى حد ذاتها ، لا يستهان بعددها ، وبالحيز الذى تشغله، فاذا علمنا أن الفرقة زارت عشر دول ، وأن أعضاء الفـرقة كانوا يعمدون الى شراء حقيبة جديدة كل دولتين أو ثلاث دول على الاكثر ، ظهر حجم المشكلة .

العضـو يتقـاضى مصروف جيب يومى يتراوح بين

مايساوي جنيها استرلينيا وجنيهين .. ومصروف الجيب هذا ينصرف بكامله الى المشتروات الشخصيه ، فالدولة المضيفة توفر الاقامة الكاملة والمواصلات والعلاج . وفيما عدا نفقات التدخين للمدخنين ، لم يكن هناك من سبيل لانفاق هذا المبلغ سوى فى المشتروات .. فاذا أضفنا الى هذا أن عملة كل دولة اشتراكيه لا يمكن انفاقها فى دوله أخرى ، نفهم كيف كانت مهمة المشتروات واجبا منتظما وعاجلا قبل مغادرة دولة الى دولة أخرى .. وتزايد المشتروات يعنى تزايد الحقائب .وتبدأ مشكلة جديدة .

ثبت أن عدد الحقائب المتزايد لا يمكن أن يسمح للاعضاء باصطحابها فى الاتوبيس ، ولابد من توفير عربات نقل خاصة بالحقائب ، بدأت بعربة نقل واحدة فى بلغاريا وانتهت الى ثلاث عربات فى ألبانيا .. ولما كانت عربات النقل لا تسير بسرعة الاتوبيس أو القطار الذى ينقل الاعضاء ، فقد كان هذا التباعد بينهم وبين حقائبهم محلا للقلق .. بدأ قلقا مكبوتا لا يكشف عن نفسه ، حتى ضاعت أول حقيبة ..!

على الحدود الرومانية السوفييتية ، وفى مدينة أونجين وأثناء نقل الحقائب الى القطار المتجه الى موسكو ، فقد الراقص شوقى نعيم حقيبة ملابس كبيرة ، كانت بها بعض ملابسه الشخصية ، الى جانب بعض المشتروات .

وابتداء من موسكو ، أصبحت مشكلة الحقائب تشكل عنصرا دائما للقلق ، لم يكتب له أن يتبدد الا بعد مغادرتنا لجمرك الاسكندرية .

كنت أقف فى كل مرة يتم فيها تسليم الحقائب ، واضعا

يدى على قلبى ، منتظرا أول الصرخات ، سعاد تصيح « الشنطة السودة ما وصلتش ! » ، ثم نكتشف أنها وضعت فى غرفة أخرى بالخطا ، زغلول يكاد يبكى وهو يفتقد الخلاط الذى اشتراه من رومانيا .. المعلم عباس عازف المزمار يسعى مهرولا بين الحقائب التى تشغل عادة مدخل الفندق وصالونه ، باحثا عن حقيبته الناقصة ، وهو يتمتم ببعض الشتائم الصعيدية المدغمة ، مريم تبكى وقد اكتشفت أن مقبض حقيبتها الكبيرة قد انترع من مكانه ، وجيلان قد قطبت جبينها وركبها هم الدنيا ، فالحبل الذى ربطت به الحقيبة فى بولندا بعد أن تحطمت أقفالها ، ذلك الحبل قد تفكك ، وبرزت بعض محتويات الحقيبة ، مما يحتمل معه ضياع بعض محتوياتها .

مشهد متكرر .. يتصاعد انعكاسه على أعضاء الفرقة كلما مرت الايام ، وبدأت الغربة المركبة التى يعيشها هذا المجتمع الصغير تؤثر على افراده .

بعد انقضاء ثلث الرحلة اكتشفت ان مشكلة الحقائب تحتاج الى حل حاسم .. خاصة أن تنقلاتنا داخل كل دولة كانت كثيرة ومتلاحقة .. ابتداء من بولندا أضفت الى قائمة المفاوضات مع المسئولين ، موضوع تخزين الحقائب التى لا يحتاجها الاعضاء فى حياتهم اليومية فى مكان ما ، حتى وقت الانتقال الى دولة تالية ، بحيث لا يسمح للعضو باصطحاب أكثر من حقيبة واحدة فى تنقله بين المدن المختلفة للدولة الواحدة .

واسترحنا بعض الشىء ..

لكن الحقائب ومشاكلها ، فرضت نفسها علينا مرة ثانية بشكل مضحك فى نهاية رحلتنا .

كان المفروض أن تمتد رحلتنا بعد ألبانيا الى اليونان ، ثم نسافر بحرا من بيريه الى الاسكندرية .. الا أن تعثر الاتفاق مع اليونان أدى الى الغاء زيارتنا ، وبقيت مشكلة تدبير وسيلة السفر من ألبانيا .. بواخرنا لا تمر على الميناء الالبانى « دورسى » .. وهناك شبه استحالة في استعمال الطائرة نتيجة للوزن الخرافى للحقائب التيمعنا. وكانت هذه المشكلة تؤرقنى فى الاسابيع الاخيرة من الرحلة حتى وصلتنى برقية من القاهرة ، تفيد أنه قد تم الاتفاق مع الباخرة الجزائر على تغيير خط سيرها ، بحيث تمر وهى قادمة من فنيسيا على ميناء دورسى لتنقلنا الى الاسكندرية .

حن اليوم الموعود .. يوم السفر الى الاسكندرية ، وكدت أن أتنفس الصعداء وأعتبر أن مسئوليتى عن هذا المجتمع الصغير الغريب قد انتهت ، الى أن وصلت مع أعضاء الفرقة الى رصيف الميناء لاجد منظرا عجيبا ...

الباخرة « الجزائر » راسية على الرصيف ، والرصيف بأكمله تغطيه على مدى البصر حقائب الفرقة .. ومجموعة من الحمالين تقوم بجهد يائس لنقل هذه الحقائب الى الباخرة .

أبديت مخاوفى للمرافق الالبانى الذى كان معنا ، فراح يطمئنى ، قائلا أنهم قد استدعوا فرقة اضافية من الحمالين للمساعدة .. وطلب من أعضاء الفرقة أن ينتقلوا الى داخل الباخرة ، لاتمام الاجراءات ، وستلحق حقائبهم بهم . ورغم معرفتى بوقع مثل هذا الطلب عليهم ، وهم يرون حصيلة مشترواتهم فى ستة أشهر منثورة على

أتساع رصيف الميناء ، فقد أقنعتهم ، تارة باللين وتارة بالشدة حتى بدأ انتقالهم الى داخل الباخرة .

لكن الوقت أخذ يمضي ولم تنكشف من ارض الرصيف سوى رقعة صغيرة رفعت من فوقها الحقائب .. وأخذ الكابتن معين قبطان الباخرة يذيع نداءاته طالبا الاسراع بالانتقال الى داخل الباخرة حتى يمكنها أن تتحرك . وبقى الموقف على الرصيف كما هو ، فيما عدا مساحات بسيطة من أرض الرصيف بدأت تنكشف ، ذلك على الرغم من مجهودات الحمالين التى لم تتوقف .

وفجأة ، أصدر القبطان انذاره الاخير ، بل واذاعه فى المكبرات باللغة العربية ... الباخرة يجب أن تتحرك من الرصيف بعد ثلث ساعة على الاكثر ، يجب نقل الحقائب الى الداخل والا ستضطر الباخرة الى تركها على الرصيف ..!

ألقى القبطان معين بقنبلته هذه ، التى أعرف تماما وقعها على أعضاء الفرقة ، فأسرعت اليه أستوضحه حقيقة الموقف ، أخبرنى أنه يعنى ما قاله ، فايجار الرصيف سوف يتضاعف لو بقيت الباخرة دقيقة واحدة أكثر من العشرين دقيقة الباقية .

هنا ، أدركت أنه لا مجال للانتظار .. هبطت الى الرصيف واستدعيت شباب الفرقة ، وجعلت منهم طابورا يتشعب عند مدخل الباخرة الى أكثر من شعبة تتخلل أكوام الحقائب المرصوصة على الرصيف .. وبدأت عملية جماعية لادخال الحقائب الى الباخرة . ورغم العصبية والقلق ، فقد بدا المشهد مضحكا للغاية .. اشبه بفيلم

السينما عندما يدور بسرعة مضاعفة ، تماما مثلما ترفع سدادة الحوض المليء بالماء ، فيتدفق فى دوامة نشيطة .. ارض الرصيف تتكشف بسرعة متزايدة ، والحقائب تتحرك كطابور النمل الى مدخل الباخرة حيث تتراكم فتحتل المدخل ثم تتسرب الى المطعم المجاور فتملأ فراغه تماما ... وفى ظرف ربع ساعة ، انطلقت صفارة الباخرة ثم بدأت حركتها ، وقد ارتمى أعضاء الفرقة فى اعياء ظاهر على ارضها ، وعيونهم معلقة بجبل الحقائب الذى يشغل الفراغ من حولهم .

جناح الملوك فى لينينجراد :

الا أن عالم الفنادق فى رحلتنا لم يكن دائما مصدرا للمشاكل .. ففى ذلك العالم قضينا لحظات سعيدة بعد انتهاء تدريبات الفرقة او حفلاتها ، وكان عددنا الضخم يطبع الفندق دائما بطابعنا ، فيحقق لنا نوعا من الالفة .

فى لينينجراد سأل مدير الفندق عن مدير الفرقة عند وصولنا ، فذهبت اليه ليسلمنى مفتاح حجرتى مرحبا ، صعدت لانتظر حقائبى وأستريح من عناء رحلة موسكو ــ لينينجراد ، فتحت باب الحجرة فاكتشفت أننى عند مدخل جناح ضخم مخصص لاقامتى .. مدخل كبير بمرآة ضخمة فاخرة وشماعة من الموبيليا ذات الطراز العتيق ، يقود الى صالون ضخم لا تقل مساحته عن مائة متر مربع ، تتوسطه مائدة كبيرة من الرخام والبرونز ، وتشغل كل ركن من أركانه « فازة » من البورسلين الفاخر

يزيد ارتفاعها عن متر ونصف ، والمرايا الضخمة تشغل ثلاثة حوائط محاطة بزخارف ذهبية معقدة ، وفى فراغ الصالون تتوزع الارائك والمقاعد الضخمة المذهبة ذات الطراز الاصيل ، وفى ركن من الصالون بيانو « لارج » من النوع الذى نراه فى الحفلات الموسيقية السيمفونية .

يقود هذا الصالون يسارا الى حجرة مكتب واسعة ، تتسلق حوائطها النباتات الجميلة ، ويحتل ركن منها جهاز تليفزيون كبير ، ويقود الصالون يمينا الى حجرة نوم واسعة تشغلها قطعا كبيرة من الاثاث التقليدى الفخم .

احسست بالرهبة ، وانا انقل خطاى بين ارجاء هذا القصر الصغير !!

ويبدو ان حجرات الفندق الاخرى ، رغم تباين مستواها ، كانت مصدر راحة للجميع ، فلم تصلنى الشكاوى التقليدية التى تظهر بمجرد صعود كل عضو الى حجرته .. بل لقد حضر البعض سعيدا الى حجرتى ليحكى عن فخامة حجرته ، فتتوقف الكلمات على لسانه عندما يدخل الى الجناح الذى اقيم فيه ، وفوجئت بأغلب أعضاء الفرقة يتوافدون على الصالون الكبير ، يعيشون فى أرجاء المكان ، يستعرضون ويتناقشون ويعاينون. واستقر رأى الجميع على ضرورة الاستفادة من هذه الامكانية الخرافية ومن البيانو الكبير فى اقامة حفل خاص لاعضاء الفرقة .. وبعد البحث فى كشف جوازات السفر الذى يتضمن تواريخ الميلاد ، اكتشفوا أن عيد ميلاد دينيس يحل بعد يومين .

رغم ترحيبى بالقرار ، الا أننى ظللت طوال ذلك الحفل فى حالة من التوتر خوفا من أن تصاب احدى التحف الثمينة التى يزخر بها المكان .. واستطاعت الروح الطيبة التى سادت ذلك الحفل أن تبدد توترى فى النهـاية ، وأستمتع بالعزف المنفرد على البيانو من جيلان ، وفاصل الاغانى الذى قدمته هيام .. ثم فقرات التمثيل الصامت والفكاهات التى اختتم بها الحفل ، لقد كنت حريصـا أشد الحرص على هذه اللقاءات بعيدا عن التزامات العمل ومشاكله ، فقد كانت وسيلة فعالة فى تماسك ذلك المجتمع الصغير ، وتفريغ قلقه وسأمه ، وتبديد مضاعفات الاجهاد التى يتعرض لها .

كمين لغسيل المدير !

لما كانت اقامتنا فى كل فندق لم تتجاوز الثلاثة أيام ، فقد ظهرت مشكلة الغسيل .. الفنادق التى أقمنـا بها لا تستطيع انجاز الغسيل والكى فى هذه الفترة القصيرة ، وكان على كل واحد منا أن يعتمد على نفسه فى هذه المهمة انتظارا للاستثناء الذى يسمح لنا بالاقامة لفترة أطـول تمكننا من أن نعتمد على الفندق فى هذه المهمة . وكنت من واقع خبراتى السابقة قد نصحت الفرقة ، فى مواجهة هذه المشكلة ، بالاعتماد على الملابس النايلون التى تغسل بسهولة ولا تحتاج الى كى ، فاستجاب أغلب الاعضاء لهذه النصيحة ، وكانت مباريات الغسيل تعقد كل مساء ،

وان تكررت شكاوى بعض كبار السن من أعضاء الفرقة الموسيقية ، مما يتركه الفسيل على أيديهم من آثار .

وقد بدأ بعض شباب الفرقة بالاعتماد على زميلاتهم فى القيام نيابة عنهم بهذه المهمة ، الا انه مع مرور الزمن ، شاعت حركة تمرد بين البنات ، اضطر الشباب على أثرها الى الاعتماد على أنفسهم . كان الجميع يعتمد على جهاز التدفئة المركزى فى تجفيف الملابس ، ونظرا لان سخونة هذه الاجهزة كانت تتفاوت من فندق لآخر ، فقد راح الكثير من الملابس ضحية للسخونة الزائدة ، وكم من مرة هبطت الفتيات الى المطعم صباحا ، ودموعا مبكرة تترقرق فى عيونهن ، وآيات الاسى تعكسها وجوههن ، بعد أن ذابت الجوارب النايلون على مواسير أجهزة التدفئة .

وفى بعض الدول كان المرافق يخطرنى بأن غسيل الملابس وكيها سيكون ضمن مصاريف الاقامة ، وأنه مسموح للاعضاء بتقديم كافة مايحتاجون الى غسله الى ادارة الفندق . وجدت يوما أن اقامتنا فى أحد الفنادق ستمتد الى خمسة ايام ، فأبلغت الاعضاء بهذا التسهيل الذى يعرضه الفندق . وفوجئت ادارة الفندق بأكوام الملابس التى تدفقت عليهم ، مما فاق تصورهم وقدرتهم ، وكان أن تسلمنا آخر دفعة من الغسيل ونحن داخل الاتوبيسات التى سنسافر بها الى المدينة التالية . هذه التجربة جعلتنى حريصا كل الحرص فى اعلان مثل هذه الرخصة ، كلما أخطرت بها من قبل المسئولين ، حتى لا تتكرر عملية طرد المخزون من الملابس ، بمثل ماحدثت فى المرة الاولى .

حدث فى بودابست أن نزلت فى حجرة يشترك حمامها مع حجرة أخرى تنزل بها بعض فتيات الفرقة ، وكنت اضطر الى السهر حتى تنتهين من استخدام الحمام ، ثم تهدأ حركتهن ويخفت صياحهن ، فأتسلل الى الحمام حاملا الملابس التى انوى غسلها ، وهى فى أغلب الاحيان قمصان نايلون ومناديل وجوارب .

وذات صباح على مائدة الافطار ، فوجئت بالهمسات والضحكات المكتومة ، واخذت أستفسر عن سر هذه الهمسات دون ان أتلقى ايضاحا ، واخيرا وقفت ماجدة نعيم بشجاعة لتقول وهى تكتم ضحكاتها « بصراحة يا جماعة .. الاستاذ راجى لازم ياخد جايزة الفسيل .. ده عليه « نترة » قميص ، ما تعرفش واحدة مننا تعملها ! » ، وانفجرت صالة المطعم فى ضحكة واحدة ، واخذت ثريا جورج التى تقيم مع ماجدة فى الحجرة المجاورة لى ، تحكى كيف انهن بعد ان دخلن الى حجرتهن واطفأن الانوار ، اخذن يتابعن اصوات دخولى الحمام وانهماكى فى الفسيل ، بكل مافيه من تفاصيل ، وهن يتبادلن التعليقات الهامسة على « الشمللة » والجدية التى امارس بها عملى الليلى !

احتفال بالبطولة المزدوجة .

فى نفس الفندق بالمجر جرت واقعة مضحكة علمت بها بعد ان غادرنا المجر الى يوغوسلافيا . كانت حجرة بعض شباب الفرقة تطلّ على مايشبه المنور الذى يقيم على

الجانب الآخر منه مجموعة اخرى من الشباب ، وفى احدى الليالى أخذت المجموعتان تتبادلان الحديث من خلال المنور ، عندما أضيئت حجرة فى طابق سفلى ، وظهر فيها رجل مع فتاتين ، يبدو من شكله أنه سائح قادم الى بودابست . بدأ الرجل مداعباته مع الفتاتين فلفت نظر شباب الفرقة ، وبدأت تعليقاتهم التى اثارت فضول المجموعة الاخرى فانتقلت الى الحجرة التى تسمح بالمتابعة .. وارتفعت حرارة المداعبات ، والسائح مصر على القيام بها على مشهد من جمهور المتفرجين .. لفتوا نظره بتكدسهم على النوافذ وتصايحهم ، فكانت استجابته ابتسامة تحية واشارة ، ثم انصراف كامل الى مداعباته التى بلغت مداها مع الفتاتين ، دون خجل ، او حتى محاولة اسدال ستائر الحجرة .

عندما بدأ فى ارتداء ملابسه ، تمهيدا للخروج مع الفتاتين ، سارع الشباب بالهبوط الى الدور الذى يقيم فيه ، واصطفوا على جانبى الطرقة التى لابد سيمر منها فى طريقه الى المصعد ، يحيون بطولته المزدوجة ، وما ان ظهر مختالا بين فتاتيه حتى التهبت أكف الشباب بالتصفيق ، فمر بينهم ضاحكا سعيدا بحفل التكريم ، ومضى فى طريقه رافع الرأس فخورا بنظرات الشباب المبهورة .

سلاح التليفونات .. وعفريت على البلطيقى !

كانت عودتنا الى الفندق مساء فى اغلب الاحيان لا تتجاوز العاشرة والنصف ، ذلك لان الحفلات المسرحية

فى اوروبا تبدأ فى السابعة أو السابعة والنصف على الاكثر وكنت احرص ـ بلا تضييق ملحوظ ـ على أن يتجمع اعضاء الفرقة بالفندق بعد العشاء ، توقيا لمشاكل الاحتكاك ، وعدم القدرة على التفاهم .. الى آخر هذه الاعتبارات . وفيما عدا الايام التى كنا نقيم فيها حفلاتنا الخاصة فى مطعم الفندق ، كان الجميع ينصرفون الى حجراتهم عقب العشاء ... ويبدأ نشاط « سلاح التليفونات » .

وقد أطلق هذا الاسم على مجموعة من الشباب ، فتيان وفتيات ، تخصصوا فى المعاكسات التليفونية داخل الفندق كوسيلة من وسائل شغل الفراغ .. وهو نوع كسول من انواع شغل الفراغ ، يتفق تماما وحالتهم الجسمانية بعد التدريب أو العرض المسرحى .. اذ يكفى أن يستلقى الواحد منهم على سريره ، ويوسد الى جانبه جهاز التليفون ، ليبدأ نشاطه المسائى .

وكان مفعول هذا السلاح يتجاوز فى كثير من الاحيان الشباب ، ليصيب شيوخ الفرقة من أعضاء الفرقة الموسيقية . وكم من المقالب الساخنة تم تدبيرها وكانت وسيلتها جهاز التليفون بالحجرة . وكم من شكاوى تلقيتها صباحا على مائدة الافطار من هذه المقالب ، مما جعلنى أهدد بأن أطلب من ادارة الفندق الامتناع عن التوصيل ، رغم مافى هذا من مجازفة ، فالتليفون فى كل حجرة هو الوسيلة العاجلة للاخطار عن حالات المرض المفاجىء ، وما كان اكثرها .. الا أن التهديد كان يفقد

مفعوله فى الفنادق التى تزود حجراتها بتليفون آلى ، يتصل مباشرة بالحجرات .

كنا قد وصلنا الى جديانسك على شاطىء البحـــر البلطيقى فى بولندا ، وكانت ليلتنا الاولى بهـــا . فى شهر نوفمبر .. بل النصف الاخير منه .. هنـــاك فى أعلى أوروبا على البحر البلطيقى ، والجليد يغطى كل شىء ، وبرد الرحلة من الحدود السوفييتية الى الميناء البولندى يتسلل الى عظامنا ، وكنت قد انتهيت لتوى من اجراءات تسكين الاعضاء فى حجراتهم ، كما انتهيت من دراســة برنامج العمل والزيارات فى بولندا والمدن التى سنعمل بها مع السيدة مندوبة وزارة الثقافة التى رافقتنا من الحدود ... تناولنا العشاء ، وأسرعت الى حجرتى ، وبدون أن أخرج ملابسى من الحقيبة اكتفيت بسحب «البيجامة» والاسراع الى السرير .. وعلى الفور استغرقت فى نوم عميق .

فى حوالى الثالثة صباحا ، ارتفع رنين التليفون فى حجرتى عاليا ، وخيل الى فى تلك اللحظة أن أصــوات عشرات أجراس التليفونات قد استجمعت طاقتها لتحل فى التليفون الملاصق لسريرى :

ــ آلو .. « قلتها خافتة مغيظة » .

ــ الحقنا يا أستاذ راجى ، فيه واحد من الفرقة بينازع فى الاودة اللى جنبنا ..

ــ ازاى ..؟ « كسولة مستنكرة » .

ــ أنين متواصل مش عارفين مصدره .. وكل الاود اللى جنبنا سامعاه .. !!

سالتهم اذا ما كانوا قد اخطروا السيدة المشرفة على الطابق ، فقالوا انها معهم الآن وانها فى حالة انزعـــاج شديد ، ولا تعرف كيف تتصرف .. أحسست من صدق انفعالهم أن المسألة لا تدخل فى نطاق نشاط « ســـلاح التليفونات » ، فانتزعت نفسى مـــن السرير انتزاعا . ووضعت غطـــاء الرأس الروسى على رأسى ، وتدثرت بالمعطف الثقيل ، ورحت أدب فى طرقات الفندق الباردة حتى وصلت الى الحجرة مصدر الشكوى . وجـــدت مجموعة من فتيان الفرقة وفتياتها يحيطون بالســـيدة البولندية المسئولة عن الطابق ، والجميع فى حيرة كاملة ، فقد مروا على كافة الحجرات التى فى الطرقتين العلوية والسفلية ، الجميع بخير الا أن الانين المتقطع لا يتوقف . ودخلت الى الحجرة وسمعت الصوت . بالفعـل ، أنين شخص يعانى من ألم شديد ، يتوقف عندما يفتر الصوت من شدة الالم ، ثم يعود ليتجدد .

كنت لم استيقظ بعد استيقاظا كاملا .. وتفكيرى لم يصل الى حالة من النقاء تسمح لى بالتعليل ، فقلت كسا للوقت « غريبة !؟ » .

وما أن قلتها حتى انطلق الى الوجوه تعبير رعب لم أفهم معناه ، وقبل أن أصل الى سر هذا التعبير ، انطلقت احدى الفتيات صائحة « ياماما .. ده لازم عفريت !! » وحتى الآن لا أفهم كيف انتقل معنى هذه الكلمات العربية الى السـدة البولندية ، ففهمتها ، وبدا عليهـــا مباشرة نفس الرعب ، النابع من نفس الفكرة !!. ولما كنت لا أومن بمسألة العفاريت هذه ، ولما كنت على درجة من الرغبة

فى النوم ، لا تسمح لى بمناقشة هذه المسألة ومحاولة اقناع المذعورين بما اومن به . فقد اكتفيت بشخطة حاسمة « بلاش كلام فارغ انتى وهوه .. مادام كلكم بخير خشوا ناموا ، والصبح نبقى نشوف ايه الحكاية دى .. » . وانصرفت تاركا كل واحد منهم يتجه الى حجرته فى خطوات مسحورة مذعورة .

وفى الصباح انتشر الخبر قبل موعد الافطار وفوجئت عند هبوطى الى المطعم بمدير الفندق يسألنى عما حدث ، وحكيت له القصة ، وبدات أصف له الصوت ، فقاطعنى قائلا أنه قد صعد الى الطابق الذى صدرت منه الشكوى واستمع الى الصوت .. ولا يعرف له تفسيرا ..!!

حتى أنت ياحضرة المدير !

بعد أن تناولنا طعام الافطار ، والحديث لا يدور الا عن هذه الحكاية ، صعدت مرة ثانية لاعاود البحث مع بعض أعضاء الفرقة عن سر هذا الصوت الغريب .. وتبين لنا أخيرا أن انابيب التدفئة المركزية هى مصدر الصوت

عندما جاء المختص بنظام التدفئة المركزية بالمبنى وحكينا له القصة ابتداء من الاصوات وحتى العفاريت .. استغرق فى نوبة من الضحك ، وقال ان الانابيب هى بالفعل مصدر الصوت ، نتيجة لتباين الضغط على بخار الماء المخالط للماء الذى يجرى داخلها .

وبمثل هذه البساطة انتهت اسطورة العفريت الذى يسكن شاطىء البحر البلطيقى .

جميل جمال .. في نوفي بازار :

وعالم الفنادق كان ينقلنا من فخامة القصور ، الى أسوأ ظروف الاقامة بدون رحمة ..

ولعل أسوأ تجربة فى الفنادق ، واجهتنا فى بـــلدة صغيرة تدعى «نوفى بازار » فىجنوب شرق يوغوسلافيا .

كنا قد أوشكنا على الانتهاء من حفلاتنا في يوغوسلافيا، ونستعد للسفر الى الدولة الاخيرة ، ألبانيا . وقيل لى أن العرض التالى سيكون في مدينة نوفى بازار .. وكالعادة رحت أبحث فى الخريطة التى أحملها عن موقع هذه المدينة فلم أعثر عليها . عدت الى أحد المرافقين أستفسر منــه عن موضع المدينة على الخريطة ، فدلنى على اشارة دقيقة لموضع المدينة مثبت الى جانبها اسم المدينة فى حــروف أكثر تواضعا .. وتساءلت عن السر فى اختيار هـــذه المدينة الصغيرة بالذات .. فتعرضت لمحاضرة طويلة عن بساطة أهل هذه المنطقة وعن احتياجهم الى الترفيـــه شأنهم فى هذا شأن سكان بلغراد وزغرب وسراييفو . ولما كنت من أنصار ضرورة انتقال العمل الثقافى الى الريف والى الاقاليم ، فقد أمنت على كلامه ، وبدأت القــافلة رحلتها من العاصمة بلغراد الى المدينة المنشودة ، ثلاثة أتوبيسات ، تتبعها ثلاثة لوريات تحمل مهمات الفـــرقة وحقائب الاعضاء .

وما أن قطعنا ربع المسافة حتى بدأت المشاكل ، تحطم فجأة الزجاج الامامى للاتوبيس .. هكذا ، وبدون سبب .. وتطايرت شظايا الزجاج داخل الاتوبيس وسط صياح

الجميع وصرخاتهم .. وتوقفت القافلة ، وتكاثرت الاسئلة ... لا شيء انه سرطان الزجاج .. بدون سبب وبلا توقع يتفتت لوح الزجاج الى حبات صغيرة كالرمال ... وبعد ؟ .

سنتصل ببلغراد فى طلب أتوبيس آخر . والى أن يتم هذا ؟ .. يمكن أن تنتقل الفتيات الى أتوبيس اخر ، ويبقى الشباب فى الاتوبيس المتوقف لحين وصول النجدة .. المهم أن نواصل الرحلة حتى نصل فى وقت معقول يسمح بترتيب أماكن النوم .. وساعتها فقط ، عرفت أن الفرقة ستنام فى أربعة أماكن متفرقة . خلفنا وراءنا الاتوبيس المتعطل ، وانطلقت القافلة الى نوفى بازار .. ولكن بعد أن تحركت الى السيارة الصغيرة ، بناء على طلب كبير المرافقين ، حتى نسبق الفرقة وننظم أماكن الاقامة، باعتبار أن السيارة ستكون أسرع من الاتوبيس .

انطلقت بنا السيارة بأقصى سرعتها ، وبرغم هذا فقد وصلنا الى نوفى بازار فى منتصف الليل . المدينة متواضعة للغاية ، مظلمة ، يختلط فى شوارعها الوحل بالجليد الآخذ فى الذوبان .. وبعد الدخول والخروج من شوارعها الضيقة وصلنا الى مبنى متواضع جدا ، قيل لى انه الفندق الوحيد بالمدينة ، وأحد المواقع التى سنقيم فيها ، وهو لا يتسع لاكثر من عشرين فردا .. أخذت أتجول فى حجرات الفندق ... شيء لا يمكن أن يصل الى مستوى فنادق الازهر والحسين الشهيرة .. ولكن ماذا أفعل ؟..

سألت ، والمواقع الاخرى ؟ .. قيل ، استراحات للمبيت ، وهى وان كانت بعيدة بعض الشيء الا أن

مستواها افضل من الفندق ، سألت عن موقــع هـذه الاستراحات ، فقيل لى باختصار شديد أن الفنــدق يتوسطها . قلت ، سأبقى بالفندق ليسهل على الاتصــال بباقى أعضاء الفرقة ، لتنظيم العمل .

قالوا لى وهم ينصرفون لملاقاة الاتوبيسات ، يمكنك أن تهبط الى مطعم الفندق لتتناول كوبا من الشاى الساخن. ورغم عدم حماسى لعمل أى شيء ، قبلت هذا الاقتراح هربا من رائحة الفندق ، فوجدت ما أسموه بالمطعم أشبه بمقاهى بولاق البسيطة ..

جلست الى احدى الموائد اتفقد المكان من حــولى وخواطرى تتلاحق ، أنا شخصيا أستطيع أن أتــكيف مع أى مستوى من مستويات المعيشة ... لكن ، ما العمــل عندما تصل جحافل الفرقة منهكة ، متوترة الاعصاب ، وتفاجأ بظروف الاقامة هذه ؟!

قطع على خواطرى جرسون المطعم الذى أقبل متهللا ليقول « السلام عليكم » .. !! على التو ارتبكت أجهزة الادراك عندى .. التناقض الشديد بين هذه الغــربة المركبة التى أحياها بجسدى وفكرى ، وهذا التعبــير الذى أوحشنى حقا .. وأخيرا ، أفقت لابتسم وأرد عليه التحية ، « وعليكم السلام » .. وحاولت أن أواصــل الحديث ، الا أن نظرة عتاب ، أفهمتنى أن هذه التحيــة هى كل حصيلته من اللغة العربية .. ثم انصرف وعــاد بعد قليل ، يحمل صينية الشاى التى حرص على أن تكون بأفضل الامكانيات التى لديه رغم تواضعها . ثم انصرف مرة ثانية ليقبع أمام جهاز راديو عتيق فى ركن

من أركان المطعم ، أخذ يعالجه مارا على محطات الارسال واحدة اثر الاخرى .. الى أن انطلق صوت فريد الاطرش « جميل جمال ، مالوش مثال » ، فأرسل لى من مكانه ابتسامة تحية ، وانصرف الى عمله .. وكان من نتيجة هذا أن اثارت الاغنية فضول رواد المطعم ، فانصرفوا عن احاديثهم ، ليوجهوا ابصارهم ناحيتى ، فى فضول صامت.

وأخيرا ، وصل كبير المرافقين مع بعض أعضاء الفرقة الذين سيقيمون بالفندق ، وأخذت أستفسر منه عن حقيقة الوضع ، فاعترف ان المجموعة الاولى تنزل فى استراحة قبل الفندق بمسافة ١٥ كيلومترا ، وان الاستراحة التالية تلى الفندق بمسافة ٢٠كيلومترا ، تليها استراحة اخرى تبعد عن الفندق بمسافة ٣٠ كيلومترا .!! وهكذا اصبحت الفرقة موزعة على مدى ٤٥ كيلومترا .

اخذت أعاتب كبير المرافقين ، فراح يتعلل بأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وأننا سنتحمل ليلة واحدة اخرى ثم نسافر الى المدينة الكبيرة التالية « مترو فيتسا » ، حيث ظروف الاقامة الطبيعية والفندق الكبير .

الا أن المجهود الشاق الذى كنا نبذله كل مرة لتجميع الفرقة من أجل بروفة أو وجبة طعام أو من أجل تقديم العرض ، جعلنى أصمم على السفر الى مترو فيتسا بمجرد نهاية العرض فى نوفى بازار ، رغم احتجاج كبير المرافقين ، وقوله أن هذه المغامرة قد تتمخض عن عدم وجود أماكن خالية بالفندق .. قلت فى صبر نافذ ، نبحث عن أماكن للفتيات وننام نحن فى الاتوبيسات .! وكان تقديرى فى الواقع ، انه بعد نهاية العرض ، والى أن ننتهى من تجميع

مهماتنا المسرحية ، وحقائب الاعضاء المبعثرة على مـدى ٤٥ كيلومترا ، ثم الى أن نصل الى مدينة متروفيتسا ، يكون قد انقضى اغلب الليل ، ويمكننا أن ننـام طـوال النهار التالى ، حيث لم يكن فى برنامجنا عمل معين طوال ذلك النهار . رغم تحمس الجميع لهذه الفكرة ، وسعادتهم بالرحيل من نوفى بازار .. الا أن اختلالا فى التقـديرات الزمنية اقتضانا النوم داخل الاتوبيسات لمدة ثلاث ساعات على الاقل أمام باب الفندق فى متروفيتسا ، بعد أن دبرنا أماكن بالفندق للفتيات والمرضى .

وهكذا بقيت ذكرى مغامراتنـا فى « نوفى بازار » ، كذكرى لاقسى ظروف اقامة واجهتنا طوال رحلتنـا الغريبة .

راسيا الموسكوفى .. واكتشاف متاخر :

فى مقابل ذكرى أصغر الفنادق التى أقمنا بها ، تعيش ذكرى أكبر الفنادق ، الذى استقبلنا كقطرة فى بحر نزلائه .. فندق « راسيا » بموسكو .

فندق « راسيا » من احدث فنادق موسكو واضخمها فى نفس الوقت ، فهو يتسع لاستقبال ستة آلاف نزيل فى وقت واحد ! . ولا يمكن أن أنسى مشهد وصولنا الى ذلك الفندق الضخم ، كنا نلج ابوابه فى نفس الوقت الذى تتدافع على أبوابه عشرات الوفود المقيمة فيه .. نفس المشهد الذى رايته عندما كنت أعبر بوابات الاستاد فى مدينة نصر يوم مباراة هامة مع « ريال مدريد » ! .

وقبل تحركنا من محطة موسكو الى الفندق ، حرص المرافقون على التنبيه علينا اكثر من مرة ، بالتجمع بعد الدخول من باب الفندق الى يمين البوابات مباشرة ، حتى لا نفقد بعضنا وسط هذه الدوامة البشرية . توجهت مع المرافقين الى ادارة الفندق حتى ننظم أماكن المبيت ونتسلم أرقام الحجرات ، فتولى مندوب عن الفندق أمر تزويدى بالعديد من النصائح والتعليمات . فالفندق رغم ان بناءه قد اكتمل ، الا ان الانشاءات الداخلية بقى منها الكثير فى دور الاستكمال .. المصاعد مثلا ، لا تعمل جميعا ... وبناء على هذا يجب على كل فرد أن يعرف بالتحديد اى المصاعد اقرب الى حجرته ، ثم ماهو الطـــريق الذى سيسلكه عندما يخرج من المصعد ليصل الى حجرته . كان مندوب الفندق يلقى هذه التعليمات بكثير من الجدية تصبغ حديثه صبغة اعتزاز وافتخار ، فتصورت أنه يبالغ فى تعليماته هذه كنوع من المباهاة بضخامة الفنـدق ، الا ان الايام القليلة التى قضيناها فى ذلك الفندق العملاق اكدت لى صدق تحذيراته . الخطأ البسيط فى اختيـار المصعد المناسب ، قد يؤدى بالفرد أن يسير مسافة لاتقل عن كيلومترين من الطرقات المفروشة بالســجاد الازرق السميك ، حتى يصل الى حجرته .

كان أول التعليمات مراعاة المدخل المناسب للفندق : فالفندق له مدخلان متشابهان تمام الشبه .. أحدهمـا يطل على الكريملين والآخر فى الجهة المقابلة له تجـاه المدينة ، ويكفى أن يلتبس عليك الامر فى اختيار المدخل المناسب ، حتى تفقد الامل فى الوصول الى غرفتك .

وكان البند التالى فى التعليمات ، هو شرح الطريق الى المطعم الذى ستتناول فيه الفرقة وجباتها ، فالفندق به عشرات المطاعم وعشرات البوفيهات ، ونتيجة لعـــدم استكمال طاقم المصاعد ، فقد كان المطعم بمكانه المقــابل لموقع حجراتنا ، مصدر عذاب متصل فى الرحلات الثلاث على مدى اليوم .. كنا نقف فى طابور المصاعد الهابطة من الطابق التاسع عشر الذى كنا نقيم فيه ، ونهبط الى مدخل الفندق ، ونخرج من أبوابه الزجاجية الضــخمة لتتلقى صدورنا عواصف الجليد المتناثر ، ونروح ندور حــول الفندق من الخارج مسافة طويلة على امتداد ظلعين من اضلاعه ، حتى نصل فى النهاية الى الباب الذى يقود الى المطعم الذى خصص لنا .. كانت هذه الرحلة مصــــدر عذاب للجميع .. وكم من واحد تنازل عن احـــــدى الوجبات ، ايثارا للراحة والدفء .

الطف مافى الموضوع أنه فى يوم اقامتنا الاخير بالفندق ، وكنت بصحبة المخرج السينمائى سيد عيسى الذى كان يتم فى ذلك الحين دراسته بموسكو ، والفنان الصحفى جمال كامل الذى رافق الفرقة لعدة أشهر ، وكنـــا فى طريقنا من حجرتى الى المطعم ، وفى طريقنا الى المصعد وجدنا سلما هابطا .. ومن باب المغامرة ، قررنا أن نهبط لنرى الى أين يؤدى بنا .. وكانت المفاجأة الـكبرى أن وجدنا أنفسنا عند نهاية الدرج فى داخل المطعم المنشود .. وعرفنا بعد ذلك انه الى جوار هذا السلم يوجد مــكان المصعد الذى لم يتم تركيبه بعـــد والذى يفترض أن نستخدمه فى رحلتنا الى المطعم .

ناخت سيناتوريوم .. فى ألمانيا :

لعل اغرب تجاربنا مع الفنادق وأماكن الاقامة ، كانت تنتظرنا عقب وصولنا الى المانيا الديموقراطية ، ولهـذه القصة مقدمات لابد منها .

كانت برامج الزيارات طوال الاشهر الستة موزعـة باحكام بين الدول المختلفة ، على اساس أن تسلمنا كل دولة من حدودها الى حدود الدولة المتاخمة التالية . وهى حركة ذكية لجأت اليها ادارة التبادل الثقافى بوزارة الثقافة حتى لا تدفع مليما واحدا طوال جولتنا خلال هذه الاشهر الستة . فمنذ ان أسقطتنا فى أنقـرة بتركيا ، وحتى تسلمتنا فى ميناء دورسى بألبانيا ، كانت كافـة نفقات اقامتنا وتنقلاتنا على ميزانية دولة من الدول التى زرناها .

الا انه كانت هناك ثغرة فى وسط هذا البرنامج فى الفترة مابين ٢٠ ديسمبر و ٥ يناير .. فقد اعتذرت كافة الدول عن استقبال الفرقة فى هذه الفترة ، باعتبـارها فترة اعياد الكريسماس ورأس السنة ، حيث تتعطـل كافة الاجهزة التى يجب أن تتعامل معنا . وكان الدكتور مجدى وهبة مدير عام التبادل الثقافى قد أخطـرنى قبل السفر ، أنه بصدد الوصول الى حل لهذه الفترة ، وأنه سيبرق بهذا الحل فى ظرف شهر من بداية الرحلة .

مضى اكثر من شهر..ولم أتسلم اخطارا ما من القاهرة. وما أن وصلت موسكو حتى أجريت اتصالا تليفونيـا بالقاهرة ، أسأل عن مصيرنا فى تلك الفترة ، فقيل لى ان

الاتحاد السوفييتى سيستقبلنا مرة ثانية بعد انتهاء عملنا فى بولندا وخلال هذه الفترة ، علينا أن نقدم حفلاتنا فى طشقند وسمرقند . ورغم ماسيفرضه علينا هذا الحل من ارتباك فى خط سيرنا ، وما يضيفه الى رحلتنا من آلاف الكيلومترات بالقطارات والاتوبيسات ، الا أنه بعد كل شىء ، مخرج لنا من أزمة هذه الايام الساقطة .

وقبل أن نغادر موسكو الى ريجا لنقدم حفلاتنا هناك ، فى طريقنا الى بولندا ، أخطرنى مستشارنا الثقافى بموسكو ، ان الاتحاد السوفييتى قد صرف النظر عن هذه الفكرة ، فأوصيته بمتابعة الاتصال بالقاهرة ، على أن يصلنى الرد النهائى فى وارسو .

وفى بولندا .. علمت من السيدة كريمة الجوهرى ، مندوبة ادارة التبادل الثقافى التى أوفدت لمرافقتنا طوال مدة اقامتنا فى بولندا ، أن النية متجهة الى التعاقد مع متعهد انجليزى لتقديم حفلات للفرقة بلندن فى هذه الفترة ... كان صدى هذه الاخبار على الفرقة طيبا ... فالرحلة ستكون مريحة بالطائرة ، وزيارة لندن لاول مرة ستكون بلا شك مصدر متعة للجميع .

الا أن السيدة كريمة ، عادت لتقول أن المسألة لم يتم البت فيها نهائيا ، وأنها مازالت فى دور المفاوضات مع المتعهد . وعاد القلق من جديد ينتابنى .. والايام تجرى مقتربة بنا من هذه الفترة الحرجة .. فسارعت بالسفر الى وارسو لاجرى اتصالا جديدا بالقاهرة ، وبعد محاولات عديدة لاجراء الاتصال التليفونى فى ظل الظروف الجويه القاسية ، وصل صوت القاهرة ليؤكد أن المشكلة

قد حلت نهائيا ، وأننا سنتجه بعد بولندا الى المانيا الديموقراطية ، لننزل على ضيافتها بلا عمل طوال هذه الفترة ، ثم نبدأ بعد ذلك جولة العمل داخل المانيا .

على الحدود البولندية الالمانية استقبلنا وفد المرافقين الالمان . كان ذلك حوالى التاسعة مساء ، وبعد الترحيب، وتبادل الكلمات الرسمية ، تكدسنا داخل الاتوبيسات فى الطريق الى « سفيكاو » فى جنوب المانيا ، حيث تقرر ان نمضى أيام الضيافة قبل ان يبدأ برنامج العمل .

كنا نتصور جميعا اننا سنمضى فترة الراحة فى برلين ، ولذا فقد جاء هذا القرار مخيبا للآمال ، وقد حاولت ان أستفهم من كبير المرافقين عن هذه المدينة ، فقال كلاما كثيرا عن الهدوء وجمال الطبيعة والهواء النقى الصحى !.. الى آخر هذه الاوصاف التى لم يكن رنينها فى اذاننا يترجم نفس الطريقة الشاعرية التى قيلت بها .

وقبيل الفجر بساعة تقريبا ، وبعد رحلة استمرت حوالى الخمس ساعات ، وعندما وصلنا الى منطقة معزولة عن العمران ... أشار كبير المرافقين بيده الى بصيص من النور يظهر فى نوافذ مبنى قاتم مقام على ربوة، تحوطه فروع أشجار يابسة تساقطت أوراقها .. اشار بيده وعلى فمه ابتسامة مطمئنة ، هاهو « الناخت سيناتوريوم » .

وقفت الاتوبيسات فى الساحة التى امام المبنى بعد ان عبرت السياج المقام حول ساحة البيت تاركة آثار عجلاتها مغروسة فى الجليد الابيض الناصع ، وما ان وقفت

الاتوبيسات وصمتت محركاتها .. حتى هبط على المنطقة سكون مطبق ، صـــمت غريب ثقيل ، تكاد أن تســمع له صوتا !! ..

وبدا المشهد ، بظلمته الشديدة التى يكسر حدتها لمعان الجليد المكتوم فى بعض الاركان ، بأشجاره التى تشابـكت أغصانها العارية ، بالمبنى الرابض فى رسوخ على الربوة . بدا هذا كله وكأنه مقتطع من احدى روايات أجاثا كريستى البوليسية ، أو تمثيليات هتشكوك التليفزيونية المرعبة . هنا سنقيم لمدة نصف شهر ، نحتفل بأعياد السنة الجديدة على بعد ثمانية كيلومترات من أول مظهـر من مظـــاهر العمران .. فى ناخت سيناتوريوم مدينة سفيكاو ..

الا أن هذه الخواطر لم يكتب لها أن تستمر طويلا ، فسرعان ما بددتها صيحات ونداءات تبادلها أشـــبال النيل !!... وبدأت على الفور ملحمة توزيع الاعضاء على الحجرات ، فلاول مرة منذ ثلاثة أشهر ، سيستقر أعضاء الفرقة فى مكان واحد ولمدة خمسة عشر يوما كاملة ... ومن هنا كان حرص كل واحد على التوصل الى أفضـل ظروف الاقامة والصحبة . واكتشفت أن عدد الاماكـن المتاحة لا يستوعب جميع أفراد الفرقة ، فقيل لى أن هذه هى الطاقة القصوى للمكان ، وأن هناك خمسة أماكـــن لقيادات الفرقة فى فندق بمدينة سفيكاو ، على بعد ثمانية كيلومترات .

أحسست بسعادة غامرة .. هكذا ، اخيرا ، ستتاح لى اجازة لمدة أسبوعين من المسئولية الدائمة عن هــذا المجتمع ، هذه المسئولية التى كانت دائما تنسحب عــلى

مدى ٢٤ ساعة فى اليوم .. الآن ، والآن فقط ، أستطيع أن أنام نوما ثقيلا بلا توقع لرنين التليفون ينقـــل الى سمعى مشاكل الفرقة التى لا تنتهى ، من مرض مفاجىء ، الى خلاف طارىء يستدعى التدخل .

على الفور ، تعجلت الانتهـــــاء من اجراءات توزيع الحجرات وتحديد أسماء الذين سيقيمون معى بالفندق ، وحددت مسئولا عن المجموعة المقيمة بالناخت سيناتوريوم وأخذنا طريقنا الى الفندق . وما أن وصلت الى الفندق ، حتى أسرعت الى حجرتى واســـتلقيت على سريرى ، والهدوء يحيط بى ، لا تصل الى أذنى صيحات شـــباب الفرقة ، والحوار العادى لشيوخها المرتفع الطبقة بطبيعته .. ورحت فى نوم عميق ، يضاعف من عمقه احســاسى بالكيلومترات الثمانية التى تفصلنى عن الفرقة ... كل كيلومتر منها يتضمن الف متر بالتمام والكمال ..

وفى الصباح تصاعدت طرقات ملحة على باب الحجرة ، بلغ من تصاعدها أن نجحت فى انتزاعى من حـــالة النوم العميق المطمئن التى كنت أستمتع بها .. وبجهد واضح قمت أتعثر لافتح الباب .. ولتطالعنى من جديد وجـوه بعض أعضاء الفرقة ، تتزاحم فى فتحة الباب !!! ، تبدد نومى تماما ، وضاعت أحلام الكيلومترات الثمانية التى تتضمن كل كيلو متر منها الف متر ..

ــ اتفضلوا ..

قلتها يائسا ، عائدا الى سريرى ، وهم يتدفقون الى داخل الحجرة يملأون فراغها .

ـ هى الساعة كام دلوقت « قلتها بشيء من العتاب »

ـ الساعة اتناشر .

الثانية عشر .. لسنا فى الصباح اذا ، يبدو أن وصولى الى الفندق فى الرابعة صباحا ، ثم الجو القاتم الملبـــد بالغيوم ، قد أوحيا لى أننا مازلنا فى مطلع النهار .

ـ نعم ؟ ..

قلتها فى مواجهة صمتهم وترددهم فى بدء الحديث ، فانبرى محمد خليل يروى فى حماس والم سبب هجومهم الصباحى على حجرتى .

منذ بداية اليوم كانوا قد تعرفوا على جغرافية المكان ، وبلغة الاشارة العالمية ، كانوا قد فهموا أنه على بعد أمتار قليلة من مكان اقامتهم توجد محطة أتوبيس ، وأن هذا الاتوبيس يصل الى المدينة ، وعلى الفور بدات الافـواج تتسلل من الناخت سيناتوريوم الى المحطة ، فالمدينة .

ومدينة « سفيكاو » ، مدينة هادئة صغيرة ، ما أن انتشرت جحافل الفرقة فى طرقاتها حتى أثارت فضول أهل المدينة .. وباستخـــدام بعض المفـــردات الانجليزية والفرنسية ، استطاع أعضاء الفرقة أن يشرحوا قصـــة وجودهم بالمدينة ، وانهم أعضاء فرقة الرقص الشـــعبى من الجمهورية العربية المتحدة ... « وأين تقيمون ؟ » . هكذا كان يجيء السؤال وعلى الفور تخرج الاوراق من جيوب أعضاء الفرقة ويروحون يتهجون بصعوبة « فى الناخت سيناتوريوم » .. وينفجر اهل المدينة فى عاصفة من الضحك ، ويواصلون سيرهم دون تعقيب ، وهم

يتبادلون حديثا ضاحكا بالالمانية ، وسط تعجب أعضاء الفرقة واندهاشهم .

ثم ، تتكرر نفس القصة أكثر من مرة ...!

فبدأت تنتابهم الوساوس .. الذى يعلمونه انهم يقيمون فى مكان أشبه بالمستشفى .. فما الذى يثير الضحك والتعجب فى هذا ؟.. لابد انها مستشفى للأمراض العقلية !! .

وبهذا الاستنتاج كان هجومهم المحتج على حجرتى . قلت لهم أن استنتاجاتهم فى غير محلها .. والمكان لايعدو أن يكون نوعا من المصحات .

قالوا باصرار .. اذا فهو مصحة للأمراض العقلية !..

وكان لابد من الاتصال بالمرافق الالمانى ليتولى شرح حقيقة الامر .

وجاء الشرح مطمئنا للجميع .

سفيكاو ، احدى مدن الجنوب الالمانى ، وهى مركز ضخم للتعدين والمناجم ، وكلمة « ناخت سيناتوريوم » الالمانية ، تعنى « مصحة ليلية » . فالدولة ، رعاية لعمال المناجم بظروف عملهم الشاق ، تقيم هذه المصحات الليلية فى مناطق المناجم ، لتجرى فيها فحصا دوريا دقيقا على كل عامل ، توقيا لحدوث أمراض المهنة .. والعامل اى عامل يكون عليه فى وقت ما من السنة أن يمضى بهذه المصحة مدة نصف شهر ، يخضع خلالها لكافة الفحوص والتحاليل الطبية ، حتى تطمئن الدولة على حالته الصحية ... وقد سميت ليلية ، لان العامل

خلال هذه الفترة ، يذهب الى عمله كالمعتاد صباحا ، ولكنه لا يعود الى بيته فى نهاية عمله ، بل يتجه الى المصحة ليقيم بها حتى يحين موعد العمل فى اليوم التالى .

ولما كان العمال جميعا فى أجازة رأس السنة ، وكذلك الاطباء العاملين فى المصحة ، فقد رأت وزارة الثقافة الالمانية استغلال هذا المكان لاقامة الفرقة فى فترة الاعياد ، نظرا لاستحالة تدبير مكان لجميع الاعضاء فى فنادق برلين التى يشتد الزحام عليها فى فترة الاعياد هذه .

وهكذا تبددت مخاوف أعضاء الفرقة ، واطمأنوا على عقولهم ! .

ورغم ظروف المصحة ، وبعدها عن العمران ، فقد استطاع أعضاء الفرقة أن يجعلوا من فترة اقامتهم بها ، أياما سعيدة ، يتذكرونها حتى اليوم بتفاصيلها الدقيقة .

كنت قد اغتصبت من سفارتنا ببولندا مجموعة من الاسطوانات لام كلثوم ، وفايزة أحمد وعبد الحليم حافظ ومحمد رشدى ، وأقول اغتصبت ، لانى أخذتها بعد الحاح شديد فى مواجهة الممانعة التى ابداها أعضاء السفارة ، وخوفهم على ضياع هذه المجموعة .. وكانت هذه الاسطوانات مصدر متعة دائمة لاعضاء الفرقة وكان صوت البيك آب لا ينقطع طوال ساعات الليل النهار . فى حدود هذه المجموعة من الاسطوانات اقيمت محطة اذاعة محلية فى الناخت سيناتوريوم تولت اذاعة هذه المجموعة بكافة التباديل والتوافيق الممكنة . وعلى أنغام هذه الاغانى تمت الحفلات الراقصة ، وحول

هذه الاسطوانات انعقدت حلقات البكاء الحـــــريمى ، حنينا للوطن .

الطريف ، انه فى كل سـفارة نصل اليها ، كنـا نجـد من يقول مبتسما « الاستاذ عبد العزيز اتكلم من وارسو .. وبيقول تسيبوا الاسطوانات عندنا » ، فنؤمن على هذا الكلام ، وننسى هذا المطلب حتى السفر الى الدولة التالية ... وبهذا تم تسليم هذه المجموعة الى اعضـاء سفارتنا فى ألبانيا وقبل صعودنا الى الباخرة !.

فى مصحة سفيكاو هذه ، تم تنظيم اضخم حفل خاص اقامته الفرقة لاعضائها .. وحضره وفد المرافقين الالمان بالاضافة الى المترجمين وكانوا من العــراقيين الذين يدرسون فى المانيا ، كما حضره العاملون والعاملات فى المصحة ، من الذين حرموا الاستمتاع بأجازة العام الجديد لخدمة أعضاء الفرقة ، وتقديم الوجبات لهم .

فى ذلك اليوم ، يوم الكريسماس ، قررت اللجنة المشرفة على الاحتفال اعفاء عمال المصحة وعاملاتها من العمل ، وتوزع عملهم على أعضاء الفرقة .. لجنة لتنظيف المصحة واخرى لطهى الطعام ، وثالثة للاعداد للحفل المسائى .. وغاصت راقصات الفرقة فى قزانات الطهى الضخمة ، فقد كان القرار ان يكون الاكل مصريا .. ارز مفلفل على الطريقة المصرية ، وكوسة بالدمعة ، وكفتة بالبصل ... وتحول هذا القرار الى مقلب شربته راقصات الفـرقة اللائى أمضين الساعات الطوال فى دق الكفتة ، وتنقيـة الارز ، وتحريك الطعام فى القزانات الضخمة ، وشـرب المقلب أيضا باقى أعضاء الفرقة والضيوف ، فى الكوسة

التى تتصاعد منها رائحة الشياط ، والكفتة التى تشبعت بالملح ، الا أن الحماس للعمل والمناسبة لم يسمح لاى فرد بالانتقاد ، بل على العكس ، وقفت كل من ليونى ونوال تتلقيان عبارات الثنـــاء والاستحسان على جهودهمـــا المشرفة ! !

وفى المساء اقيم الحفل الساهر الكبير الذى حضـره الجميع ، وتولى كمال نعيم مصمم الرقص بالفرقة ، وضع وترتيب البرنامج ، الذى تضمن عرضا حقيقيا للازياء ، علل سر انتفاخ حقائب بنات الفرقة ووزنها الثقيل ، ثم عرض كوميدى للأزياء التنكرية ، وكان من أنجح فقـراته تنكر هدى فى زى مواطنة من أواسط أفريقيا ، وتنـكر عبد السلام عبد المتجلى ، عازف المزمار الصعيدى ، فى زى فتى أسبانى من شباب الهيبز !! . وتوالت الفقرات بين ضحكات الجميع ، وهمس كبير المرافقين فى اذنى ودموع الضحك تترقرق فى عينيه « لقد بلغت السبعين من عمرى ، وحضرت مئات الحفلات الشبيهة ، ولم يحدث ابدا أن ضحكت مثل هذا الضحك . أنتم ابنـــاء شعب يتدفق حيوية » .

حياة كاملة.. على عجلات

جداول لوغاريتمات .. لخمس دقائق :

من أنقرة أول مدينة فى الرحلة وحتى دورسى آخـــر مدينة ، وعلى مدى ١٥٩ يوما ، قطعت الفــرقة الاف الكيلومترات ، اما بالاتوبيس أو بالقطار .

قطعنا ١٠٦٤٠ كيلومترا بالاتوبيس ، وقد تم هــذا على مدى ٢٤٩ ساعة و ٤٠ دقيقة ، وقطعنــا ٦٧١٢ كيلومترا بالقطارات ، على مدى ١٢٨ ساعة ، و ٥٥ دقيقة ... وهذا يعنى أكثر من ٣٧٨ ساعة من السفر ليـــلا ونهارا ، أغلبهـــا تحت وابل المطر الثقيل الكثيف ، أو عواصف الجليد العاتية ، وأندرها تحت أشــعة شــمس صفراء باهتة خادعة ، توحى بالدفء ولا تفى به .

وكالعادة بدأت هذه الرحلات الطويلة مثيرة للحماس ، مشبعة للفضول ، حافلة بالتعليقات الطريفة والنــكات والاغانى الجماعية .. وعلى مر الايام ، تحــولت الى ساعات من المعاناة والعذاب . كل ماهو مثير ، تحول الى روتين جاف ، بارد ، يثقل على النفس ولا يهزها ، تبدد الفضول ، وأصبح بالامكان التنبؤ مسبقا بكافة الحـــالات

التى ستتوالى ، نفذ رصيد التعليقات الطريفة ، والنكات المبتكرة ، وتحولت الاغانى الجماعية الى اجراء روتيني لمواجهة الساعات الطويلة التى لا تنتهى ، ترددها الافواه دون حماس ، وتقصر عن المشاركة فيها كلما أمكن ذلك .

حقيبتى الحمراء الصغيرة التى كنت احتفظ فيها بآلة التصوير والافلام وبعض الاوراق اللازمة ، وكتـــاب او كتابين لمواجهة هذه الساعات الطوال ، تحولت الى صيدلية متنقلة ، درامامين لمواجهة الدوار الناشىء عن رحـلات الاتوبيس الطويلة ، فيتامين سى ، نقط للانف ، اسبرين ... الى آخر القائمة .

وكما حدث فى الفنادق ، جرى فى الاتوبيس . كنـا نصعد الى اول أتوبيس يصادفنا من بين الاتوبيســـات الثلاثة ونجلس كيفما اتفق ، وكنا دائما نجد الاماكن التى تـكفينا جميعا دون عناء ، متعجلين الرحلة ، متشـوقين الوصول الى المدينة التالية ، بكل ماتحمل فى طياتهـــا من جدة ومفاجآت . وعلى مر الايام ، بدأت المشاكل .. وظهر بوضوح اننا نحتاج الى تنظيم خاص فى مكان كل واحد داخل الاتوبيس حسما لهذه المشاكل ... هـــذه تريد ان تجلس الى جانب النافذة ، وذاك يحتج عـلى جلوسه فى نهاية الاتوبيس وفوق عجلته الخلفيـــة بمـا تسببه من اهتزازات واجهاد ، وثالث يحتج على الضوضاء التى يحدثها الشباب داخل الاتوبيس مما يحرمه مـــن النوم كوسيلة لقتل الوقت .

وعدنا الى الاوراق والاقلام ، نبتكر نظاما يريح الجميع فامكن تجميع العازفين فى اتوبيس واحد ، باعتبار السن

والطبيعة المتجانسة ، وتجميع الفتيات والسيدات مع ازواجهن فى أتوبيس ، وبقى الاتوبيس الثالث للشبان وبعض الاداريين .. ثم تحدد مسئول عن كل أتوبيس ، ينظم جلوس الافراد داخله ، ويطمئن على اكتمال العدد قبل أن يعطى أمر التحرك للسائق .. وبقيت بعد ذلك مشكلة الجلوس فى المقاعد الامامية أو الخلفية ، فلم نجد مناصا من وضع كشف يحدد جلوس الافراد داخل الاتوبيس ، بحيث يتزحزح الجلوس فى كل رحلة خطوة الى الامام ، وينتقل أصحاب المقعد الامامى الى المقعد الخلفى .. هنا فقط اطمأنت النفوس ، وخفتت صيحات الاحتجاج .

وكان على مسئول الاتوبيس أن يتابع هذه الزحزحة فى كل رحلة ، ويحسبها ، ويضع لها الجداول الشبيهة بجداول اللوغاريتمات الرياضية .. الغريب فى الموضوع ، أن هذا النظام المحكم المحسوب بدقة كاملة ، كان ينهار نهائيا بعد خمس دقائق من بداية تحرك الاتوبيس . مايكاد كل واحد يطمئن على مكانه ، ويطمئن قبل هذا على أن القواعد العادلة قد تم تطبيقها بأمانة مطلقة ، حتى يسود الهرج والمرج كافة مقاعد الاتوبيس ، فيذهب صاحب المقعد الامامى الى آخر الاتوبيس ليجرى حوارا طويلا مع زميل ، وتنتقل احدى الفتيات لتحشر نفسها بين زميلتين لتتقارب الرءوس فى حديث هامس طويل ، تاركة مقعدها شاغرا لساعات طويلة .

هذه الفوضى الاختيارية ، ما كان يمكن أن تتم ، قبل أن يتثبت كل واحد من أن النظام الموضوع ، قد تم التزامه حرفيا وبلا تساهل !.

هيلا هوب ... على طريق سرايـيفو :

لعل أشهر رحلات الاتوبيس التى صادفتنا ، كانت فى يوغوسلافيا . أنهينا حفلاتنا فى زغرب ، وكان المفروض أن ننتقل الى سرايـيفو .

كنا فى منتصف فبراير ، وبرد أوروبا مازال قاسيا ، والجليد المندوف مازال يتهاوى كثيفا من السماء ... علمت من كبير المرافقين أن الرحلة ستكون بالقطار ولن تستغرق أكثر من ست ساعات ، ولما كان القطار يتحرك فى الثامنة صباحا ، فقد تم ابلاغ أعضاء الفرقة بأن يكون التجمع بالمطعم فى تمام السادسة ، بعد أن تكون الحقائب قد تجمعت فى مدخل الفندق ، حتى يمكن نقلها الى المحطة فى وقت مبكر ..

فى السابعة كنا قد انتهينا من تناول افطارنا ، وجلسنا فى صالونات الفندق نترقب الدعوة الى ركوب الاتوبيس للتوجه الى محطة السكة الحديد . طال انتظارنا ، فرحت أبحث عن أحد المرافقين أستفسر عن سر هذا التلكؤ ، وعلمت لحظتها أن السفر بالقطار قد أصبح مستحيلا نتيجة للظروف الجوية .. فقد ألغيت رحلة القطار الى سرايـيفو بعد أن تراكم الجليد على القضبان بشكل لم تعد تجدى معه وسائل المكافحة التقليدية .

والحل ؟ .. سنسافر بالاتوبيس . حقيقة أن زمن السفر سيطول ، الا أن الوسيلة ستكون أضمن ، واحتمال المخاطر أضعف .

تم ابلاغ الفرقة بهذا التغيير ، وفى الحادية عشر صباحا تحركت القافلة فى طريقها الى سرايـيفو . كانت السـ

داكنة ثقيلة يلمع على خلفيتها الجليد المتساقط بلا انقطاع أو توقف ، والمساحات الامامية للاتوبيس ، تعمل فى نشاط عصبى لازاحة الجليد المتراكم على الزجاج الامامى للاتوبيس ، لكنها بحركتها النشيطة هذه ، كانت تحيل الجليد الى طبقة من الثلج الزجاجى ، الذى يكون قشرة صلبة على الزجاج ، ماتلبث أن يتضاعف سمكها فتجعل الرؤية مستحيلة بالنسبة للسائق .. فكنا نتوقف ، ليهبط السائق مزودا بأدواته الخاصة لتكسير طبقة الثلج وتنظيف الزجاج ، ليواصل الاتوبيس رحلته .

فى حوالى الثانية ظهرا ، توقفنا عند أحد المطاعم لتناول غذاء سريع ، ثم نواصل رحلتنا الطويلة .

خلال ساعات النهار القليلة كانت الرحلة محتملة ، فالاضاءة الضعيفة التى تبقت من أشعة الشمس بعد اختراقها للسحب الكثيفة ، كانت تكفى لتعريف السائق حدود الطريق التى أخفت معالمها تماما أكوام الجليد .

الا أنه ماكادت ساعات النهار القصير أن تنقضي ، حتى أطبقت الظلمة أطباقا تاما ، وانخفضت بالتبعية سرعة انطلاقنا ، وبدا الحذر واضحا على تصرف السائق .

الطريق أصلا ضيقة ، تسمح بتقابل سيارتين صغيرتين بسهولة ، لكن الامر يحتاج الى مقدرة خاصة عندما يلتقى أتوبيسان أو سيارتا نقل .. والطريق متعرجة تحتاج الى حرص شديد ، عند الانحناءات التى قد تفاجأ فيها بما يسدها . والادهى من هذا ، أنه الى جانب الطريق قناة أسمنتية مكشوفة ، تستخدم فى موسم الامطار كمصرف لمياهها تسهيلا للمرور .. الا انه مع تكاثف الجليد ، اختفت تماما معالم القناة والطريق والحدود

الفاصلة بينهما وكان الامر دائما متروكا لتقدير السائق ، فى حساب خط سيره ، حتى لاتنزلق عجلات الاتوبيس الى القناة ، بما فيها من جليد هش يلين تحت ثقل العربة .

وبما أن الحذر لا يجدى مع القدر .. فقد شاء القدر أن يقع المحظور ، وأن يتكرر وقوعه أكثر من مرة خلال ساعات سفرنا بالليل . نجد الاتوبيس وقد مال فجأة على جانبه ، فتتعالى الصرخات والصيحات ، وتطير الحقائب واللفائف فى فضاء الاتوبيس ، ويضىء السائق أنوار الاتوبيس الداخلية ، مهدئا الركاب ، فى حديث طويل باللغة الصربية ، سرعان مايقف المترجم لينقله الى الانجليزية ، فى هدوء وجدية ، وكأنه يترجم خطابا فى هيئة الامم المتحدة .. ومفاد هذا الحديث الطويل أن عجلة الاتوبيس قد انزلقت الى القناة الاسمنتية وأن علينا جميعا أن نهبط من الاتوبيس ، ونتعاون على رفعه ، واعادته الى وسط الطريق ، ذلك اذا كنا ننوى أن نواصل الرحلة !! ..

اذا علمت أن الاتوبيسات تكون عادة مكيفة الهواء ، وانها بعد ساعات من التحرك تكون قد تحولت الى مايشبه الفرن ، اذا علمت هذا ، عرفت أى نوع من التحصينات كان علينا أن نجريها حول أجسامنا ، حتى ننتقل الى خارج الاتوبيس ، حيث تصل البرودة الى ١٥ درجة تحت الصفر . وما أن ننتهى من هذه التحصينات حتى نروح نقفز من الاتوبيس واحد وراء الآخر الى الطريق ، الرجال أولا ثم الفتيات ، و .. هيلا هوب .. هيلا هوب ، يتردد صداها عاليا وسط السكون المطبق ، والاتوبيس الضخم جاثم فى مكانه يسخر من جهودنا المستميتة .. ونعاود

الكرة مرة ثانية .. هيلا هوب .. هيلا هوب ، فيتزحزح الاتوبيس قليلا ، وتتعالى الصيحات « شدوا حيلكم ياجدعان .. هانت يابنات » ، ويتحرك الاتوبيس قليلا ، وتنتقل الطاقة العضلية للأذرع الى الاجسام ، ومنها الى الاقدام ، فتنزلق هذه على الجليد ، وينطرح البدن على الارض ، غاطسا فى طبقة الجليد الكثيفة ، وتنطلق الضحكات ، فترتخى العضلات ، وتتوقف عملية الرفع بين ضحكات الضاحكين وتعليقات المعلقين .. ونعود مرة ثانية الى استئناف الجهود ، ويتزحزح الاتوبيس الى وسط الطريق ، فنواصل رحلتنا .

وتمضى ساعة ، فنلتقى بعربة نقل ضخمة قادمة من الاتجاه المقابل ، وحش كبير أخذت تتضح معالمه العملاقة شيئا فشيئا من خلال الظلمة التى خرج منها . وتتوقف العربتان لالتقاط الانفاس ، وحساب السنتيمترات التى ستتحركان فى حدودها حتى لايحدث التصادم ، وحتى لا تنزلق احداهما الى القناة الاسمنتية .

الوحش الضخم بحمولته الهائلة ، وعجلاته التى تصل الى ارتفاع قامة الشخص ، وذلك الجنزير الحديدى الغليظ الذى يلتف حول عجلاته حتى لا تنغرس فى الجليد أو تنزلق فوقه ، ذلك الوحش يتحرك فى بطء شديد وسط الصيحات المتبادلة بين سائقه وسائقنا .. خطوة بخطوة .. مع كل الحرص والحذر .. والتوقف بعد كل حركة لدراسة الحالة ثم استئناف الحركة ... خطوة بخطوة .. وفجأة يهبط الاتوبيس مرة ثانية الى القناه ، فيفسح مجالا لعربة النقل التى تمضى فى طريقها ونبدأ نحن مرة ثانية نتسلح بالملابس الثقيلة ، تمهيدا للهبوط من الاتوبيس ، و ... هيلا هوب .

قلنا اننا بدانا رحلتنا فى الحادية عشر صباحا .. وقد كان وصولنا الى سراييفو فى تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل .. ستة عشر ساعة من العذاب والقلق والمغامرة . وصلنا الى الفندق فى حالة من الاعياء والاجهاد والجوع الشديد ، لقد مضت ١٢ ساعة منذ أن تناولنا طعام الغذاء ، ولعل البرد وما بذلناه من مجهود قد ضاعفا أثر هذه الساعات ، هبطنا مباشرة الى المطعم ، فاكتشفنا أن ادارة الفندق مع تأخيرنا عن الوصول قد تصورت أننا أجلنا الرحلة الى اليوم التالى ، فلم نجد بالمطعم الا طباخا ومساعده كانا فى حالة نوم عميق ، ولكن حالة الجوع الشديد لم تسمح بالتردد .. على التو تم اختيار مجموعة من الفتيات تكون مهمتها تسخين الطعام بمساعدة الطباخ ثم غرفه فى الاطباق ، ومجموعة أخرى من الشبان للعمل كجرسونات .. وما هى الا بضع دقائق ، حتى ارتفعت طرقعات الملاعق والشوك والسكاكين ونعم الجميع بوجبة ساخنة مضاعفة الكميات ، بفضل سماحة الزميلات اللائى تولين التوزيع فى المطبخ !!.

الركاب أتراك .. والنقوط كازوزة :

اذا كنا نذكر رحلة زغرب ـ سراييفو من بين الرحلات العديدة ، لما كان فيها من جهد ومغامرة ، فنحن نذكر فى نفس الوقت رحلة أخرى خلفت لنا ذكريات لطيفة . كنا قد أنهينا عملنا فى اسطمبول ، وركبنا القطار فى طريقنا الى « بلوفديف » فى بلغاريا . وما أن تحرك القطار ، وانتهينا من التلويح لهيئة المودعين ، وعلى راسهم مرافقنا الدبلوماسى التركى توفيق بيك ، حتى اخذنا أماكننا فى

الدواوين لرحلة سوف تستمر أكثر من ١٢ ســـاعة ، ننتقل بها من قارة آسيا الى قارة أوروبا .

كنا بالضبط ، فى السادس عشر من أكتــوبر .. يوم عيد ميلادى .

وكنا قد اتفقنا قبل بداية الرحلة على ان تحتفل الفرقة بأعياد ميلاد الاعضاء التى تحل أثناء الرحلة احتفـــالا عاما .. وكلفنا أحد الاداريين باستخراج تواريخ أعيـــاد الميلاد من وثيقة السفر الجماعية لهذا الفرض .

كنا قد اشترينا من اسطمبول بما بقى معنا من عملة تركية ما يكفى لعشائنا بالقطار ، وان كان البعض قـــد تغاضى عن هذا التحوط ، ونفذت نقوده تحت اغـــراء فاترينات اسطمبول وأسواقها العامرة بالمشتروات .

وفى زحمة الاجراءات ، ونتيجة للانشغال بضمان وجود الجميع فى أماكنهم بالقطار ، كنت قد نسيت مسألة عيد الميلاد هذه ، الى أن اقبلت مجموعة من الفرقة تذكـــرنى بذلك ، قلت : فلنؤجل هذا الاحتفال الى الغد عنـــدما نصل الى بلوفديف ، الا أن اقتراحى لم يصادف قبـــولا لديهم .. كانت المشكلة أين نحتفل ، ودواوين القطـــار لا تسع أكثر من ثمانية أشخاص ، وسرعان ما طـــرح الحل ، ليكن ذلك فى بوفيه القطار وبعد أن ينتهى موعـــد العشاء .. وظهرت المشكلة الثانية ، كيف نحتفل داخل البوفيه وقد نفذت نقودنا التركية .. وتقدم من قـــام بجمع العملات الصغيرة الباقية معنا ، فاتضح أنها تكفى بالكاد لشراء زجاجة كازوزة ! .. واتفق الجميع على أن هذا أكثر من اللازم ، وأن هذه الزجاجة ســـتكون من نصيبى باعتبارى المحتفى به .

وبالفعل ، ما أن انتهى الركاب من تناول العشاء ، حتى توجهت فى البداية طلائع لتحتل بعض مقاعد عربة الاكل .. وتسرب باقى الاعضاء ، فوصل الريس عباس بمزماره الشعبى ، ووصل عبد الله معه طبلته ، ثم جاء محمـــد اسماعيل عازف الترومبه وفى يده آلته .. وبدأ الحفل .

وتعانقت الترومبة مع المزمار الشعبى فى عزف لحـــن عيد الميلاد المعروف ، وقدمت زجاجة الكازوزة لتحتـــل مكانا بارزا على المائدة امامى ، وبدأت الاغانى والرقصات ، فتوافد فى أول الامر طاقم عربة الاكل ، ثم توافد الركاب من الاتراك ، واستأذنوا فى المشاركة ، فأفسح لهم مكانا بيننا ، وارتفعت أكفهم بالتصفيق ، وتضاعف حماسهم ، فاستدعوا جرسونات المطعم طالبين فتح زجاجات الكازوزه للجميع على طريقة النقطة المصرية فى الافراح .. وطال الحفل ، فنفذ رصيد القطار من الكازوزة ، وبدأ فتـــح زجاجات المياه المعدنية !! اى شىء للتحية والمجاملة .

وهكذا نجحت الخطة ، وتم الاحتفال .. اغرب احتفال واجمل احتفال شهدته بمناسبة عيد ميلادى .

جداول لنوبات البكاء :

بدون ترتيب سابق تشكلت داخل وسائل الانتقال فرقة متخصصة للترفيه عن الاعضاء ، سمير جابر بأغانيـــه الشجية « أهو ده الى صار » لسيد درويش ، و « زينة المداين كلها » للفنان الشعبى السكندرى أمين عبد القادر ، « من العين دى حبة » لمحمد رشدى ، ويرتفع التجاوب

الى قمته ، عندما يردد أغنية الشيخ سيد درويش « سالمة يا سلامه » .

وبقدر ماكان سمير مقلا فى ترديد اغانيه ، لا يستجيب الا اذا كان مزاجه معتدلا ، بقدر ماكانت هيام على استعداد دائم لتسلم المهمة ، لتردد أغانى شادية وفايزة احمد وليلى نظمى .. لقد استفادت هيام من هوايتها هذه ، فما ان عادت من الرحلة حتى عرفت طريقها الى الاحتراف فشاركت فى الحفلات العامة وظهرت لها الاسطوانات .

الى جانب هاتين الكفائتين ، كان هناك أحمد عنان بصوته الجهورى يردد الحان الاوبرا ، ومشيرة بأغانيها الاجنبية ورقصاتها المصاحبة التى كانت تؤديها فى الممر بين المقاعد تتطوح مع حركة الاتوبيس ، وجميل جابر بأغانى « انريكو ماسياس » التى كان يطلقها دائما من المقعد الخلفى للاتوبيس .

أقول ان فرقة الترفيه الخاصة هذه تشكلت دون سابق اتفاق ، الا أن الايام أثبتت ضرورتها وحاجتنا الشديدة اليها .

فبعد مرور شهر أو أكثر من بداية الرحلة ، بدأت عوامل الاحساس بالغربة تفعل فعلها ، وبين الفتيات على وجه الخصوص .. وكان الاتوبيس أو القطار هو المكان التقليدى للتعبير عن هذا الاحساس ، فجأة وبدون مقدمات تنفجر احدى الفتيات فى نوبة بكاء . . . وتنتقل باقى الفتيات الى زميلتهن المنهارة ، وتبدأ المحايلة ومحاولات الاضحاك ، وما أن تنتهى هذه الحالة حتى تنفجر حالة أخرى فى مكان اخر من الاتوبيس ، وتتكرر

نفس القصة ، حتى أن بعض الاعضاء اقترح ، ساخرا من كثرة جداولنا ، أن نضع جدولا لبكاء الفتيات ، يعطى كل واحدة منهن الحق فى ممارسة البكاء فى يوم معين ، وينتقل هذا الحق الى واحدة اخرى فى اليوم التالى .

فى مثل هذه الحالات كانت تشتد الحاجة الى فرقة الترفيه ، لخلق جو من المرح ، يبدد الكآبة التى كانت تخلفها حالات البكاء الفجائية هذه .

واذا كانت حالة الاحساس بالاغتراب تأخذ عند الفتيات شكل نوبات البكاء ، فهى لدى الفتيان تتجه الى التعبير عن ذاتها فى شكل مشاحنات ، أشبه بمشاحنات الصبيان هذا يمد ساقه فى ممر الاتوبيس فيعوق الحركة فيه ، وذاك يأخذ راحته فى النوم ، فلا يتيح وضعا مريحا لمن يجلس الى جانبه ... وهكذا .

فى بداية الامر كنت اتدخل فى مثل هذه الحالات ، ولكنى ادركت بعد بعض الوقت عدم جدوى هذا التدخل، فكانت هذه المشاحنات ، لتفاهة أسبابها ، تصفى نفسها بنفسها دون الحاجة الى تدخل احد ، بعد أن تقوم بواجبها ، من حيث تفريغ شحنة السأم ، والشعور بالاغتراب الدائم .

استقبال عاطفى فى ترنوفا :

لم تكن رحلاتنا فى القطارات والاتوبيسات تتم دائما فى مواعيد معقولة ، فكانت لارتباطها ببرامج العمل تقتضى فى بعض الاحيان السفر فى ساعة مبكرة من الصباح . نكون

قد انتهينا من حفلتنا فى احدى المدن ، ونشط عمال الملابس الى تجميعها فى الصناديق ، وعدنا الى الفندق لتناول طعام العشاء ، ثم ننصرف الى حجراتنا لاعداد الحقائب استعدادا للسفر المبكر . وكنا فى أغلب الاحيان نلجأ الى فرقة الايقاظ . فبرغم ان ادارة الفندق كانت تتعهد بعملية الايقاظ هذه عن طريق التليفون ، وكانت تفى بتعهدها ، الا أن المشكلة نشأت عندما أدركنا أن الاخطار التليفونى لم يكن وسيلة مجدية ، فما أكثر ما استيقظ الواحد على رنين التليفون ، وتلقى رسالة الفندق ، ثم عاد لينام ثانية .

من هنا جاءت أهمية فرق الايقاظ لضمان وجود الجميع داخل الاتوبيس فى الوقت المحدد ، وكانت فرقة الايقاظ تمر على الحجرات ، ولا تكتفى بالقرع على الابواب وتلقى الرد من الداخل ، بل كانت تصر على فتح الباب والتأكد من أن العضو قد أفاق فعلا وبدأ اجراءات الهبوط الى الاتوبيس .. وقد نجحت هذه الطريقة دائما ، رغم أنها كانت تؤدى فى أغلب الاحيان الى استيقاظ جميع نزلاء الفندق ..

كانت عملية التتميم التالية تجرى على يد مسئولى الاتوبيسات بحيث لا نتحرك الا وقد جلس الجميع فى اماكنهم . ورغم هذا ، فقد نسينا يوما احد الراقصين فى مدينة « فارنا » ونحن فى طريقنا الى مدينة « ترنوفا » فى بلغاريا .

كان قد صعد الى الاتوبيس ، وانتهى المسئول من مراجعة الاسماء ، ويبدو أن ذلك الراقص كان قد نسى

شيئا فى صالون الفندق ، فنزل دون أن يلتفت اليه احد ، وتحركت القافلة الى ترنوفا .. وفى منتصف الطريق اكتشفنا غيابه ، فتوقفنا عند أقرب تليفون ، وقام المرافق بالاتصال بالفندق ، فقالوا له أن العضو المتخلف سألهم عن الطريق الى ترنوفا ومضى الى حاله ، فطلبت من المرافق أن يتصل بسلطات الامن لتابعته فى الطريق وادراكه قبل أن يضل ، ونفقده لزمن طويل .. وقد عثرت عليه سلطات الامن بالفعل فى الطريق المؤدى الى ترنوفا فى حالة من الاعياء ، وقد تصور أن المسافة بين المدينتين بسيطة ، يستطيع أن يقطعها على الاقدام ، ووصل الى ترنوفا بعد ساعات من وصولنا .

وفاته بتخلفه ووصوله المتأخر هذا ، الاحتفال المبهج الذى قابلتنا به مدينة ترنوفا ، فما أن وصلت القافلة الى مشارف المدينة ، حتى وجدنا مندوبا عن مجلس المدينة فى سيارة صغيرة يقودنا الى داخلها ، لا الى الفندق كما توقعنا ، ولكن الى مبنى مجلس المدينة ، حيث وجدنا فرقة موسيقية كاملة من الاطفال تعزف ألحان الترحيب ، تشاركها فرقة أخرى للكورال ، وما أن هبطنا من الاتوبيسات حتى انهالت علينا باقات الورود من مجموعة الفتيات الصغيرات ، وبعد تبادل خطابات الترحيب والتكريم التقليدية ، عادت الفرقة الموسيقية لتردد ألحان الاغانى الشعبية ، فقمت بتسليم القائد الصغير للفرقة الموسيقية ، شعار الفرقة القومية للفنون الشعبية ، تعبيرا عن سعادتنا بهذا اللقاء العاطفى اللطيف

خطبة ، على « ريق النوم » .

لم يكن استقبالنا يتسم دائما بهذه اللمسة العاطفية ؛ بل كان غالبا مايتم فى اطار من الاجراءات الروتينيـــة ، تهبط الفرقة الى محطة السكة الحديد ، أو الى مدخل الفندق من الاتوبيس ، لنجد وفدا رسميا فى انتظارنا ، وبعد أن تنتهى عملية تسليم الورود ، وكلمات الترحيب القصيرة ، يصطف وفد الاستقبال فى مواجهتنا ، ويتلو رئيسه خطبة كاملة ، يعبر فيها عن مشاعر الود والصداقة بين شعبينا ، وعن تمنياته باقامة طيبة وجولة ناجحـة فى ربوع بلده ، وعن أمله فى أن تكون هذه الزيارة خطوة نحو مزيد من التعميق لروابط الصداقة .. فى أغلـــب الاحيان تتم هذه الخطبة عن طـــريق المترجم ، أما الى الانجليزية أو الى العربية اذا توفر من يتكلمها .. ما أن تنتهى هذه الخطبة ، حتى تتطلع الى عيون أعضاء الفرقة فى ترقب يشوبه شىء من الشماته ، فى انتظـــار أن أبدأ خطبتى ردا على خطبة المسئول .

فاذا عرفت أن هذا الموقف قد تكرر أكثر من أربعـين مرة ، سواء فى الاستقبال أو التوديع ، واذا عرفت أن مضمون خطبتى كان لا يتبدل باعتبار تكرار نفس الموقف ؛ أمكنك أن تتصور ما خلقته ميكانيكية التكرار من موقف شبه كوميدى كان يرسم على شفاه خبثاء الفرقة ابتسامة مكبوتة لها ما يبررها .

ولعل أغرب أنواع الاستقبال ، وأشدها اثارة للسخرية كان استقبالنا فى محطة لينينجراد عند وصولنا من موسكو .

المسافة بين المدينتين تصل الى ٦٢٠ كيلومترا ، ومن تأثير اجهاد اليوم الاخير فى موسكو بما فيه من عمل واتصالات .. عندما وصل القطار الى نهاية رحلته كنت غارقا فى نوم عميق ، رغم الضوضاء .. ضوضاء القطار والفرقة .. لم أشعر الا وايدى أعضاء الفرقة تهزنى ، فقد وصلنا الى لينينجراد ، والمترجم يسأل عنى ، حتى أهبط لملاقاة وفد الاستقبال ، وفى حالة بين اليقظة والنوم ، أخذت أضع على نفسى المعطف والكوفية ، والبس القفاز ، وأضع غطاء الرأس الموسكوفى المحكم ، ثم أسير متطوحا فى طرقة القطار مفسحا لنفسى طريقا بين أعضاء الفرقة الذين ارادوا أن أكون أول الهابطين للقاء وفد الاستقبال الرسمى .

كان الوقت فجرا ، ودرجة الحرارة قد هبطت الى ما يقرب من ٢٥ درجة تحت الصفر ، والجليد يتساقط فى اصرار والحاح .. استطعت أن أهبط على درجات سلم القطار المعدنية المغطاة بالجليد بصعوبة شديدة ، وكدت أن أنزلق عليها لولا أذرع أعضاء الفرقة التى سندتنى ، ثم تابعتنى .. صفعتنى لسعة الهواء البارد ولمسات الجليد الثلجية على وجهى ، فبدأت أفيق من حالتى الوسط بين اليقظة والنوم .. ومددت يدى أصافح أعضاء وفد الاستقبال ، وأتلقى باقات الورد ، مجاهدا أن أرسم على فمى ابتسامة دبلوماسية ، وأن أمنع نفسى من تثاؤب يلح على .

بدأ خطاب الترحيب ، ورغم الدوافع الاخوية الطيبة التى أملته ، فقد جاء طويلا مسهبا ، ويدى تمتد بين الحين

والحين ، تزيح مافوق وجهى من جليد ، وبرودة الجو ، وبرودة رصيف القطار بالذات بدأت تتسلل الى قدمى ، بعد دفء النعاس فى القطار المكيف الهواء ، وشعرت أننى أفقد الاحساس بنفسى من اسفل الى اعلا !! ... مشط القدم ، ثم الساق ، ثم الركبة .. فأضرب قدمى بين الحين والآخر فى رصيف المحطة ، بمثل ما يفعل الحصان الملول فى موقف العربات الحنطور عندنا .

وأخيرا انتهى الخطاب ، والتصفيق ، وجاء دورى .. واصبحت المشكلة ، هى كيف افتح فمى المزموم ، دون أن أتثاءب ؟! .

لا أدرى ماذا قلت ، وماذا فعلت .. بل لم أشعر بنفسى الا وانا أهرع مع باقى الاعضاء الى الاتوبيسات التى أقلتنا الى الفندق .

طريق التيه الى البانيا .

وقريب من هذا ماحدث عند وصولنا الى البانيا ، وان اختلفت التفاصيل .

عندما وصلنا الى يوغوسلافيا ، وبعد أن انتهت عروض الفرقة وحفلاتها فى زغرب وسراييفو ، تم اخطارى برغبة وزارة الثقافة اليوغوسلافية ، فى ان أتوجه بمفردى الى بلغراد لدراسة بعض التعديلات فى خط السير ، ولبحث الوسيلة التى سننتقل بها بعد انتهاء عملنا فى يوغوسلافيا أما الى الادرياتيكى لنأخذ الباخرة من تريستا ، أو الى اليونان حيث نأخذها من بيريه ، ولكن الاحتمال الوحيد

الذى تخوفوا منه هو سفرنا برا من يوغوسلافيا الى البانيا .

المهم .. وصلت بلغراد ، وأجريت مع المسئولين عدة اجتماعات ، ثم ذهبت لمقابلة الاستاذ يحيى عبد القادر ؛ سفيرنا فى يوغوسلافيا فى ذلك الوقت ، فكان لطيفا أشد اللطف ، شاعرا بالعناء الذى أصابنا من جراء الرحلة الطويلة التى كانت قد وصلت فى ذلك الحين الى شهرها الخامس . عرضت عليه النتائج المختلفة ومخاوف المسئولين اليوغوسلاف من الطريق البرى الى البانيا . وكانت قد وصلت أخبارا تفيد أن رحلة اليونان قد ألغيت .

قال ، الامر متروك لكم ، وفقا لتقديركم ، وعليك أنت ان تقرر ما يمكنكم عمله وانتم فى هذه الحالة من التعب والاجهاد ، وعلى اى الاحوال يمكن سفركم الى مصر من يوغوسلافيا ، وإستطيع أن أدبر لكم هذا .

رغم رغبتى الشديدة لزيارة ألبانيا ، التى لم أكن قد زرتها من قبل ، ورغم وجودها على خط سير الرحلة منذ البداية ، فقد أقنعت نفسى تحت ضغط الارهاق بتأجيل الزيارة الى فرصة قادمة ، والعودة الى القاهرة . وكان لكلمة العودة الى القاهرة فى ذلك الوقت ، وقع السحر على النفوس ، كانت العودة تعنى للجميع شيئا كبيرا جدا ، ولكنها كانت تعنى بالنسبة لى ، بالاضافة الى هذا الشىء الكبير ، نهاية مسئوليتى المنهكة التى دامت فى ذلك الحين لاكثر من خمسة أشهر .

عدت الى فندق سلافيا الكبير ، واحلام العودة

تتخاطفنى ، وصورة الوصول الى مصر وملاقاة العـــائلة والاصدقاء ، والاسترخاء ، والنوم الثقيل الذى لا يقطعه فى قسوة رنين التليفون ، يحمل مايفيد انتهاء النـــوم وضرورة التحرك لانجاز عمل ما ..

وفى الصباح الباكر افقت على رنين التليفـــون .. ! والمستشار الثقافى فى سفارتنا يقول ان تيرانا قد اتصلت به ، وأن سفارتنا هناك ألحت الحاحا شديدا بوجـوب تنفيذ الزيارة ، وأن الغاء هذه الزيارة سيسيىء الى علاقتنا بألبانيا ، وسيصيب المسئولين الالبانيين الذين استعدوا لها استعدادا كبيرا بخيبة امل لا نحبها لهم . وقال ان سفارتنا فى تيرانا ستجرى اتصالا تليفونيا آخرا عنـــد الظهر لتتحدث معى شخصيا ، وأن ســـيارة السفارة ستكون فى انتظارى عند الفندق لتقلنى الى السفارة .

تم الاتصال ، وتحت ضغط الاسباب التى ذكروها ، وجدتنى اعد وعدا قاطعا بالسفر الى البانيا .

انتهت جولتنا فى يوغوسلافيا ، وتحركت قافلتنا فى الصباح الباكر من مدينة سكوبيا فى الجنوب الشـــرقى ليوغوسلافيا .. بدات الرحلة وسط جو لطيف نسبيا ، والشمس تسترق اطلالة أو اخرى بين ثغرات السحاب الملبد ، والقافلة الطويلة المكونة من الاتوبيسات الثلاثة ، وعربات النقل الثلاث ، تسبقها العربة الصغيرة التى تقل هيئة المرافقين ، والتى تقوم بدور المرشد فى الطـريق الذى لم يسبق لهم جميعا أن اجتازوه .. بدات مظاهر العمران تتناقص ، وأصبحنا نخترق معالم الطبيعة البكر وعند احد المفارق ، توقفت العربة الصغيرة ، وتوقفـت

القافلة من خلفها ، وجرى حديث خافت بين هيئة المرافقين ومجموعة السائقين .. حديث طويل باليوغوسلافية لم أفهم منه شيئا .. وفى نهاية الحديث بدا وكأن الجميع قد اتفقوا على أمر واحد ... حاولت ان افهم شيئا من كبير المرافقين ، فقال ان النقاش كان يدور حول الطريق الصحيح للحدود الالبانية ، فلم يسبق لاحد منهم أن اجتاز هذا الطريق .

واصلت القافلة مسيرتها ، متمهلة فى طريق بدأت تخشوشن وتضيق .. وقرب الغروب ، وجدنا أنفسنا على شاطىء البحر !!

وتعالت الصيحات باليوغوسلافية ، واحتد النقاش مرة ثانية ، ولكننى فهمت هذه المرة بدون ترجمة ، اننا سلكنا الطريق الخطأ ، واننا بهذا انحرفنا الى موقع من مواقع الشاطىء اليوغوسلافى ... بدأ رزاز خفيف يتساقط ، فأسرعنا الى العربات ، ودارت القافلة حول نفسها بعناء ، لتعود مرة ثانية الى التقاطع الذى خلفناه .

الرزاز الخفيف ، تحول الى أمطار ، والامطار تحولت الى سيول ، وأظلمت السماء تماما ، وسارت القافلة فى طريقها الى الحدود الالبانية ، وطرقعات السيول المنهمرة ، يضخمها فراغ الاتوبيس .

بعد ١٢ ساعة من بداية رحلتنا ، وفى تمام السابعة مساء ، انفرجت أسارير كبير المرافقين ، والتمع وجهه بالفرحة ، وقد أوشك أن يتخلص من حمولته البشرية ، فقد لاحت الحدود الالبانية . توقفنا ، وأعارنى كبير

المرافقين مظلته ، لاهبط بها متخطيا الحدود تحت وابل المطر المنهمر ، لملاقاة وفد المسئولين الالبانيين الذى ينتظر على بعد ليس بالقليل من الحدود المشتركة .

أخذت اغوص بقدمى فى الوحل ، وأنتزعهما منه بصعوبة وقد علقت بكل قدم كمية كبيرة من الطين ، يزداد حجمها كلما تقدمت خطواتى ، والمظلة التى احملها تهتز بشدة تحت وطأة حبات المطر الغليظة ، حتى وصلت الى الجانب الالبانى من الحدود ، ومددت يدى ، أحيى المستقبلين واعرفهم بنفسى ، وأتلقى باقة الزهور التى يحملونها وقد تهدلت تحت وقع الامطار ، ثم .. بدأت كلمة الترحيب الرسمية !!.. الى هنا ، لم أتمالك نفسى وفقدت كافة مكتسباتى الدبلوماسية ، وقاطعت الحديث شاكرا ، ثم ملحا فى سرعة نقل الاعضاء والمهمات الى العربات الالبانية .

وكانت عملية نقل المهمات أو انتقال الاعضاء ، تحت تلك الامطار الكثيفة ، قطعة من العذاب الحقيقى .

كنا نتصور أن الشق الصعب من الرحلة قد ولى ، ولكننا اكتشفنا بعد ذلك أننا فى بدايته ، فالطريق من « الباساد » على الحدود الالبانية الى العاصمة تيرانا ، عبارة عن عمليات صعود وهبوط متوالية فى مناطق جبلية ترتفع ٢آلاف الامتار ... والذى لاشك فيه أن مهارة السائق الالبانى الذى استطاع أن ينطلق بنا فى سرعة نسبية محسوسة ، فى هذا الطريق الصاعد الهابط المتعرج وسط سيل الامطار ، مهارة لا يستهان بها ... ولو أن هذه المهارة لم تنجح فى تبديد الزعر الشديد

الذى احس به اعضاء الفرقة ، والذى كانت ترجمته ، حالة الصمت المطبق التى سادت العربة ، والانفاس المعلقة ، والعيون الزائفة ، التى تنتقل من المشـــاهد الجانبية للطريق الى السائق وهو يأخذ طريقه متغنيا بأغنية شعبية البانية .

عندما وصلنا تيرانا ، وجلسنا فى مطعم فندق «دايتى» الفخم والوحيد فى المدينة ، اقبل المايسترو أحمد عبيد ، وكان قد حل محل المايسترو شعبان ابو الســـعد فى يوغوسلافيا ، لارتباط الاخير بحفلات الباليه بالقاهرة ، اقبل فى حالة من الانهيار التام ، وطلب أن يتحدث الى على انفراد ، وبعد مقدمة طويلة ، ناشدنى بصفة شخصية ان اعفيه من قيادة الفرقة الموسيقية ، اذا كانت هنـــاك حفلات خارج العاصمة ، عجبت لهذا المطلب ، وســـألته عن السبب ، فقال انه مصاب بمرض الخوف من الاماكن المرتفعة ، وانه تماسك طوال الرحلة من الحدود لـــكى لا يضيف جديدا الى مشاكلنا التى كان يلمسها . طيبت خاطره ، لكنه لم يقتنع او يهدأ ، الا بعد أن أحضروا له خريطة تبين تضاريس البانيا ، وشرحوا له أن زياراتنا بعد ذلك لن تتطرق الى المنطقة الجبلية ، بل ستقتصر على السهول .

عثمان « كاباليه » فى اسطمبول :

نتيجة لطول الفترات التى نقضيها فى الاتوبيس ، أصبح السائق عنصرا هاما فى حياتنا ، والحقيقة أن سائق

الاتوبيس فى اى دولة من الدول الاشتراكية التى زرناها كان يتحول فى الساعات القلائل الاولى من احتكاكنا به ، الى زميل وصديق ، وكنا نشعر أنه يتصرف باحساس مسئوليته عنا وعن راحتنا ، حتى فى الامور التى لا تدخل ضمن اختصاصه كسائق ، وانه كان عنصرا حيويا فى طاقم المرافقين .. لقد استطعنا بعد عدة أسابيع من بداية الرحلة ، ان ننسى صورة سائق الاتوبيس المصرى التى نعرفها ، وان نعدل من علاقتنا وتعاملنا معه ، بما تمليه شخصيته من احترام ، وما تكشف عنه من تحضر وثقافة .

لقد تذكرت هذا ، وانا فى طريقى الى جمصة داخل اتوبيس سياحى ، فقد وجدت السائق بملبسه النظيف اقرب الى النماذج التى عرفناها فى أوروبا ، الا أن هذه الصورة تبدلت تماما فى نهاية الرحلة ، عندما بدأ يجمع البقشيش ، ويثير المشاكل مع الذين لم يدفعوا ، أو الذين دفعوا دون تقديره للمطلوب ... وانا لا اريد ان اعقد مقارنة بين سائقنا وسائقهم ، مع وجود اختلاف واضح فى المستوى الحضارى ومستوى المعيشة ، والمزايا المادية التى يتمتع بها السائق فى اوروبا الشرقية ... ففى هذا ظلم لسائقنا .

من بين هؤلاء جميعا ، مازلت اذكر « عثمان » سائق الاتوبيس التركى الذى تسلمنا من مطار انقرة ، حتى سافرنا من اسطمبول بالقطار . عثمان هذا كان لطيفا مع الجميع ، خدوما ، ليس لديه مانعا بعد انتهاء عمله الرسمى ، أن يلبى رغبة مجموعة من أعضاء الفرقة ،

فيصحبهم فى الاتوبيس الى المكان الذى يسعون اليـه ؛ كأن يكون احد المحال التجارية ، أو موقعا للنزهة .

انتهينا من عملنا فى أنقرة ، وسافرنا الى اسطمبول ؛ وبدات مفردات اللغة التركية تتردد بفهم أو بدون فهم على أفواه أعضاء الفرقة ... ومن بين هذه الكلمات كانت كلمة « كاباليه شيرشيه » ، وهو اسم السوق الكبير فى اسطمبول ، الذى يشبه سوق الحميدية . واعجبت الكلمة الراقص احمد عنان ، فأخذ يرددها بمناسـبة وبدون مناسبة ، وكان مشوار السوق من المشاوير التى كثيرا ما قام بها عثمان ارضاء لرغبات هواة الاسـواق والمشتروات بالفرقة ... وفى الطريق الى السوق ترتفع عقيرة أحمد عنان بالنداءات الحماسية « كاباليه عثمان » . ثم أعجبه التركيب فصار يردده كلما رأى عثمان ... وفجأة ، ثار عثمان اثر واحد من هذه النداءات وصمم على انزال حمولته من رواد السوق ، وفى منتصف الطريق اليه .. « ليه بس ياعم عثمان ؟ » .. ثم توسـلات متواصلة ، ولا فائدة ! .. بل أخذ يدفع بهم ، واحـدا اثر الآخر خارج الاتوبيس فى عصبية .. وكانت الطامة الكبرى عندما وصل الى يسرية التى كانت ضمن موكب السرق ، فانهارت فى موجة بكاء حادة ، كيف يحـدث أن تعامل هذه المعاملة وهى الضيفة على البلد .. وارتبك عثمان ، وتنازل عن تصميمه .. انما أصر بعد ذلك أن يلتزم حدود مهمته الرسمية دون توسع فى الخـدمات الخاصة لاعضاء الفرقة . وتناقل الاعضاء هذه القصة ، اثناء العرض مساء ، وهم يتساءلون عن السر فى التحول

الذى طرا على عثمان .. واخذ كل واحد فى تعليل ثورته بسبب من الاسباب ، ووصلت القصة والتساؤلات الى أحد المرافقين ، فضحك ، وقال لهم ان « كاباليهشيرشيه» تعنى السوق المغلق ، أو الذى له غطاء ، وان كلمة « كاباليه » تعنى مغلق أو مقفول .. وان اقتران اسم عثمان بكاباليه ، يصبح نوعا من السباب .. قريب ممـا نصف به الشخص بأنه « قفل » ..

وبدات حملة لمصالحة عثمان ، واثبات حسن نية احمد عنان ..

شعبطة .. من الحدود الى بودابست :

ولعل اغرب الرحلات التى صادفتنى ، كانت من المجر الى يوغوسلافيا ، فقد أخطرتنى سفارتنا فى المجـــر ، انها تلقت مشروعا لبرنامج الزيارة والعمل فى يوغوسلافيا ، وبمراجعة ذلك البرنامج ، اكتشفت بعض الاخطاء الفنية فى وضع البرنامج ، وحاولت عن طـريق الاتصـــــال التليفونى ان أصل الى حل لهذه المشكلة .. الا ان هذه الاتصالات المعقدة التى كانت تتم عن طريق سفارتنا فى يوغوسلافيا ، زادت المشكلة تعقيدا .. الى أن وصلنى من سفارتنا فى بلغراد مايفيد ضرورة وصولى قبل الفـرقة للاتفاق النهائى على برنامج العمل .

تم حجـز مكان بالقطار السريع من بودابســـت الى بلغراد ، وفى يوم السفر ، صمم مندوب وزارة الثقـافة المجرية ، السيد يوهاس ، على اصطحابى فى عربته الى المحطة .

كان وصولنا الى المحطة قبل موعد قيام القطار بحوالى ساعة ، وكان الجو باردا ، والجليد يغطى رصيف المحطة والقطارات والمقاعد المخصصة للانتظار ، واكتشـــفنا ان قطار بلغراد لم يصل الى الرصيف بعد ، فاقترح السيد يوهاس أن نذهب الى بوفيه المحطة لنتناول مشروبا ساخنا حتى يحين موعد تحرك القطار .. وفى البوفيه كـــانت أنغام الموسيقى الفجرية تتردد عالية ، بعزفها فنان مجرى بالملابس الشعبية التقليدية ، تصاحبه بالغناء فتاة بالملابس الشعبية ايضا .

شربنا الشاى .. واخذت اقطع الوقت بالحديث مع السيد يوهاس ، قلت له ان هذه المحطة تذكرنى بقصـــة قديمة حدثت لى عندما كنت مديرا لمسرح القاهـــــرة للعرائس ، وخلال رحلة شبيهة عام ١٩٦٥ ... واخذت أستعيد الاحداث ، وأروى للسيد يوهاس وقائع التجربة الغريبة التى حدثت لى .

كنت قد تلقيت من يوغوسلافيا أيضا مايفيد عـــدم صلاحية برنامج العمل الذى وضعته وزارة الثقـــافة اليوغوسلافية ، فقد كان برنامجهم يتضمن تقديم عـرض « ماتينيه » فى أحد المسارح ، ثم « سواريه » فى نفس اليوم بمسرح آخر .. علما بأن الانشاءات الخشبية لمسرح عرائس الماريونيت تحتاج فى فكها وتركيبها الى يوم كامل .

وكما حدث هذه المرة ، تركت الفرقة فى بودابست ، وقد تبقى لها عرضان فى مدينة « سيكاشفاهير فار»القريبة من العاصمة . فى منتصف الليل تحرك القطـــار مـــن

بودابست ، وأخذت الوح لوفد وزارة الثقـــافة المجـرية باقة الورد التى كانوا قد قدموها لى بمناسبة السفر . ثم دخلت الى كابينتى الانيقة فى عربة النوم التى سأمضى بها الساعات الخمس حتى وصولى الى بلغراد .. خلعت المعطف والقبعة والكوفية والقفاز ، ثم اخرجت البيجامة من الحقيبة ، وارتديتها تمهيدا لنوم يبلغنى بلغراد .. وقبل النوم ، أخذت اراجع محتويات الظـــرف الذى تسلمته من مندوب وزارة الثقافة ، وبه أوراق السفر ، وحجز النوم حتى بلغراد .

أطفأت نور الكابينة ، وبدأ النوم يتسلل الى عينى . ولاشك أننى نمت نوما عميقا ولمدة ساعتين على الاقل ، الى أن سمعت طرقا معدنيا على باب الكابينة ، فخيل لى وقتها أننى لم أنم بعد .. دخل مفتش الجوازات المجرى يطلب جواز السفر ، وفهمت من هذا أننا على وشـــك الوصول الى الحدود .. سلمته الجواز دون أن نتبادل أى حديث ، فتناوله واغلق الباب .. وعـــدت الى الاستلقاء مفتوح العينين ، فلا جدوى من محاولة النـــوم ثانية ونحن على مشارف الحدود ، بما فيها من اجراءات امن وجمارك مشتركة .

كانت الساعة حوالى الثانية بعد منتصف الليل . وبعد عدة دقائق ، دخل جندى أو صف ضابط مجرى بملابسه العسكرية الى الكابينة ، وبيده جواز السفر الخاص بى ، وأضاء النور بلا استئذان ليقول مشيرا الى الجـــواز « نيشت جود » .. ورغم أننى فهمت معنى كلمتـــه الالمانية ، الا أن تعبير التساؤل الذى كان على وجهى انصب

على سبب عدم صلاحية الجواز .. فقال بالروسية « نيبت خراشو » . كان القطار قد توقف عند مدينة صغيرة على الحدود المجرية ، فأشار بيده بما يفيد ان اتبعه ، وانصرف .

أسرعت بارتداء ملابسى ، وادخلت حاجياتى الى الحقيبة ، ثم خرجت اليه ، فوجدته فى نهاية ممر القطار سار بى حتى مبنى المحطة وتركنى فى صالة شبه مظلمة الا من مصباح « سهارى » صغير فى آخرها ، وبها بعض المقاعد والموائد ، ويبدو انها تستخدم صباحا كبوفيه . دخل من باب جانبى ، ثم خرج بعد قليل من نفس الباب ضابط الجوازات بزيه الرسمى الشبيه بزى عساكر هتلر الذى كنا نراه فى افلام الحرب العالمية الثانية ... واخذ يشرح لى بالالمانية ، كيف ان هذا الجواز غير صالح للعمل .. وبرغم ان معلوماتى فى اللغة الالمانية لا تتعدى بعض المفردات ، فقد فهمت من كلامه ، وبمساعدة اشاراته ، ان جواز سفرى غير مسجل به اى خاتم أو تأشيرة من اى جهة مجرية رسمية .. وانه يحاول الاتصال ببودابست على أمل ان يجد مسئولا يفتى فى هذه الحالة .

والواقع اننى كنت مسجلا ضمن وثيقة السفر الجماعية للفرقة ، وقد احتفظت معى بجواز السفر الخاص لمواجهة الاحتمالات ، وقد ظهرت ضرورته عندما اصبح على ان اسافر منفردا الى بلغراد . وعليه فقد سلمت الوثيقة والجواز الخاص بى للسفارة لاتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل صلاحيات السفر من الوثيقة الى الجواز .. ويبدو

أن السفارة قد اكتفت باجراءاتها الداخلية دون ان تحاول اعتماد هذا الاجراء من السلطات المجرية ، مكتفية بشرح مطول لاسباب نقل الصلاحيات الى جواز السفر ، وباللغة العربية ، الامر الذى لم يكن يحمل أى معنى لدى ضابط الجوازات على الحدود .

تركنى ضابط الجوازات ، فاتجهت الى أحد المقاعد المرصوصة بالقاعة ، وجلست على المقعد المعدنى الذى كان يمتص كل برودة الجو الشائعة فى القاعة ، واخذت أتأمل المكان من حولى .. بوفيه فقير ، ارضه اسمنتية ، ليست به اية وسيلة للتدفئة .

سمعت من خارج القاعة ، طرقات حذاء عسكرى منتظمة ، ثم ظهر بالباب الذى دخلت منه ، جندى جوازات يحمل حقيبتى وقد نقلها من القطار ليضعها الى جانبى فى صمت تام ، ثم استدار ليعود من حيث أتى .

وبعد قليل أطلق القطار صفارة طويلة ، بددت سكون الليل ، فوجدتنى أنهض بحركة لا ارادية ، ليس لها من هدف سوى ان اتطلع الى قطارى من نافذة القاعة ؛ وأشهد حركته البطيئة فى أول الامر ، ثم عرباته المتلاحقة تتسارع حتى تختفى عن ناظرى .. فى طريقه الى بلغراد ؛ حيث ينتظر مندوب وزارة الثقافة اليوغوسلافية فى محطة القطار !.

اتجهت الى الباب الذى خرج منه ضابط الجوازات ، فوجدته مقبلا ناحيتى ، يسلمنى جواز السفر ، ويقول ما فهمت منه ان الاتصالات كانت غير مثمرة ، وان على ان أعود مرة ثانية الى بودابست . حاولت ان اشرح له

تارة بالانجليزية ، وتارة بفتات الالمانية والروسية ، انني لا احمل معي نقودا ، وانني احتاج الى تذكرة سفر الى بودابست بدلا من تذكرة بلغراد التي معي .. ويبدو أن محاولاتي للحديث معه لم تكن ناجحة ، اذ انه أشار الى المقعد الذي كنت اجلس عليه ، بمـــا يفيد ان أجلس وانتظر .

من فرط تعقد الموقف ، ومن فرط يأسي ، هبط على برود شديد ، فجلست ، وجذبت مقعدا آخرا مددت عليه ساقي ، ولملمت اطراف المعطف اغطي به جسمي ، وجذبت القبعة على وجهي .. محاولا النوم !!. ولكني لم أنم ، افكاري تتتابع ، مدينة صغيرة على الحدود ، ربمـا في مستوى القرية .. لا احد يتكلم الانجليزية او الفرنسية .. ليس معي نقود لاشتري تذكرة سفر الى بودابست .. فماذا أفعل ؟ .. وعاد ينتابني شعور عدم المبالاة كنوع من الدفاع الداخلي في مواجهة هذا الظرف المعقد .

كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد منتصف الليل ، عندما اقبل ضابط الجوازات ، وبرفقته جنديا تـكرم برفع حقيبتي ، وأشار الضابط أن أتبعه ، فتحرك الركب الى قطار يقف على أحد أرصفة المحطة ، وصعدنا الى القطار في عربة تشبه عربات الدرجة الثالثة عندنا ، ولكن باعتبارها املي في الوصول الى بودابست ، بدت بمثابة أفخر عربات النوم بالقطارات السياحية . دار حديث مع الكمساري تخللته اشارات أصابع الضابط الى شخصي الضعيف ، قابلتها على الفور من جانبي ابتسامات مشجعة

مؤيدة ، وجلست الى جانب حقيبتى بعد أن غـادر رجال الجوازات القطار .. واطمأن الكمسارى على حـالتى ، فانصرف عني .. وتحرك القطار .

بدأ الاطمئنان يتسرب الى نفسي ، وسخرت من مخاوفى السابقة .. كلها اربع ساعات واكون مرة ثانية فى بودابست حيث يمكن اصلاح ما افسدته السفارة .. بعـد خمس دقائق أو سبع دقائق على الاكثر .. توقف القطار وبدأ هبوط الركاب ، وقلت لنفسى ، قطار قشاش سيقف على جميع المحطات . وبعد قليل لاحظت ان جميع الركاب قد هبطوا ، وان وقوف القطار قد طال .. ثم أقبل الكمسارى يطلب منى الهبوط فهذه هى نهاية رحلة القطار .. حاولت بالاشارة أن أسأل ، وكيف اذهب الى بودابست ؟ فأفادنى بلغة الاشارة أيضا ـ وما كان أنفعها فى هذه المغامرة ـ ان على أن اهبط وانتظر قطارا آخرا سيتحرك بعد قليل الى بودابست .

تبدت لى الحقيقة عارية بلا تذويق .. هذا الكمسارى هو آخر من يعلم تفاصيل قصتى ، ولا منـاص مـن « الشعـطة » فى القطارات حتى بودابست .

وقد كان !! ..

كنت أقول كلمة واحدة « بودابست » ، فيشير أحدهم الى قطار ما ، اتجه اليه ، يتحرك القطار ، يأتى الكمسارى فأسلمه الظرف الذى يحوى التذاكر الخاصة بالسفر الى بلغراد ومعها تذاكر عربة النوم ، يحاول أن يستفهم منى ، واحاول الا أقول شيئا ، يستأذن بابتسامة لكى يمضى بعيدا يدرس هذه التذاكر والاوراق ، والقطـار يقطع بعض

الكيلومترات الى بودابست ، ويعود الكمسارى وقد اختفت ابتسامته ، وينطلق فى حديث طويل بالمجرية لا أفهم تفاصيله ، ولكني يقينا أدرك أن مضمونه تساؤلا عن سبب ركوبى فى هذا القطار المتجه الى بودابست ، بينما تذاكرى كلها تؤهلنى للسفر الى بلغراد ، وكنت فى نهاية الامر اردد على طريقة طرزان « باسبورت نيشت جود » ... وكانت الخاتمة الحتمية لهذا المشهد فى كل مرة ، ان اجد نفسى ، احمل حقيبتى واهبط الى أول محطة يقف عندها القطار .

كنت اهبط ، فأسأل عن قطار بودابست التالى ، وانتظره اذا لم يكنَ مقيما بالمحطة ، أو أذهب لاجلس فيه الى ان يحين موعد تحركه ، وتعود القصة لتتكرر بحذافيرها ، فأجد نفسى من جديد على رصيف محطة ما اسأل عن القطار المتجه الى بودابست . كل هذا وانا احمل حقيبة السفر الثقيلة ، ابدلها من يد الى يد ، واقدامى تغوص تحت ثقلها فى الجليد الآخذ فى الذوبان مختلطا بالطين والرمل والحصى . الى أن وصلت الى احدى المحطات ، فتبرع كمسارى القطار أن يقودنى الى ناظر محطتها .

كان مبنى المحطة عبارة عن غرفة واسعة على شكل نصف سداسى ، واجهتها التى تطل على القطارات زجاجية تشرف على الموقع بأكمله ، وبداخل الغرفة العديد من الاذرع التى يتم عن طريقها تحويل خط سير القطارات .

استقبلنى الرجل الجالس على المكتب الكبير المواجه للحائط الزجاجى ببشاشة وتعاطف ، فأخذت أقص عليه

قصتى بالانجليزية ، وبنفس الابتســامة البشــوش استوقفنى ، ورفع سماعة التليفون وطلب رقما ، ثم تكلم بضع كلمات بالمجرية ، قدم الى السماعة بعدها ، وعلى الفور أدركت أنه قد أحالنى الى من يفهـم الانجليزية ، ورحت اشرح موقفي فى اسهاب ، ومن الطرف الآخــر لا تصلنى سوى كلمة واحدة « ييس » بمعنى نعم ، ولكنها كانت منغمة ، مرة مبتورة قاطعة ، وأخرى ممطـوطه فاهمة .. انتهت روايتى للموقف ، وناولت سـماعة التليفون لناظر المحطة حتى يستمع الى ترجمة ماقلت .. ولدهشتى الشديدة ، وجدته يضع السماعة مكانهـا وينهى المكالمة ، ثم يتحفنى بالمــزيد من الابتســامات والبشاشة . أشار الى فوتيل جلدى قريب من مــكتبه طالبا منى أن أستريح ، وسألنى « تشاى ؟ » ، فأمنت برأسى ، وكان على بعد ذلك أن أستمتع بفنجان شــاى ضخم يتصاعد منه البخار ، جعلنى أنسى مشــكلتى مؤقتا .

أخذت أتطلع الى المشهد من حولى ، بعد أن انصرف مضيفى الى عمله ، وكان نور الصباح قد عم المكان رغم احتجاب الشمس .. وعشرات العربات تجرها خيــول قوية ضخمة تفرغ حمولتها من الاخشاب داخل عــربات البضاعة ، ثم تعود الى منطقة الاشجار الكثيفة التى أتت منها ، مخلفة عجلاتها أخاديدا غائرة ، يختلط فيها الجليد بالطين .

بعد قليل استدعى ناظر المحطة أحد الاشخاص ، فتناول حقيبتى ، ونهض ناظر المحطة يشد على يدى فى ود ومحبة

وهو يردد « جودباى .. جودباى » ، باعتزاز المتمكن من اللغة الانجليزية

وجدت نفسى من جديد داخل قطار يتجه الى بودابست لتتكرر نفس القصة مع الكمسارى ، ولاهبط بحقيبتى المحطة التالية .. كنت خلال مغامراتى هذه قد قطعت أكثر من ثلاثة أرباع المسافة .. فما أن ركبت القطار التالى ، حتى أقسمت الا أغادره الا فى بودابست ، وأخذت أعبر العربات باحثا عن أكثرها ازدحاما .. واتخذت مكانا فى آخر المقعد لصق شباك القطار .. ولحسن حظى ، ما أن توقف القطار فى المحطة التالية وقبل أن يأتى الكمسارى ، صعد الى العربة مئات الركاب ، عمال ، فلاحون ، عائلات .. وكان من نصيبى أن تحتل الاماكن المجاورة لى ، عائلة متعددة الافراد ، امرأة عجوز ، وسيدة فى منتصف العمر ، وثلاثة رجال ، وطفلان ... تزاحموا فى المكان الذى لم يكن ليتسع لكل ذلك العدد .. ولسعادتى الغامرة ، ازدحم الممر بالركاب الذين لم يجدوا أماكن لجلوسهم .. لقد جاء الفرج .. ولن يصبح من السهل على الكمسارى أن يصل الى مكانى الا بعد أن يمر على هذه المئات .. والتصقت بشباك القطار محتميا بالعائلة الكبيرة التى جاورتنى .

ما أن استقرت العائلة فى مكانها ، حتى خرجت من الحقائب ارغفة العيش الضخمة ،وخراطيش « السلاما » الطويلة ، وزجاجات العصير الكبيرة .. أخرج أحد الرجال مطواه من جيبه ، ونظف حدها بمنديله ، ثم أخذ يقطع الرغيف الضخم ويفرد على كل قطعة شريحة سميكة من

« السلاما » .. واخرجت السيدة الصغيرة اكوابا معدنية من حقيبتها ، وأفرغت لكل واحد كوبا من عصير الفاكهة .. وراح الكل يلتهم ويزدرد مايقدم اليه بشهية مفتوحة .. وعينى ترتفع فى حذر من حين الى حين تتابع هـذا الموقف المثير .. لقد جعلنى الدفء والاستقرار النسبى أشعر بالجوع الشديد الذى كنت قد نسيته فى زحمـة الاحداث ، فالساعة الآن الثانية عشرة ظهرا ، ولم يدخل جوفى طعاما منذ التاسعة من مساء اليوم السابق ، وزاد من احساسى بالجوع ذلك المجهود العضلى والعصبى الذى بذلته منذ بداية رحلة التشرد ، أضف الى هذا أن فنجان الشاى الذى أنعم به على ناظر المحطة الكريم قد زاد من تفتح شهيتى .

ما أن انتهى هذا المشهد المسيل للعاب ، ونفض الجميع عن ملابسهم بقايا الخبز ، حتى جذبت السيدة ، وكانت تجلس فى مواجهتى ، أصغر الاطفال وأجلسته على ركبتيها .. وراحت تناغيه وتدلله ، فيستجيب الطفل لمناغاتهـا بتطويح قدميه ، لتصطدما فى كل مرة بمنتصف قصـبة ساقى .. وعلى قدر مبالغة السيدة فى المناغاة والتدليل ، كان حماس الطفل لحركة قدميه ، وكان تضـاعف المى بالخبطات المنتظمة المتوالية التى تقع على سـاقى .. وذهبت سدى كل محاولاتى لتغيير جلستى تفاديا لضربات الطفل المدلل ، فباقى الاسرة تحتل كل ملليمتر من المقعد بما لا يسمح بأيسر حركة .. وانتهت هذه الازمة عندما دبت الغيرة الى قلب الطفل الثانى ، وأقبل ليحشر نفسه متمحكا بينى وبين السيدة مانعا قدم الآخر من الوصول

الى .. ففتحت السيدة حقيبتها ، وأعطت الطفل الذى نهشته الغيرة قطعة شيكولاته ، أخذ يقضمها فى تلذذ ، ويستحلبها ، ويمد اصبعه الى فمه متتبعا آثارها الهاربة فى تجاويف فمه .. ماسحا يده فى ملابسى !.

بابتسامة غاية فى المجاملة ، كنت أمد يدى مبعدا يده المتسخة عن سروالى ومعطفى .. فيعود ليضعها ثانية فى مكانها الاول ، منشغلا عنى الى قطعة الشيكولاته التى فى يده ، والعائلة تتابع هذا المشهد ، متصورة أننى أتعاطف مع الطفل الصغير وأداعبه ، فترتسم ابتسامات السعادة على الوجوه .

وفجأة .. ظهر الكمسارى !!..

كالعادة سلمته ظرف التذاكر .. وكالعادة سببت له محتويات الظرف وبياناتها ارتباكا ، فاستأذن فى أن يأخذ الاوراق لمراجعتها .. وكالعادة ، وافقت منتظرا المشهد التالى فى مسرحيتى المتكررة .. عاد ليبدى نفس الحيرة . ورددت نفس الكلمات التى كنت أرددها دائما ، وبدا يتكلم عن هبوطى فى المحطة التالية ، ولكننى فى هـــذه المرة ، وبقدر ما استطعت أن أصبغ صورتى بالحـــدة والحزم ، قلت فى اصرار « بوليس .. بودابست » .. ويبدو أنه اقتنع ، أو أن ازدحام القطار لم يســمح له بمزيد من التوقف عند حالتى ، فأخذ ظرف التذاكر معه كرهن ، لحين وصولنا الى بودابست .

وغنى عن الذكر ، أن العائلة الجالسة حولى قد أفزعها لفظ « بوليس » الذى رددته باصرار ، ولا أدرى ما الذى

فهمته من ترديدى لهذه الكلمة ، الا أن معـــالم الجـدية والحذر قد أطلت من كل العيون .

أخيرا .. وصلنا بودابست ، وانصرف الركاب ، وبقيت على رصيف المحطة ، أنتظر الكمسارى الذى ســيأخذنى الى البوليس .. وكنت أشعر بنوع من التلذذ السادى ، وأنا أتصور سلطات الامن تتصل بالسفارة ، لتسلم المواطن المصرى ، وأخذت أعد الكلمات الحادة التى سأوجهها الى ذلك المسئول الذى سبب لى كل هذا العنـــاء بسبب اهماله .

وأقبل الكمسارى من بعيـــد ، وأشرت اليه برأسى ما معناه ، هيا الى البوليس ، لكنه نظر الى فى سأم . وناولنى ظرف التذاكر ، مشيرا بيده مامعناه « انصرف .. بلاش دوشة .. » ، غاظنى منه هذا التصرف ، وقبل أن أتكلم كان قد تركنى وابتعد تماما .. لقد انتهت ورديته ويريد أن يعود الى بيته ، ما الذى يدفعه الى فتح قصــة جديدة ، بوليس وتحقيق وأقوال ؟!.

ركبت أول تاكسى صادفنى ، وذكرت له اسم الفندق الذى تقيم فيه الفرقة ، وكانت ساعة المحطة تشير الى الواحدة والنصف ظهرا .. ساعتان من بودابست الى الحدود فى عربة النوم الفاخرة .. ثم عشر ساعات ونصف لاقطع نفس المشوار « شعبطة » وتزويغ فى القطارات .

وصلت الى الفندق وطلبت من الاستقبال أن يدفـع للتاكسى ، بينما مدير الفندق ، يلاحقنى بأسئلته عن سر عودتى فى فضول شــديد ، كانت الفـــرقة مازالت فى « سيكاشفاهير فار » ، فالتهمت غذائى بأسرع ما أمكننى ،

واندفعت الى غرفتى التى لم تكن قد شغلت بعد ، ارتمى فى نوم عميق .

حوالى السابعه مساء استيقظت بعد أن بذل أعضاء الفرقة مجهودا كبيرا فى ايقاظى ، وقالوا ان مندوبة وزارة الثقافة قد عرفت بالقصة من مدير الفندق ؛ وأجرت اللازم نحو حجز جديد فى قطار منتصف الليل المتوجه الى بلغراد ، بعد أن تم تدارك التأشيرات اللازمة فى جواز سفرى ، وأنها قد حضرت لتبلغنى بما تم انجازه .. ولكنى ما أن تصورت نفسى مرة ثانية على طريق العذاب هذا ، حتى ثارت أعصابى وكدت أن أصاب بانهيار عصبى ، ورفضت بشدة السفر منفردا ، وصممت على تأجيل السفر بحيث أسافر مع الفرقة بعد يومين ، ولتنتظر بلغراد تصحيح برامجها ، الى حين حضورى مع الفرقة .

***

اخذ السيد يوهاس يستمع الى قصتى هذه مندهشا ؛ فقلت له ان الاغرب من هذا ، جاء عندما سافرنا بعد ذلك بالاتوبيس لنعبر الحدود المجرية فى موقع آخر غير موقع القطار .

فقد وصلت مع الفرقة الى الحدود ، وكان الجو مشرقا والجليد الذى يغطى كل شيء يلمع عاكسا أشعة الشمس الساقطة عليه ، ورأينا على البعد الاتوبيس اليوغوسلافى الذى سينقلنا الى مدينة « سيبوتيتسا » التى سيقدم بها مسرح العرائس حفلته الاولى . وقد اخبرنى ضابط الحدود ان بامكانى عبور المنطقة الحرام

من الحدود المشتركة ، والوصول الى الوفد اليوغوسلافى ، حتى اطلب منهم انتقال الاتوبيس الى جوار الاتوبيس المجرى ليسهل نقل الحقائب من واحد الى الآخر دون عناء . واعطيت الاوامر للجندى المكلف برفع الحاجز الذى يمثل آخر حد للحركة فى الاراضى المجرية .. وكان يفصل مابين هذا الحاجز ، والحاجز الخشبى المقابل عند قوات الحدود اليوغوسلافية ، ما يشبه الكوبرى ، عند منتصفه علامة تشير الى الحدود الرسمية المشتركة بين البلدين .. وكانت المسافة بين الحاجزين تصل الى مايقرب من مائة وخمسين مترا ، رحت اخطر على أرض الكوبرى الفاصل بين الحاجزين ، ووقع أقدامى يتردد عليه رغم الجليد الذى يغطيه .. وما أن وصلت الى الحاجز الآخر ، حتى صدرت الاوامر برفعه ، لاجد وفد الاستقبال يتقدم ناحيتى بالورود وعبارات التحية .. ابلغتهم رغبة الجانب الآخر فى تحرك أتوبيسهم ، فرفض رجال الحدود ، وقالوا ان فى هذا مخالفة خطيرة ، فهو يعنى دخول الاتوبيس الى أرض دولة أخرى بدون تصريح .

وما العمل اذا ؟ .. استمرت المفاوضات بين وفد المرافقين ورجال الحدود ، وانتهت الى حل وسط ... ستسمح الحدود اليوغوسلافية للاتوبيس بالسير متقهقرا بظهره الى العلامة التى فى منتصف الكوبرى ، وعلى الجانب المجرى أن يقوم بنفس الشىء .

وعدت مرة ثانية الى المجر ، وفى كل مرة كانت تصدر اوامر المسئولين برفع الحاجز فى نداء عسكرى مرتفع .. واخبرت رجال الحدود المجريين بهذا الحل السعيد ،

فترددوا بعض الشيء ، ولكنهم احسوا أن الرفض المجرى في مقابل التسامح اليوغوسلافى ، سيعتبر تعنتا .

وهكذا اخذ كل أتوبيس يتقدم على الكوبرى بظهره ، حتى التقيا عند العلامة التى تشير الى الحدود الرسمية، وبدأ أعضاء الفرقةينقلون الحقائب من ظهر هذا الاتوبيس الى ظهر ذاك ، وتحرك بنا الاتوبيس بعد ذلك الى يوغوسلافيا .

***

كنت أحكى هذه الفقرة من حكايتى ، وقد احسست أن السيد يوهاس ، لم يعد معى بانتباهه الكامل .. وما أن توقفت عن الكلام حتى قال فى هدوء « هل تسمح بأن تطلعنى على جواز سفرك ؟ » .. قدمته اليه ، وأخذ يتصفحه مقطبا الجبين ، وهب واقفا ليقول « كما توقعت .. لقد نسى الفندق هذه المرة أن يختم الجواز من جهات الأمن المحلى ، وربما كان ينتظر اليوم السابق لسفر الفرقة .. » .

لم أنطق حرفا واحدا .. ويبدو أن التعبيرات التى ظهرت على وجهى عكست حالة الذهول وخيبة الأمل ، لأن السيد يوهاس سارع بتطييب خاطرى ، ونظر الى ساعته ، ثم قال ان الوقت مازال يسمح بتدارك هذا النقص ، وأخذ الجواز وانصرف مهرولا ..

هل يمكن ان يحدث هذا ؟ .. هل يقرص المؤمن من جحر مرتين ، وفى نفس الموضع ؟.. ماالذى كان سيحدث لو لم يتوفر وقت الفراغ قبل تحرك القطار ؟.. ولو لم أحكى بالصدفة هذه القصة للسيد يوهاس ، على سبيل

تمضية الوقت ؟.. فى المرة الماضية كانت هناك عملية نقل من وثيقة جماعية الى جواز سفر .. فما العذر فى هذه المرة ، وهذا الجواز اتنقل به من بلد الى بلد منذ بداية الرحلة ؟ .. وتصورت نفسى اكرر نفس التجربة السابقة فى نفس مدينة الحدود التى هبطت اليها فى الرحلة السابقة .. واواجه نفس المشاق والصعوبات التى واجهتها فى المرة السابقة !! . انقبضت .. ولم يبدد انقباضى وصول السيد يوهاس وقد انجز الاجراء المطلوب .. ولم يبدده اجتيازى للحدود .. فقط تبدد عندما وضعت قدمى على الرصيف الصلب لمحطة بلغراد .

أزمة خبز وماء !

صبحى ، وقطع اللحم الصغيرة :

انتهى العرض المسرحى فى « يينا » ، احدى مدن المانيا الديموقراطية ، وذهبنا الى المطعم لتناول العشاء . بدات أطباق الطعام تنتشر على الموائد ، كنت أسير مع المرافق العراقى أحدد له أصحاب الوجبات الخاصة ، من الدجاج المسلوق ، وفقا لاوامر الطبيب ، عندما سمعت حوارا مرتفعا فى الطرف الآخر من المطعم .. ذهبت الى مصدر الصياح المرتفع ، كان الاستاذ صبحى عازف « الفلوت » ثائرا ، رافضا الطعام الذى يقدم اليه ، متمسكا بأن يأكل من دجاج المرضى .. والاستاذ صبحى فنان هادىء حيى بسيط فى تعاملاته ، لم يكن فى يوم من أيام الرحلة الطويلة التى مضت مصدر متاعب أو اشكالات .. لذلك حرصت على تقصى أسباب ثورته المفاجئة .. قال « أنا لا آكل اللحوم .. » ، قلت « وماذا تأكل ؟ » قال « اكل من الدجاج الذى يقدم للأعضاء » ، قلت « وجبات الدجاج عددها محدود ، سبق الاتفاق عليه تبعا لعدد المرضى ، لو انك كنت قد أخطرتنى من قبل برغبتك هذه لامكن

تحقيقها ، لكن الذى أعرفه أنك تأكل معنا دائما مايقدم من طعام ، وقد مضى علينا فى الرحلة أكثر من شهرين ، لم أسمع طوال ذلك الوقت انك لا تأكل اللحوم » ، قال « لم اكن أحب أن أثير أشكالا بطلبى الخاص ، وعندما كانت تقدم لى وجبة تتضمن اللحم ، كنت اترك اللحم وآكل باقى مايقدم لى » .

عدت الى المرافق أسأله امكان تبديل هذه الوجبة ، فأفاد باستحالة ذلك ، حيث ان المطعم الذى نأكل فيه ، قد أعد هذه الوجبات خصيصا لنا ، والمفروض أن يكون قد اغلق أبوابه منذ أكثر من ساعة ، ولكنه يفتح ابوابه للفرقة فقط ، ولحين أن تنتهى هذه الوجبة . وهكذا بقيت التكشيرة معلقة على وجه الاستاذ صبحى حتى صباح اليوم التالى .

عندما وصلنا ليبزج فى اليوم التالى ، وأثناء ترتيب مواعيد الوجبات ونوعيتها ، حرصت على اضافة اسم الاستاذ صبحى الى قائمة أكلة الدجاج .

على مائدة الغذاء كان الطبق الرئيسى يشبه « كباب الحلة » عندنا ، فأخذت أسأل عن الوجبات الخاصة التى كنت قد حددتها ، وكنت أريد أن أفاجىء الاستاذ صبحى بالدجاج حتى نزول التكشيرة .. وجدت الجرسون مقبلا يدفع مائدة متحركة عليها طعام المرضى ، فأشرت اليه ، ثم أخذت أطوف بناظرى بحثا عن الاستاذ صبحى فوجدته .. يضحك ويتحدث ويلتهم فى شهية واضحة طبق « كباب الحلة » ..

غاظنى هـذا .. لماذا كانت ضجة الامس اذا ؟ ..

صرفت الجرسون ، واشرت الى المايسترو شعبان أبو السعد ليجيء ويكون شاهدا على الواقعة ، وذهبنا الى مائدة الاستاذ صبحى دون ان يشعر باقترابنا ، وشعبان أبو السعد يكتم ضحكاته بصعوبة .

قلت « أستاذ صبحى .. أنت بتاكل لحمة ؟ » ، نهض مرتبكا ، وأخذ يقول اى كلام ، الى أن أسعفه الله بالتفسير الساذج « أصلها مقطعة حتت صغيرة !! » .. الى هذا الحد لم أستطع مواصلة اظهار الغضب ، فانفجرت مع شعبان فى عاصفة من الضحك شاركنا فيها كل من على المائدة ، بما فى ذلك الاستاذ صبحى نفسه .

كانت المسألة فى اليوم السابق ، مجرد وسيلة للتفريج عن الضيق النفسى ، واسلوب من أساليب تفريغ شحنة الغربة المركبة .

الضانى والخنزير .. وقصص اخرى :

كان الاكل واصنافه ومواعيده ، أحد بنود المفاوضات الاساسية التى تبدأ عند وصولنا الى كل دولة جديدة .. دائما ، برنامج العمل ، مواعيد الحفلات ، البرامج الرسمية من استقبالات وزيارات ، مصروف الجيب واسلوب صرفه .. ثم مسألة الاكل .

ماذا نأكل ، وماذا لا نأكل ؟.. قوائم المرضى والذين أمر لهم الطبيب بطعام خاص ، مواعيد الطعام وعلاقتها بأوقات التدريب والحفلات .

لاشك ان السؤال الاول كان يدور حول لحم الخنزير

وبعد استبعاده من القائمة ، كان السؤال التالى يدور حول باقى انواع اللحوم والطيور والاسماك ، كان البعض مثلا لا يطيق لحم الضأن ، وعندما كان يقدم بطريق الخطأ أو فى أحد المطاعم التى كنا نتناول فيها وجباتنا السريعة أثناء رحلاتنا بالاتوبيس ، كانت أنوف هذا البعض تتشمم رائحة لحم الضأن على بعد عشرات الامتار ، فلم يكن من السهل خداعهم . كذلك كان البعض لا يأكل السمك . لهذا كنت أختار الوجبات الحيادية التى يقبلها الجميع ، وكنت أكررها تسهيلا لمهمتى .. وكان هذا فى أغلب الاحيان يفقدنا فرصة الاستمتاع بالوجبات والاصناف الوطنية الخاصة بكل مدينة أو اقليم ، ولكن من الذى كان يستطيع المغامرة بتقديم هذه الاصناف ، ويتحمل وجهات النظر المتناقضة فيها ، ٩٠ وجهة نظر ، تحتمل كافة ضروب وأنواع التناقض .

كان التجمع لوجبات الطعام احد مشاكلنا الرئيسية ، وخاصة فى وجبتى الافطار والغذاء ، فوجبة العشاء كان امرها هينا ، لاننا كنا عادة نهبط من الاتوبيس بعد العرض أو التدريب ونتوجه فى وقت واحد الى المطعم .. أما الافطار والغذاء ، فكان توافد الاعضاء على المطعم يتفاوت تفاوتا كبيرا ، فينسحب على مدى ساعتين أو اكثر .. البعض يكون فى تمام السابعة صباحا جالسا على مقعده فى المطعم منتظرا طعام الافطار ، والبعض الآخر كان يصحو من نومه فى التاسعة او العاشرة .. ونفس الامر فى وجبة الغذاء ، تدخل الدفعة الاولى الموجودة بالفندق عندما يحل الموعد المحدد ، ثم تبدأ أفواج القادمين

من الاسواق بمشتراوتهم ، أفواج متباعدة ، تجعل مهمة المطعم شاقة للغاية .

من هنا كان لابد من وضع لائحة خاصة بوجبات الطعام .. فى اول وصولنا الى المدينة ، يتم اخطار الاعضاء بمواعيد الوجبات ، ويكون من حق العضو أن يتخلف عن هذا الموعد لمدة ربع ساعة ، والذى يصل بعد هذا الموعد يوقع عليه جزاء خاصا ، بالخصم من مصروف الجيب الخاص به ، والذى يتجاوز النصف ساعة لايكون من حقه دخول المطعم .. وفى الافطار كانت تحدد ساعات تقديم الوجبة ، من السابعة والنصف الى العاشرة مثلا ، ويغلق باب المطعم بعد هذا الوقت ، وكان هواة النوم الثقيل غالبا ما يفضلون الاستمتاع بهوايتهم ، مضحين بوجبة الافطار .

ثم بدأ نوع من التحايل ، بطلب الوجبات فى الحجرات تهربا من قيد المواعيد ، واستجدت شكوى المطعم من كثرة الوجبات التى تقدم فى الحجرات ، فأضيفت قاعدة جديدة تقضى بأن يقتصر تقديم الوجبات فى الحجرات على المرضى .. وكانت تخطر ادارة المطعم بأرقام حجراتهم يوميا .

وكانت المشكلة التى تواجه المطاعم عند وصولنا ، هى دائما مشكلة الماء والعيش ، فكان الطلب على هذين البندين يتجاوز اى معدل تعود عليه المطعم . نحن نشرب كميات كبيرة من الماء اثناء الوجبات ، ونطلب ثلاثة اضعاف المعدل العادى للخبز الذى يقدمه اى مطعم ، وتجنبا للمشاكل والمضايقات كان هذا البند يدخل فى التعليمات الاساسية لكل فندق نصل اليه ، وكان الجرسونات

ينفذون هذه المهمة ، وعلى وجوههم ابتسامة تعكس تعجبهم لهذه الظاهرة الغريبة ، ظاهرة الشعوب آكلة العيش .

وقد اكتشفت بعد مرور أكثر من شهر على بداية الرحلة ، ظاهرة عامة بالنسبة للأعضاء ، وهى نزيف اللثة وبدأ الشاكون من هذه الظاهرة يشكلون طابورا طويلا فى رحلة المستشفى اليومية . وفى جميع الحالات ، اكد الاطباء ان مرجع هذه الظاهرة الى نقص فيتامين « سى » فى غذاء الفرقة بشكل عام عن المعدل العادى الذى تعودوا عليه .. وبدأ صرف كميات ضخمة من فيتامين « سى » كانت توزع على الاعضاء على سبيل « الجراية » اليومية .

اصوات غريبة فى انقرة :

كانت لنا مع التفاح قصة طويلة فى هذه الرحلة ، ومن فرط توافره وتقديمه فى كل وجبة يوميا ، بدأ التمرد عليه ، وفى أواخر الرحلة كنت تجد الكثير من الاعضاء ، قد تناولوا وجبتهم ، وانصرفوا ، تاركين كوم التفاح على مائدتهم لم يمس ... وقد ظهر رد فعل علقة التفاح اليومية على الاعضاء ، عندما عثروا على البرتقال واليوسفى فى أسواق يوغوسلافيا ، وأصبح من المناظر المألوفة ، وصول كل عضو الى الفندق ، يحمل باعتزاز حمولته من البرتقال التى سينفرد بها فى حجرته .

الا ان بداية علاقتنا بالتفاح كانت مختلفة اشد الاختلاف ، فما ان هبطنا من الطائرة فى انقرة ، وعرف

كل واحد مكانه بالفندق ، حتى انفرط عقد الفرقة فى الاسواق ، وكان الاتفاق مع وزارة الخارجية التركية ، التى كنا ضيوفا عليها ، على أن تصرف للاعضاء ما يقابل وجباتهم ، بحيث تستريح من هذه المهمة ، وقد حاولت ان أناقش هذا البند ، الا أن اصرارهم عليه كان مرجعه الى عدم توفر القدرة على تجهيز وجبات لهذا العـــدد الضخم فى مكان واحد .

تفرق أعضاء الفرقة فى المدينة ، وعندما انتهيت مــن ترتيبات العمل والزيارة مع المسئولين الاتـــراك ، رجعت الى الفندق ، وأثناء سيرى فى الممر الذى يقــود الى حجرتى ، وصلت الى سمعى أصوات غريبة تصدر بشكل منتظم عن جميع الحجرات .. نفس التكتكة تصدر من كل حجرة ، ورحت — وقد أثير فضــولى — أقـــرع الابواب مستفسرا عن السر فى هذه الاصوات ، وكان الرد يجىء لا من شاغلى هذه الحجرات ، ولكن من أكوام قشر الفستق فى كل حجرة .. لقد استقر الجميع — ودون اتفاق سابق بينهم — على ان تقتصر وجبة العشاء عــلى الفستق والتفاح التركى ! والحقيقة ، أنه على كثرة ماقدم الينا من تفاح طوال هذه الرحلة ، لم تصل الجودة فى اى بلد من البلاد ، الى جودة التفاح التركى .

... أبوكم ضحك عليكم !

اصرار الجانب التركى على عدم التكفل بوجبات الطعام والاكتفاء بتقديم مقابل مالى ، سبب لى الــكثير مــن القلق .. كيف سيتدبر الاعضاء أمر وجباتهم ؟.. كيف

سيمكنهم التفاهم باللغة التركية ؟.. كيف سيتحاسبون مع المطاعم ، ويدبرون وجباتهم بحيث لا تتجاوز المقابل المالى الذى تسلموه ؟..

ولكنى اكتشفت بعد قليل أن مخاوفى لم تكن فى محلها .. ففى ظهر اليوم الاول من أيام العمل بأنقرة ، وكنت فى طريقى من فندقنا الى الفندق الذى تقيم فيه بقية الفرقة ، سمعت وانا أسير امام احد المطاعم نداءات ودعوات باللغة العربية الدارجة صادرة من داخل المطعم ، فتوقفت ونظرت داخله ، فوجدت عددا لايستهان به من أعضاء الفرقة يحتلون أغلب موائده ، وسمير جابر يسير مع الجرسون التركى يتفاهم معه على الاصناف المطلوبة لكل مائدة ، مستخدما حصيلة لا بأس بها من الكلمات التركية واسماء صنوف الطعام ، وكان القاسم المشترك فيها هو طبق « اليالنج باتلجان » .. أو ما نسميه عندنا « المسقعة القرديحى » .. وكان السر فى الاصرار على هذا الطبق ، سعره المنخفض بالنسبة الى باقى الاصناف . وكانت النتيجة ، ليس فقط قدرة عالية فى التفاهم مع المطاعم ، ولكن ايضا مهارة خارقة فى اختيار الاصناف الرخيصة المشبعة ، التى تسمح باستغلال فائض ميزانية الطعام فى مشتروات أخرى من التى تزخر بها متاجر تركيا .

فى اسطمبول ، أذكر أننى خرجت مع مجموعة من الفرقة فى جولة بالسوق الشعبى الكبير والشبيه بسوق الحميدية « كاباليه شرشيه » ، وفى نهاية جولتنا شعرنا بالجوع ، وكان الوقت قرب المغيب ، وفى طريقنا

الى الكوبرى الكبير متجهين الى المدينة ، اقترح سامى يونس مدرب الفرقة أن نجرب أكلة السمك الشعبية التى يقدمونها على يسار مدخل الكوبرى . على شاطىء الدردنيل ينتشر باعة السمك المطهى .. بعضهم فى قوارب عائمة قرب جدار الرصيف ، وكل قارب مجهز بوابور جاز وطاسة قلية ، يصطاد الرجل السمك من الدردنيل وينظفه فى القارب ، ثم يطهيه على الوابور داخل القارب ، وتتسلم طلبك عن طريق سبت خاص بالقارب معلق بحبل طرفه مثبت أعلى الرصيف .. والبعض الآخر يقيم مايشبه المطعم الشعبى الصغير على الشاطىء ، أشبه بعربات باعة الفول والطعمية عندنا .. أدوات تجهيز السمك مقليا أو مشويا ، ثم دكة أو دكتان ، ولوح خشبى على قوائم منفصلة يمثل المائدة .

اقترح سامى يونس أن نجرب هذه المطاعم الشعبية ، ونتناول عشاءنا على شاطىء الدردنيل ، وكان أول ماصادفنا رجل كبير السن يقلى السمك على جانب الكوبرى مباشرة ، فرحب بنا باللغة العربية التى يجيدها ولما كانت أماكن الجلوس لديه محدودة بالنسبة لعددنا ، فقد اتفقنا على أن تجلس فى هذه الاماكن مجموعة الفتيات ، فجلست فى ضيافة الرجل العجوز جيلان وماجدة ونادية ودنيس ومريم ، وقلت لهن أننا سنجلس فى المطعم الشعبى الذى يبعد عن هذا المطعم عدة أمتار ، وكان المطعم الثانى أكثر تحضرا ، فما أن جلسنا على المقاعد ، وليس على دكة ، حتى أقبل الرجل يحيينا بالتركية ، ثم وزع على المائدة المغطاه بمشمع أطباق السلطة ، وكميات

مهولة من البصل الاحمر ، واتبع هذا بأطبـاق السمك المشوى ، وهو يشويه على طريقة الكباب المصرى ، نفس « المنقد » ، ومروحة التهوية .. كانت وجبة شـــهية انتهينا منها لنعود الى باقى المجموعة التى خلفناها عنـد صديقنا العجوز ، فوجدت البنات وقد انتهين من وجبتهن غارقات فى وصلة ضحك على حديث الرجل العجوز .

وعندما أخذنا طريقنا على الكوبرى الموصل الى قلب مدينة اسطمبول ، اعترفت جيلان بسبب وصلة الضحك هذه ، فقالت ان الرجل قال مغتاظا بعد انصرافنا الى الرجل المجاور له ، مشيرا الى ، « ابوكم ضحك عليكم ، اجلسكم عندى ، وراح هو يأكل عند الرجل الثـانى ، لان اسعاره اغلى من اسعارى ... » .

انتقام من رومانيا ، فى الاتحاد السوفييتى :

وتجربة المقابل المالى للوجبات كانت تجربة شـاقة ، احسست بمشقتها فى رومانيا ، حيث تكرر ماحـدث فى تركيا للمرة الثانية والاخيرة .

فى تركيا كنا قد وصلنا لتونا من مصر ، وكـان عدم انتظام الوجبات او عدم كفايتها لا يشكل خطورة كبيرة فالجو دافىء ، ونحن مازلنا بعـد فى بداية الرحلة ، لم تستنفذ طاقتنا بعد . اما فى رومانيا ، وكانت الزيارة فى شهر نوفمبر ، فالبرد شديد ، والجهد المبـذول فى الحفلات والتنقلات كبير ، سفر من بوخارست وحفلة فى بلوبتشى ثم العودة الى بوخارست فى نفس اليوم ، ونفس الشيء بالنسبة لحفلة برايلا فى اليوم التالى ... وهكذا .

فى واقع الامر،لم تكن مخاطر هذا النظام مجهولة لدى ، بعد خبرة الرحلة السابقة التى قمت بهامع مسرح العرائس. لقد صادفت فى رحلة العرائس نفس هذا الاصرار على التحلل من مسئولية الطعام وصرف مقابل مالى فى رومانيا ويوغوسلافيا ، وعانيت من هذا معاناة شديدة ، فيما يتصل بصحة الاعضاء وقدرتهم على مقاومة البرد القارس، والجهد المتصل . كان ذلك مع مسرح العرائس ، فما بالك بفرقة رقص ، تحتاج من الراقص ، لياقة بدنيـة كاملة لا تتوافر الا اذا توافرت التغذية المناسبة .

وقد حاولت أن أثنى المسئولين فى رومانيا عن موقفهم ولكنهم اصروا اصرارا تاما ، وكحل وسط ، عرضوا أن يتفقوا لنا مع مطعم الفندق على أسعار خاصة ، شريطة أن نتولى نحن محاسبة الفندق . ملت الى هذا الاقتراح لسببين ، أولهما ضمان الحد الادنى من التغذية للأعضاء وثانيهما تحقق القدر المعقول من النظام . فالوجبـات المشتركة كانت احدى وسائل التنظيم فى الرحلة ، يتم خلالها الاتفاق على مواعيد التدريبات والعروض والزيارات. ويمكن خلالها ابلاغ الاعضاء بما يستجد مـن تغييرات ضرورية مفاجئة فى برامجنا .. وبغير لقاء المطعم هذا ، كان التجمع الوحيد المتاح أثناء التدريبات أو العروض ، ولم يكن هذا التجمع كافيا لابلاغ التعليمات أولا بأول .

جربنا هذا النظام ، وتمت محاسبة المطعم يوما بيوم ، فاكتشفت أن ثمن الوجبات التى يقدمها لنا المطعم ، بعد ذلك التخفيض الخاص ، يتجاوز المقابل المادى الذى تقدمه وزارة الثقافة الرومانية ، بل ويكاد يلتهم أغلب مصروف

الجيب الخاص بالاعضاء . أحسست بعدم جدوى هذا النظام ، فأفرجت للأعضاء عما بقى لهم من حساب الطعام ومصروف الجيب .. وعلى الفور توجهت جموعهم الى محلات « الاتومات » ، حيث يتم الاكل وقوفا ، أشبه بمحل الامريكين عندنا ، وحيث تنخفض تكاليف الوجبة الى الخمس تقريبا .

الا أن الذى جعلنى لا اقبل تكرار هذا النظام ، ما اكتشفته من أن عددا كبيرا من الاعضاء كان يفضل أن يأكل أقل القليل ، على أن يستفيد من المبالغ المتوفرة فى شراء الهدايا والملبوسات . وقد ظهر رد فعل هذه الفترة جليا ، اما فى حالات الاصابة بالمرض نتيجة لنقص التغذية وعدم وجود المقاومة الكافية فى الجسم ، أو فى طريقة اقبالهم على الطعام فى الاتحاد السوفييتى ، عندما انتقلنا اليه عقب زيارتنا لرومانيا ، وحيث الطعام ضمن الاقامة الكاملة . لقد بدت عمليات التعويض واضحة ، مما لفت نظر المرافق السوفييتى ، فجعله يطلب من المطعم تجاوز المعدلات التقليدية للوجبة .

كوارع خنزير ، لـ « شق الريق » :

وتحضرنى بهذه المناسبة واقعة مضحكة حدثت فى بلغراد ، أثناء رحلتى السابقة مع مسرح القاهرة للعرائس .. فقد كان الجانب اليوغوسلافى قد أصر على عدم تكفله بالوجبات .

كنا فى رمضان ، وقد امضينا نصفه أو أكثر فى المجر ، ووصلنا الى بلغراد فى حوالى ثلثه الاخير . كنت قد سد

عانيت الامرين فى تنظيم مواعيد وجبات الصائمين وغير الصائمين ، والطلبات الخاصة فى السحور والافطار ، ولعل هذا العناء ، ورغبتى الدفينة فى التخلص منه ، هو الذى جعلنى أوافق ببساطة على مطلب الجانب اليوغوسلافى فى التحلل من مسئولية الاكل .. وقد سألت المرافق عن الاماكن القريبة من الفندق والتى يمكن للاعضاء تناول طعامهم بها ، فقال انه عبر الشارع الذى يقع فيه الفندق يوجد مطعم خدمة ذاتية « سيلف سيرفيس » ، به كل أنواع الطعام وبأسعار غاية فى الاعتدال .. فتم ابلاغ الفرقة بهذه المعلومات .

وفى أحد الايام ذهبت لاتناول طعامى فى ذلك المطعم ، كان الوقت بعد الغروب بحوالى نصف ساعة ، فأبصرت أعضاء مسرح العرائس رجالا ونساء وقد احتلوا جانبا خاصا من موائد المطعم ، وألحوا باشاراتهم أن أدنو منهم ، ففعلت ، وعرفت أن هذا الاستدعاء الملح سببه رغبتهم فى اسداء النصح بتجربة طبق شوربة الكوارع الممتاز .. وانهم كل يوم « يشقوا ريقهم » بعد الصيام بالشوربة ، ثم ينخرطون فى « مصمصة » الكوارع الشهية .

كان النظام فى المطعم يقتضى المرور فى خط سير طويل يبدأ بمائدة عليها عدد كبير من الصوانى البلاستيك ، تتناول واحدة ، ثم تمر على فاترينة طويلة بها كل أصناف الطعام ، موضح على كل صنف سعره ، وبلا حاجة الى الحديث ، يكفى أن تشير الى صنف معين ، حتى يضعه العامل على الصينية ، وهكذا حتى تصل الى مكان الاكواب والشوك والملاعق والسكاكين والخبز ، ثم فتاة

على الآلة الحاسبة ، تلقى نظرة خاطفة على محتـويات الصينية ، وتروح أصابعها تعبث فى أزرار الآلة الحاسبة لتقدم لك فى سرعة خاطفة ورقة عليها المبلـــغ المطلوب ، تدفعه وتحمل الصينيـــة بعد ذلك الى المـــائدة التى تختارها .

تناولت صينيتى ، واخذت طريقى أختار الاصناف التى اريدها ، وعندما وصلت الى الاطباق التى أوصى بهـــا اعضاء الفرقة ، سألت الرجل بالاشارة عن كنهها ، فرفع ساقه عاليا وأشار اليها وهو يقول « بورك » ! .. شكرته بابتسامة وتابعت طريقى وأنا أكتم ضحكتى بصعوبة .

كوارع خنزير مرة واحدة ، بعد كافة الاشكالات التى اثيرت فى بودابست ، حول اذا ماكانت الفراخ التى تقـدم اليهم قد تم ذبحها وفقا للطريقة الشرعية ، وحـول اذا ماكانت السكاكين التى تقطع بها اللحوم التى تقدم اليهم طاهرة ، أم سبق استخدامها فى قطع لحم الخنزير ؟!!

اتجهت بالصينية قريبا من موائدهم ، فتطلعوا اليها فى خيبة امل ، وقد افتقدوا فيها طبقهم المفضل .. طبق الكوارع المحترم . طبعا ، لم أحاول أن أصدمهم بالحقيقة وأنا أرى سلاطين الشوربة قد فرغت ، وعظام الكوارع مكومة أمامهم !.

فوق السحاب ، وتحت الارض :

من الموضوعات المفضلة لاعضاء الفرقة فى أوقات فراغهم عقد مقارنات بين مختلف الظروف التى مروا بهـــا فى

عبورهم المتصل للدول العديدة التى زاروها .. وكانت هذه المقارنات تنتهى الى أن أفضل ظروف الضيافة كانت فى بلغاريا والمجر .

فاذا علمنا أن ظروف الضيافة كانت بشكل عام وفى أغلب الدول طيبة ، تتسم بالكرم وحسن المعاملة ، أمكننا أن نتصور الدواعى الاستثنائية التى ميزت بلغاريا والمجر فى مجال الضيافة .

وواقع الامر ان كرم الضيافة والاحساس به ، لم يكن مصدره فقط جودة الطعام أو وفرته أو ظروف المبيت والتنقل ، لكنه يرجع الى التعاطف الذى نشأ بين أعضاء الفرقة وكافة من احتكوا بهم من أهل بلغاريا والمجر . ولعل مرجع هذا الى احساسهم بالتقارب فى الطبائع ، من حيث سخونة العواطف ، ودفء الاحاسيس ،واللا أوروبية فى ردود فعل الشعب فى كل من بلغاريا والمجر .

ففى بلغاريا كنت تحس أن وفد المرافقين ، بالاضافة الى اهتمامه الكامل بكل فرد من أفراد الفرقة واستجابته السريعة لمطالب الحياة اليومية أو لمطالب العمل ، كان يتفنن فى ادخال السرور الى قلوب أفراد الفرقة كلما أمكنه ذلك .

كان كبير المرافقين ، السيد يوردان ، شاب مثقف ينحدر من أسرة عملت طوال حياتها بالفن والسياسة ، فمن بين أجداده اكثر من أديب كبير يشار اليه عند التأريخ للحركة الادبية فى بلغاريا . كان السيد يوردان يهمس فى أذنى كلما كان هناك بعض الفراغ فى برنامج عملنا اليومى ، « ألم تملوا من تناول وجباتكم فى مطعم

الفندق ؟ » ، ثم يروح يصف فى عبارات شاعرية ، المكان الذى يقترحه لوجبة الغذاء .. وازاء اغراءالوصف أوافق على الفور ، وسرعان ما نجد انفسنا داخـــل الاتوبيس لتناول وجبتنا فى مكان ما على الجبل ... وتظل العربات تصعد بنا ، وتصعد ، حتى نصل الى الســـحاب .. السحاب فعلا وليس مجازا .. وقرب قمة الجبل نصل الى المطعم الجميل الذى أقيمت جدرانه من الزجاج بحيث لايفوتك المشهد الرائع فى تفصيلة من تفاصيله الاخاذة ، أيا كان مكان جلوسك فى المطعم . وبين الحين والآخر تمر على المطعم سحابة كثيفة ، تلفه ، وتعزله عن العـــالم تماما ، وتصبح الرؤية متعذرة على بعد أمتار قليلة .. ثم تنقشع هذه السحابة ، لتعود أشعة الشمس تتسلل من جديد الى واجهات المطعم الزجاجية .

أما داخل المطعم ، فقد كان قطعة من الذوق السليم ، بديكوراته التى تعتمد على الاخشاب بأنواعها المختلفة ، مرددة ايحاءات الغابة الكثيفة ، التى تخترقها فى طريقــك الى المطعم . وكان الكباب هو الطبق الرئيسى ، يقــدم اليك فى أسياخ صغيرة دقيقة ، تتولى بنفسك تخليصــه منها .. ثم طبق السلاطة الخضراء التقليدى فى بلغاريا ، بالفلفل الاخضر الملتهب ، ومبشـــور الجبن الابيض على سطحه .

كان يوردان يتجول بين الموائد ، ســعيدا باستمتاع الاعضاء بالمكان ، مستفهما عن رغباتهم ، مشجعا اياهم على طلب المزيد ، فتحس أن سعادة الفرقة الزائرة ليست واجبا يسعى الى تنفيذه والوفاء به ، بل مطلبا شخصيا

يحرص على تحقيقه . ويروح ينقل بنفسه أطباق الفاكهة بما فيها من تنوع لم يتوفر لنا مرة أخرى بعد مغادرتنا بلغاريا .

وفى المساء ، يعود يوردان للاتصال بى فى غرفتى قائلا « لقد تصرفت دون استئذان منك .. فلتصفح عنى » ، أقول « خيرا ؟ » ، فيقول « اذا كان قد أعجبكم تناول الغذاء فوق السحاب ، فقد نظمت لكم عشاء تحت الارض !» ..

وبالفعل ، يقودنا يوردان الى مطعم رشيق ، تزين مدخله الرسوم الشعبية بأسلوب حى نابض ، ومدخل المطعم يقود الى سلم هابط ، تظل تهبط فيه حتى تصل فى النهاية الى كهف غاية فى الجمال ، تغطى حوائطه قطع النسيج الشعبى البلغارى ، وتمتد موائده طويلة من الخشب الفليظ ، وعلى جانبيها دكك خشبية من نفس نوع خشب الموائد . وتصل اليك فى هذا الكهف ، وأينا كان موضعك ، الحان واغانى الفرقة الشعبية التى تواصل عزفها طوال السهرة ، وبلا توقف .

ثم يظهر فجأة سرب من الجرسونات الجميلات فى ملابسهن الشعبية المزركشة ، يوزعن الاطباق الخزفية المزخرفة على الموائد ، ويضعن على كل مائدة عددا من أطباق الفلفل الاحمر المصحون ، والذى يدخل فى أغلب الاطباق البلغارية الشعبية . ويقدم المطعم لزبائنه طبقه الوحيد ، الدجاج المشوى . وتظهر اهمية هذا التخصص فى طريقة التجهيز المتميزة واسلوب الشى الذى ينفرد به المطعم ، ويعتبره سرا من الاسرار الغالية . وينسجم

الريس عباس ، عازف المزمار بفرقتنا ، بعـد ان تستقر فرخة كاملة فى معدته ، فيمد يده الى مـزماره الذى لا يفارقه ، ويتبرع برد التحية للفرقة التى أمتعتنـا بموسيقاها طوال تناولنا لوجبة العشاء .

اوهام الفول المدمس فى المجر :

وكانت المجر هى الدولة الثانية التى ضربت رقمـا قياسيا فى الحرص على راحة أعضاء الفرقة وتلبية طلباتهم التى لا تنتهى . ويبدو ان الشعب المجرى بطبيعته ميال الى الاهتمام بالطعام وكمياته . فقد لاحظت ، خـلال زياراتى المختلفة ، تميز المطعم المجرى بتقديم الوجبـات المتعددة الاصناف والمضاعفة الكميات .

تبدأ الوجبة بطبق ضخم من الحساء ، ثم طبـق المشهيات ، ويتكون من قطعتين كبيرتين من السمك المقلى ثم الطبق الرئيسى ، ويتكون من شرائح سميكة من اللحم ، أو نصف دجاجة ، ثم كمية من الخضروات والارز ،وتنتهى الوجبة بالفاكهة يتلوها طبق من الحلوى أو المثلجات ... وزجاجات العصير تقدم بصفة دائمة طوال تناول الطعام .. بعد هذا يقدم الشاى أو القهوة حسب الطلب . وكذلك كانت وجبات الافطار تتضمن شرائح الجبن الكاشكفال ، والزبد والمربى والزبادى ، ثم طبق ضخم من البيض المقلى والسجق .. بالاضافة الى طبق كبير على المائدة زاخـر بأنواع الفطائر المختلفة .

كانت كميات الطعام بطبيعتها كبيرة ، وكان التنـوع

متوفرا فى جميع الوجبات ، فتوقعت أن تنتهى طوال فترة اقامتنا فى المجر ، متاعب الاكل والطلبات الخاصة .. ولكن لماذا وكيف يحدث هذا ؟! .. كيف لا تجود قرائح أعضاء الفرقة بما يتحول الى طلب ؟! .

أثناء تنـاول طعام الغذاء بالمطعم ، وكان يجلس الى مائدتى السيد هوللو ، رئيس قسم العلاقات الخارجيـة بوزارة الثقافة ، ونائبه السيد يوهاس ، عندما أقبل الراقص ممدوح عثمان الى مائدتى مهرولا ، وهو يقـول فى حماس وانفعال ، مشيرا الى مائدة تجلس اليهـا عائلة مجرية « فول يا أستاذ راجى .. فـــول مدمس !! ، الجرسون كان مودى دلوقت طبق فول مدمس للترابيزة دى .. الله يخليك تقولهم يجيبوا لنا فول مدمس » .

شعرت ان الوقت غير مناسب لمثل هذه المطالب ، فقلت فى هدوء حتى لا ألفت نظر المسئولين الذين يجلسون الى مائدتى « بلاش طفاسة يا ممدوح ... روح اقعد مكانك » .

ولكنه ، غير ملتفت نهائيا الى مغزى كلماتى ، عاد الى التأكيد والاشارة الى المائدة المعنية ، مما جعل السـيد هوللو يستفسر منى عن الموضوع ، فأردت أن أقـول أى كلام ينهى الموقف ، الا أن السيد يوهاس الذى كان يتكلم العربية وزار مصر أكثر من مرة ، راح يترجم حـكاية ممدوح للسيد هوللو .. وراح يشرح له فى عبارات دقيقة ماهية الفول المدمس الذى جاء ذكره على لسان ممدوح . ثم التفت يوهاس الى وقال « لا اظن اننـا نعرف

ماتسمونه بالفول المدمس عندنا .. لقد أكلته فى القاهرة ولكنهم لا يعرفونه عندنا » .. كل هذا ونوبة الحماس لم تفارق ممدوح ، فذهب المترجم مايك الى الجرسون يسأله عن الصنف الذى قدمه الى المائدة التى أشار اليها ممدوح ، وعاد ليقول بمصريته الدارجة التى تعلمها فى مصر « ده مش فول يا أستاذ .. الفول تلاقيه عند التابعى ياسى ممدوح ! » ، ثم ذكر للسيد هوللو اسم الصنف الذى أثار المشكلة ، وأخذ يشرح لى أنه نوع من البقول مثل الفاصوليا وفول الصويا ، وعرض أن يطلب طبقا ، يجربه أعضاء الفرقة فاذا صادف قبولا لديهم ، أمر باضافته الى وجبة الافطار .

رغم هذا ، فقد عاد ممدوح الى مائدته ، مارا على جميع الموائد ناشرا اشاعة اكتشاف الفول المدمس فى المجر .. وأخذت الموائد تتناقل الخبر المثير ، وكأنه خبر اكتشاف البترول فى ميدان التحرير ..!

أحضر الجرسون الطبق الموعود ، وكان على أن أفتتح عملية التذوق حتى أفتى بمدى صلته بالفول المدمس ، فوجدته أقرب الى الفاصوليا المسلوقة ، وان كانت طريقة الطهى أقرب الى التدميس مما جعل لون حبات الفاصوليا أشبه بلون الفول المدمس .. لم يعجبنى الصنف شخصيا ، ولكنى سلمت أعضاء الفرقة طبق التجارب هذا ، ليحددوا بأنفسهم موقفهم منه .. ودار الطبق الموعود على الموائد ، وتجمع الجرسونات يتابعون هذه العجيبة التى تحدث فى مطعمهم ، دون أن يدروا عنها شيئا ! .

وصلنى القرار فى نهاية الامر بتعميم الطبق فى الافطار مع اعداده بالزيت والملح والليمون ، بمثل ما يعد الفول المدمس .

وتم لهم ما ارادوا ، وفى الصباح خرجت من المطعم أطباق شبيهة الفول المدمس لتستقر على موائدنا ، ولتبدأ ـ للعجب ـ شكوى عامة ، ورفض قاطع لهذا الشبيه المزور ، مما جعلنى أستدعى الميتردى‌اوتيل ، وأطلب منه التوقف عن تقديم هذا الطبق .. فأمن الرجل على كلامى وهمس فى أذنى « كنت اعـــرف أن هـذا الطبق لن يعجبكم .. فهو الاكلة المفضلة لدى يهود المجر !! »

واحقاقا للحق ، لا يجب أن نغفل عن ذكر البانيـا ، فى معرض الحديث عن كرم الضيافة . فألبانيا بموقفها المعروف من الدول الغربية ودول أوروبا الاشتراكية ، يجعل زيارة فرقة أجنبية ، حدثا مثيرا ، ومناســبة لا تنسى .

وقد أمضينا فى ألبانيا ١٧ يوما ، وكانت اغلب أيام اقامتنا فيما عدا يوم أو يومين فى العاصمة تيرانا ، وفى فندقها الفخم الوحيد « دايتى » . وقد حـرص وفد المرافقين الالبان على توفير كافة وسائل الراحة للفرقة ؛ وتلبية جميع الطلبات ، بدافع من كرم الضيافة ، ثم لاحساسهم بآثار الارهاق التى ظهرت علينا جميعاً فى نهاية رحلتنا .

والمطبخ الالبانى يستمد تقاليده ـ تماما كمطبخنا ـ من المطبخ التركى الام ، فكانت تقدم لنا الــكثير مــن الاطباق التى كنا نظنها اطباقا مصرية أعدت خصيصا لنا

كنوع من التحية ، ثم نكتشف انها أطباقا البانية معـروفة وشائعة .. وكانت أطباق البصل الاخضر لا تختفى من على الموائد فى وجبات الغذاء او العشاء ، وظهـر انهـا عادة البانية أصيلة . اما اطباق البقلاوة الجيدة الاعداد ، فقد كان الطلب عليها لا ينقطع .

وجبة لا تنسى فى « ريجا » :

تناول الطعـام فى المطاعم الانيقة ، لاشك نوع مـن الرفاهية والمتعة التى لا يمكن ان تتكرر للواحد منا أكثر من مرتين فى الشهر الواحد على أحسن الظـروف . وفى الشهر الاول من رحلتنا كنا نستمتع بوجبات الفنادق السرفيس الكامل ، الخدمة الممتازة ، طابور الجرسونات الذى يسارع برفع الطبق بمجرد أن تنتهى منه ، ليضع مكانه طبقا نظيفا ، فى انتظار الجرسون الذى سـيقدم الصنف التالى من الطعام ، التفنن فى قائمة الطعام تحاشيا للتكرار ، اصناف الحلوى المبتكرة التى تتجدد انواعهـا كل وجبة .. جميع هذه المزايا التى لا تتحقق فى بيوتنا الا فى المناسبات السعيدة .

الا أنه مع تعاقب الاشهر ، ورغم المحاولات الجادة فى التصنيف والتنويع ، بدأ الواحد منا يحن الى أن يقتصر فى عشائه على سندوتش طعمية .. أو طبق باذنجـان مقلى .. بل بدأ يشتاق الى الاكل البسيط فى البيت ، دون هذه المراسم التقليدية المركبة فى المطعم .

لقد عايشت سعادة التحرر من طعام الفندق مرة فى

« ريجا » السوفبيتية التى تقع على بحر البلطيق ، فقد جاء الراقص أحمد عنان ، ومصمم الديكور فوزى ليخبرانى أنهما قد تعرفا على فتاة تدعى نتاشا سبروديا من مواطنات ريجا ، فنانة سوفييتية تعشق مصر ، وتهوى الفن الفرعونى، وتريد أن ترانى بعد أن أخبراها باهتمامى الخاص بالفنون التشكيلية فى مصر ، وكتاباتى فى هذا المجال .

كانت نتاشا قد قرأت الاعلانات عن الفرقة المصرية للفنون الشعبية التى تزور ريجا ، فأخذت تستفسر عنا فى جميع الفنادق حتى عثرت علينا يوم وصولنا وقبل أن تبدأ تدريباتنا أو عروضنا ، وكانت الراقصة دنيس أول من قابلها ، فقدمت نفسها وعرضت خدماتها على دنيس، واستعدادها لمصاحبة اية مجموعة من الفرقة لمشاهدة المعالم الخاصة للمدينة ، وبالفعل كانت دائما عونا صادقا لدنيس رزوجها أحمد عنان وصديقهما فوزى .

تم لقائى مع نتاشا فى صالون الفندق ، فقالت أنها تحب مصر عن بعد ، وانها تعلقت بالفن الفرعونى أثناء دراستها الفنية . فقد كان ضمن هذه الدراسة رسم ونحت نماذج من فنون الحضارات المختلفة ، وقالت انها ما أن وصلت الى نماذج الفن الفرعونى حتى تعلقت به ، واحست بانجذاب شديد اليه . . فراحت تتعمق فى دراسة الفن المصرى القديم ، وتقرأ عن الحضارة المصرية القديمة . . وانتجت العديد من التماثيل كنسخ للأعمال الفنية المصرية القديمة الهامة . . وانتقل حبها الى مصر المعاصرة فاخذت تحاول دراسة اللغة العربية ، بواسطة كتاب

عتيق بالروسية لتعلم اللغة العربية ، أهداها اياه احد البحارة المصريين الذين تلتقى بهم فى نادى البحارة بميناء ريجا .

رغبت نتاشا فى دعوتنا الى منزلها لرؤية إنتاجهـا من نسخ الفن المصرى القديم . واتفقنا على موعد فى احد الايام التى لا يشغلنا فيها تدريب أو عرض .. حضرت لاصطحابنا ، فتبعناها .. من ترام الى آخر . حتى وصلنا الى بيتها فى أطراف المدينة .. مبنى كبير وقديم ، تدخل اليه من بوابة مثل بوابات البيوت الاثرية عندنا ، تقودك الى حوش واسع ، ثم الى عدد من السلالم التى تصعد الى مختلف المساكن التى يضمها هذا المبنى الكبير العتيق ، وعندما وصلنا الى شقة نتاشا ، كانت أمها العجوز التى تعيش معها فى انتظارنا عند الباب .

مسكن نتاشا بسيط غاية فى البساطة ، صالة وحجرة واحدة .. الصالة مستخدمة كمطبخ ومدخل .. والغرفة مقسمة بواسطة ستار الى قسمين ، أحدهما يستخدم كحجرة نوم ، والآخر للطعام والمعيشة اليومية .

كنا اربعة أفراد ، دنيس وعنان وفوزى وأنا .. ومع وجود نتاشا ووالدتها ، ازدحم بنا المكان ، واصبح من الضرورى أن نحسب حركتنا حتى لا نصطدم بالاثاث أو بعضنا البعض ... نسينا هذا كله ، عندما بدأت نتاشا تستعرض انتاجها الفنى ، بعضه قد استكمل مراحله ، والبعض الاخر مازال فى دور التنفيذ ، مثل رأس اخناتون التى كانت فى طور شبه نهائى بالبلاستسين .

كانت والدة نتاشا تحاول اثناء هذا أن تتفاهم مع

دنيس وتشرح لها بعض الموضوعات ، فتعجز لغة الاشارة عن توصيل الافكار ، وتضطر نتاشا الى أن تتوقف عن كلامها حول انتاجها ، لتساهم فى حل مشكلة التفاهم بين والدتها ودنيس .

وحرصت الوالدة أن تحتفى بنا بقدر ما أتيح لها من امكانيات ، قدمت القهوة ، ثم الشاى ، وطال الحديث ، حديثنا مع نتاشا فى ذلك الجو العائلى الحميم .. ففوجئنا بالام تطالبنا برفع التماثيل عن المائدة استعدادا لتجهيز العشاء . اعتذرنا جميعا فى وقت واحد ، فالظروف المادية للعائلة ، واضح تماما أنها دون احتمال هذه الدعوة ، بالاضافة الى أن أماكننا جميعا محجوزة للعشاء فى مطعم الفندق . طلبنا من نتاشا أن تعتذر لوالدتها وتخبرها أن لدينا من الارتباطات ما يضطرنا الى الانصراف فحاولت نتاشا أن تقوم بهذه المهمة ، الا أن الام رفضت رفضا قاطعا قبول هذه الاعذار ، وصممت على تقديم العشاء لاصدقاء بنتها القادمين من مصر .

رغم بساطة العشاء الذى قدمته والدة نتاشا ، ورغم الكميات المتواضعة التى تمكنت من اعدادها . الا أننا اقبلنا على ماقدمته بشهية مفتوحة ، كنا قد افتقدناها طويلا تحت تأثير روتين وجبات المطاعم الفاخرة .

وصل تعاطف الوالدة معنا الى قمته فى نهاية السهرة ، عندما طلبت منى ومن فوزى أن ننهض ، ونتنحى جانبا ، حتى تتمكن من فتح باطن الكنبة « الاستمبولى » التى كنا نجلس فوقها ، ومن جوف الكنبة ، أخرجت بعناية فائقة علبة شيكولاته قديمة ، وضعتها على المائدة ، ثم أعادت

اغلاق الكنبة ، وسمحت لنا بالجلوس . اخــذت الام مكانها حول المائدة ، وبدأت فى عناية واعتزاز شـــديدين تفتح العلبة ، لتخرج ما بها من صور عائلية ، تعرضــها علينا واحدة واحدة مع التعليق المناسب الذى كانت نتاشا تتولى ترجمته .. صور شبابها المبكر بملابس ذلك العصر وقد ظهرت على الحائط من خلفها صــورة معلقــة للقيصر والقيصرة .. ثم صور زواجها .. ثم صورة لنتاشا وهى طفلة عارية .. ثم وهى فتاة صغيرة . وكانت الام وهى تفتح أبواب الذكريات تغرورق عيناها بالدموع ..ويرتعش صوتها وتعلق على كل صورة من الصور .

لقد شعرت بانجذاب حقيقى نحو تلك الام ، استمتعت بلقائها ، وحديثها ، وطعامها . وانتابنى شــعور عميق بالالفة وانا بين جدران ذلك المسكن المتواضع ، بدد لوقت طويل شعور الغربة المركبة الذى حكيت عنه من قبل .. أحسست بتعاطف عميق مع تلك الام العزيزة ، لم يستطع أن يحول دونه اختلاف اللغة أو تباعد الموطن أو تباين العادات . وبقيت وجبة ام نتاشا على مر الايام ، ذكرى لاشهى وجبة تناولتها فى رحلتى هذه .

مؤامرة مكرونية فاشلة :

على الجانب الآخر من بحر البلطيق ، كانت اقامتنا فى مدينة « جديانسك » ، أول مدينة بولندية نصل اليها .

كنا فى رمضان ، وبداية شــهر ديســمبر فى شــمال أوروبا .. الثلج يغطى كل شىء ، ولا أمل فى التطلع الى شعاع واحد للشمس على مدى الايام .

وكان موضوع وجبات الصائمين من أول الموضوعات التى جرت مناقشتها بمجرد وصولنا الى الفندق . فنصف أعضاء الفرقة يتمسكون بصيامهم ، رغم ظروف السفر المتصل ، وقسوة الجو .. وكان لابد من تيسير وجبات الصائمين وضمانها . وكانت كبيرة المرافقين ، سيدة وقور ، أعرفها من زيارة سابقة ، اضطرت الى ان تبذل الكثير من الجهد حتى استطاعت أن تحدد للصائمين أوقات الامساك والافطار .. وكان من حسن طالع الصائمين ، ان ساعات الصيام فى تلك المدينة فى ذلك الوقت من السنة ، لم تكن تتجاوز الساعات العشر .

وقد وافق المطعم على تقديم وجبة سحور اضافية للصائمين ، وتم الاتفاق مع الاعضاء على أن تتوحد وجبتى الغذاء وافطار الصائمين فى وجبة واحدة الساعة الرابعة .. واذكر ان الغروب حل فى بعض تلك الايام فى الثالثة والنصف بعد الظهر . وكانت هناك كشوفا بأسماء الصائمين وعددهم حتى يمكن للمطعم أن يوفر احتياجاتهم الا أن هذه الكشوف كانت دائما عرضة للتغيير والتبدل نتيجة للاحوال الصحية للأعضاء مما سبب لنا الكثير من المشاكل .

وفى جدیانسك ، اذكر واقعة كانت بطلتها الراقصة يسرية وهى من اقدم راقصات الفرقة . يسرية من هواة المكرونة . ورغم تحذيرات الجميع من السمنة ، كانت المكرونة هى نقطة الضعف عند يسرية . ولا ادرى السر فى أن المكرونة لا تدخل ضمن الاطباق المعروفة فى اغلب دول أوروبا الشرقية التى زرناها ، كان الأرز هو

الشائع دائما . وقد كانت ليسرية محاولات دائبة للبحث عن المكرونة . فكم أجرت من حوار مع المرافقين حـــول السر فى عدم ادراجهم للمكرونة ضمن قائمة الطعام .. ومع مرور الزمن ، أصابها اليأس من تحقق أملهـــا ، فقلت مجهوداتها فى البحث عن هذا السر المحير .. واعتبرنا أن قصة البحث عن المكرونة قد انتهت .

الا أنه قد اتضح لنا بعد ذلك ، ان اليأس الذى أصاب يسرية لم يكن مطبقا .. ففى جديانسك ، فوجئت بكبيرة المرافقين تفتح معى حديثا طويلا عن اهمية الحالة النفسية فى تجويد مستوى الاداء ، وأن الراحة النفســـية قد لا تتطلب لتحققها جهدا ضخما معجزا ، بل قد تتحقق نتيجة لتصرف بسيط . كنت حتى ذلك ، لم أصل بعد الى هدف هذه المقدمة النظرية ، الا أنه سرعـــان مادخلت السيدة الوقور فى صلب الموضوع ، فتحدثت عن رغبة يسرية فى المكرونة ، وانها ترى أن تحقق هذه الرغبـــة يفيد ولا يضر .. وحتى عندما وصلت الى هذا التوضيح لم أفهم الدافع الى كل هذا الكلام .. فما المانع فى ان تأكل يسرية مكرونة اذا ماكان تقديمها ميسرا ، وهـــل كنت اعترض على مثل هذا التعديل فى قائمة الطعام ؟.

وأخيرا فهمت السر فى كل هذه المقدمات .. كنت قد اتفقت مع كبيرة المرافقين عند وصولنا على أن يـــكون الاتصال بهيئة المرافقين لعرض المطالب عن طريقى أو عن طريق من أحددهم نيـــابة عنى فى كل تخصص مـــن التخصصات .. وانه غير مسموح بتـــاتا للأعضاء أن يتوجهوا اليها او الى اى واحد من المرافقين مباشرة بهذه

الطلبات . والواقع ان اتفاقى هذا ، سبقه اتفاق مع اعضاء الفرقة حول هذا الموضوع ، رغبة فى تنظيم الاتصال بالدولة المضيفة ، وحتى لا تختلط الامور ، سواء فى مطالب العمل أو احتياجات الحياة اليومية . وكان قد تخصص مسئول لكل غرض من الاغراض ، تتجمع عنده الرغبات ويتم تنسيقها ، ثم يقوم بابلاغها للمرافق المسئول .

كان من الممكن الاكتفاء بهذه التعليمات الموجهة للأعضاء دون الحاجة الى ايصالها الى السيدة المرافقة . لكن بعض المخالفات من الاعضاء اضطرتنى الى هذا الاجراء لضمان عدم المخالفة .. ويبدو أن يسرية تخوفت من محاسبتها على هذا الاتصال ، وان السيدة المرافقة قد أوردت كل هذه المقدمات حتى لا تكون مفاتحتى فى الموضوع سببا فى محاسبة يسرية .

المهم ... انهيت الموضوع بالموافقة الشاملة على موضوع المكرونة .

وحل موعد الوجبة المشتركة ، افطار الصائمين ، وغذاء الباقين .. واقبلت يسرية فى حالة من السعادة الشاملة ، تعتذر عن تصرفها ، وتبرره بدوافعها التى لا تقاوم ، ثم تمتن علينا جميعا ، بفضلها فى طبق المكرونة الذى سيقدم الينا ، كما شرعت فى مساومة بعض الزميلات اللاتى لم يكن يتحمسن للمكرونة ، على اجراء مبادلات فى أصناف الطعام بحيث تحصل هى على أكبر نصيب من طبقها المفضل .

وصل الطبق المنشود ، مكرونة « بالبيشاميل » ، وقبل ان أمد يدى الى الطبق ، تعالت صيحات الاستنكار فى

المطعم .. لقد كانت المكرونة معدة بالسكر ، فهكذا تقدم في بولندا ، بمثل ما نأكل نحن الشعرية بالسكر .

وأقبلت السيدة المرافقة منزعجة من رد الفعل المعاكس بعد أن أفهمتها يسرية ان هذا الطبق سيحوز اعجـــاب الجميع !.. فشرحت لها الموضوع وانهيت القصة ... قصة آخر محاولة من جانب يسرية لطلب المكرونة ، قبل وصولنا الى يوغوسلافيا ، حيث توافرت في أكثر مـــن وجبة .

علاج بالجملة!

انتصرت هدى ، واحتفظت بمصرانها :

تم تحديد موعد مبكر لوجبة الغذاء ، ففى السابعة والنصف مساء ، سنقدم حفلتنا الاولى فى ريجا ، وتم التنبيه على الجميع بالاستفادة من الفترة مابين الغذاء والتحرك الى المسرح ، فى راحة تامة ، حرصا على مستوى العرض المسرحى .

صعدت الى غرفتى بعد الغذاء ، وبدأت أنفذ على شخصى ما نصحت به ، وما أن وصلت الى الغرفة حتى ارتفع رنين التليفون .. مشيرة حالتها صعبة للغاية ، وتشكو من مغص شديد ، وقد تم اخطار المرافقة « رانا » وستنقلها الى المستشفى .. قلت للمختص الذى اتصل بى ، لا بأس .. اذهب معهم واخطرنى بنتيجة الكشف .

وبعد نصف ساعة ، كانت رانا تتحدث على الجانب الآخر من الخط .. كانت تتكلم من المستشفى ، تشوب لغتها العربية السليمة رنة احتداد .. والموضوع ، ان الطبيب قرر خطورة حالة مشيرة وضرورة اجراء عملية استئصال الزائدة الدودية فورا .. ومشيرة ترفض أن تمتثل لقرار الطبيب ، لعلمها أن العملية ستقتضى تخلفها

عن السفر معنا الى بولندا بعد اربعة أيام ، والبقاء بمفردها فى ريجا .

قلت لرانا ، ارسلى الى السيارة الصغيرة ، وسأصل اليكم بعد عشر دقائق على الاكثر ، وطرحت جانبا فكرة الراحة بعد الاكل ، فارتديت ملابسى ثانية ، منتظرا السيارة التى ستقلنى الى المستشفى .

وهناك وجدت مشيرة منخرطة فى نوبة بكاء هستيرى ، رانا تحاول تهدئتها من جانب ، ومحمد عبد الله المدير الادارى للفرقة يحاول من جانب آخر اقناعها بعدم جدوى الرفض ، خاصة أن الطبيب رفض السماح لها بالخروج من المستشفى الا اذا وقعت الفرقة اقرارا رسميا بتحملها مسئولية عدم اجراء العملية .

بدأ حديثى مع مشيرة خافتا هادئا ، ثم تصاعد فى « كريشندو » حتى وصل الى كلمات حادة حاسمة ... وكانت اول خطوة مفترضة ان تدخل مشيرة الى الحمام، حيث تأخذ حماما ساخنا وترتدى ملابس المستشفى ، تمهيدا لدخولها حجرة العمليات . وقد اخذت ، أثناء مناقشتها ، ادفعها بدون أن تدرى تجاه باب الحمام الذى يجب عليها أن تبدأ العملية بدخوله .. الى ان وصل « الكريشيندو » فى الحديث الى قمته ونحن أمام الباب مباشرة وأنا أقول « مشيرة .. مش عاوز كلام فارغ .. .. حتعملى العملية ، يعنى حتعمليها .. اتفضلى ادخلى .. »

وكان .. دخلت مشيرة ، ونظرات الامتنان توجهها الى هيئة التمريض التى كانت تنتظر لحظة دخولها .

التهمت هذه المحاولات ساعات الراحة ، وكانت الفرقة قد تحركت بالفعل الى المسرح .. وكان على أن أسرع الى المسرح قبل رفع الستار لاطمئن على سير العمل ، ثم لالقى كلمة التحية التقليدية فى بداية عرضنا الاول فى المدينة .

فى نهاية الفصل الاول ، وأثناء الاستراحة ذهبت مع رانا الى المستشفى لكى أطمئن على مشيرة ، وعلمت أن العملية تمت بنجاح وانها بدأت تفيق من البنج ، فصعدت الى حجرتها وأخذت أطمئنها الى أن رانا ستبقى معها فى ريجا ، وتسهل لها السفر الى بولندا عندما تسمح لها صحتها بذلك ، فاستراحت نفسيا .. وتركتها لتنام وقد تسللت رائحة البنج التى تسود المكان الى أنفى ، وبدأت أشعر بالتخدير والدوخة !.

فى نفس الموعد من اليوم التالى ، ارتفع رنين التليفون ، وكان هذه المرة من المستشفى .. هدى حالتها صعبة ، ونحن نتكلم من المستشفى ، ولابد أن تجرى عملية استئصال الزائدة الدودية اليوم ، وهدى تبكى رافضة بشدة اجراء العملية !.

وبطريقة آلية كاريكاتورية ، تكرر نفس ما حدث فى اليوم السابق .. وجرت عملية الاقناع بنفس الطريقة ونفس التدرج ، وهدى تبكى وتقول « مش ممكن .. أنا حاسه انى لو عملت العملية دى ح اموت » .. وأخذت أهدئها مستفيدا من سابقة مشيرة ، و « انتى مش ح تكونى لوحدك .. و ح نخليهم يحطوكى مع مشيرة فى أوده واحدة » .. و .. و .. وتدخل هدى الى غرفة الحمام

ونظرات هيئة التمريض ترمقنى باعجاب لا حد له .. الرجل الذى لا يعرف العقبات .. وصاحب الكلمة الاخيرة دائما !!.

تشاء الظروف الا أتمكن من مغادرة المسرح أثناء العرض لزيارة هدى بعد العملية ، وفى نهاية العرض طلبت منى رانا أن نمر على الفندق لتترك رسالة معينة ، ثم نذهب سويا الى المستشفى للاطمئنان على هدى ومشيرة .

وتنتظرنا فى بهو الفندق مفاجأة .. هدى جالسة والى جانبها حقيبتها ، منكسة الرأس ، واضعة يدها على خدها والمرافق آدم بلخمته التقليدية ، ولغته التى يدعى أن لها صلة بالعربية ، يطوح ذراعه ويقول « انها هدى رفض كثيرا .. وطبيب زالان « زعلان » ، وأنا كلام تليفون غير ممكن ، و .. »

تركته وتوجهت الى هدى « ايه الحكاية ياهدى ... ازاى تعملى كده ؟ » ، ولا اجابة ، ثم انفجار فى نوبة بكاء و « أنا عاوزه أرجع مصر .. عاوزه أموت فى مصر .. مش عاوزه أموت هنا » .

واجرت رانا اتصالاتها بالمستشفى ، وعرفت كيف أنها بمجرد انصرافنا ثارت وتمردت ، وتحت ضغط ثورتها تركها الطبيب لتعود مع المرافق الى الفندق ، وقال الطبيب ان العملية ضرورية ، ويجب أن تتم خلال سبعة أيام على الاكثر .. وما أن سمعت هدى هذا الكلام حتى توقفت عن البكاء وقالت « خلاص .. اعملها فى بولنـــدا ، وانتو ح تكونوا معايا .. » .

انتصرت هدى .. وتصورت هيئة التمريض وقد خاب

ظنها فى الرجل الذى لا يعرف العقبات ، وصاحب الكلمة الاخيرة !!.. المهم فى الموضـوع انه بعد وصـولنا الى بولندا ، أفتى الاطباء هناك بعدم ضرورة اجراء العملية ، وأعطوها علاجا آخرا .. وظلت هدى لزمـن طويل ، تظهر فى رقصات الفرقة القومية للفنون الشـعبية ، متمسكة بمصرانها الاعور !!.

زغلول .. وتقرير طويل من موسكو :

رغم كراهيتى الشديدة للمستشفيات ، ورائحـة المستشفيات ، هذه الكراهية التى قد تبدو غير منطقية ، ولكنها واقع اعترف به ، رغم هذا فقد علمتنى مسئوليتى خلال الرحلات الطويلة للفرق الفنية ، أن أصبح زبونا دائما للمستشفيات ، بعياداتها الخارجية ، وحجـرات العمليات ، وعنابر المرضى .

والواقع أن الرحلة الطويلة التى قامت بها الفـرقة القومية الى أوروبا ، كشفت عوراتنا الصحية بشـدة ، وأظهرت قصورا كبيرا فى نظام عملنا .. فرقـة الرقص تتطلب من أعضائها حالة صحية معينة ، وكفـاءة بدنية تامة ودائمة ، ولذا لابد أن يـكون من مسئولياتهـا الاساسية ، متابعة الحالة الصحية للاعضاء ، بشـكل دورى ودقيق .

وحالتنا الصحية بشكل عام ، كانت مثار تسـاؤل مستمر فى كل البلاد التى زرناها .. وقد ساعد على فضح حالتنا ، ظروف الانتقال الدائم ، والتغيير المستمـر فى

الطفس ، ثم درجات الحرارة الشديدة الانخفاض ، التى وصلت فى بعض الاحيان الى ٢٥ درجة تحت الصفر .

وقد ادى هذا الى وجود بند ثابت فى نشاطنا اليومى، اسمه كشف المرضى .. يتم اعداده فى اليوم السابق ، وتتخذ له كافة التدابير ، من توفير المرافق الذى يستطيع فهم حالة كل فرد وترجمتها الى اللغة المحلية ، حتى يفهم الطبيب طبيعة الحالات المعروضة عليه .. ثم توفير وسيلة المواصلات التى ستنقل مجموعة المستشفى ، اتوبيس أو مجموعة تاكسيات ، ثم متابعة تجهيز الدواء وتسليمه لكل مريض . هذا عدا عدد لا بأس به من العمليات الجراحية ، استئصال اورام ، وعمليات عيون ، وزائدة دودية ، وبواسير ..

واحقاقا للحق ، يجب أن أسجل لاعضاء الفرقة ، أن كشوف المستشفى كانت دائما لمواجهة علل حقيقية لايمكن انكارها ، وأن حالات التمارض كانت نادرة للغاية ، لدرجة يمكن القول معها ، انها كانت منعدمة .. بل على العكس من هذا ، كنت أصدر الامر برفع اسم العضو من كشوف الرقصات فى حفلة ما ، رغم أنفه ، وبصرف النظر عن انكاره لحالته ومطالبته الاشتراك فى الحفل .. نظرا لما ألمسه فى حالته الصحية ..

عندما كنا فى موسكو ، كان زغلول أبو الحسن ضمن قائمة المستشفى ، وعاد الجميع منها باستثنائه ، وقال المرافق ان الطبيب ذعر من حالته الصحية ، ولم يصدق ان هذا المريض عضو فى فرقة للرقص الشعبى .. فهو يعتقد ان حالته لا تسمح له بالمشى ، فضلا عن الرقص !! ..

وقد تركنا زغلول فى موسكو ليبدأ العلاج فى منتصف نوفمبر . ووصلنا بعد ذلك فى تشيكوسلوفاكيا عند نهاية شهر يناير من العام التالى !. لقد استغرق علاجه بموسكو حوالى شهرين ونصف .. وعند عودته اطلعت على التقرير الطبى الذى تسلمه فى نهاية العلاج . وفوجئت بقائمة من الامراض المزمنة التى لا تسمح للشخص بالسير أو بالحركة اليسيرة ، وبرغم هذا شارك زغلول فى رقصات الفرقة ، فى هذه المرحلة وفيما بعدها ، رغم التقرير الخطير الذى كتبه أطباء موسكو .

ماساة ، فى قطار رومانيا :

كان القطار يتجه بنا من الحدود الرومانية السوفييتية، الى موسكو .. قاطعا ١٨٠٠ من الكيلومترات فى رحلة واحدة .. وكالعادة تجمع أعضاء الفرقة فى بعض الدواوين يكدسون أنفسهم فيها تاركين باقى الدواوين فارغة تقريبا أو لهواة النوم الثقيل ، الذين كانوا ينتهزون فرصة فراغ الديوان النادرة ، فيغلقون كافة منافذه واضوائه ، ويمارسون هوايتهم المحببة . كانت كل مجموعة من المجموعات المتكدسة فى الدواوين تتميز بأسلوبها الخاص فى قتل الوقت ، واغتيال بوادر الملل .. هذه مجموعة الصخب والصوت العالى ، يمكنك أن تتعرف على مكانها بمجرد أن تضع قدمك على أول الممر في العربة ، نكات ، قفشات وضحكات عالية ، أغانى شعبية يشترك فيها الجميع .. بل اكثر من اغنية تتردد فى نفس الوقت ،

فى منافسة ، تنتصر فيها أعلى الاصوات واقـــدرها على الاستمرار .. وهذه مجموعة أخرى لا تكاد تســمع لها صوتا ، ولكن ما ان تفتح باب الديوان حتى تجـد النور البنفسجى الخافت بسود الديوان ، وسمير جابر قد تربع فى ركن الديوان ، يتغنى بموال اســكندرانى أصيل ، وحوله مجموعة من السميعة المخلصين :

الاسمر والابيض جونى لاجل افرق الواجب
مابين الاسمر ، وبين الابيض لم ينفرق واجب
الابيض عاجبنى قوى ، يمشى ويتعــاجب
والاسمر دهشنى برمش العين والحـاجب
البيض سكر مكرر فى حرير ملفوف
والسمر عطر القنانى اللى بيهم موصوف
يحيروا الشاب اللى ليه نظر ويشوف

وهناك مجموعة ثالثة لا تكاد تسمع لها صــوتا حتى لو فتحت باب الديوان .. مجموعة النمامين ، سيفه وجلال وحسين محمود .. ونديم فى بعض الاحيان .. تتقارب رءوسهم ويدور حديثهم دائمـا فى همس .. ولا يهمهم موضوع النم المطروح ، المهم ان يستمتعوا بدون عواجيز الفرح ، وعلى وجوههم ترتسم تعبيرات حــادة تعتبر من لوازم جو النميمة .. وغالبا ماكانت تتصاعد لديهم شهية النم ، فينقسمون الى مجموعتين ، تروح كل مجموعة تمارس هوايتها على المجموعة الاخرى .. وهــو ماكان يسميه باقى أعضاء الفرقة « النم الذاتى » !..

وفى ديوان آخر يتجمع الموسيقيون فى صفين ، وعلى حجر اثنين منهم تستقر الطاولة الصغيرة « الترانزيستور »

التى رافقتهم طوال الرحلة ، وتبدأ معـــــارك التحدى الساخنة ، و .. « بطل قرص ياصبحى .. »و..«ودينى ما انت واخدها .. العب وريني شطارتك » .. الى آخر هذه التعبيرات التقليدية .

فى أحد الدواوين ، كانت تجلس مجموعة من الفتيات احداهن تبكى فى صمت ، والاخريات يدرن بينهن حديثا خافتا ، ومعالم الاسى ترتسم على كافة الوجوه .. تصورت أنها حالة من حالات الاحساس بالغربة .. فحـاولت أن أتدخل لتبديد هذا الجو ، لكنى احسست أن الاساليب التقليدية لا تجدى مع هذه الحالة .. كما حاولت أن أصل الى السر فلم افلح .. كنت اعرف أن هذه الفتاه من بين الراقصات الجادات اللائى لا يصلن الى هذه الحـالة الا لامر ليس بسيط ، فلجأت الى المدرب سامى يونس . وقد كان ، فما مر بعض الوقت حتى أقبل ســامى وعلى وجهه نفس تعبير الالم والاسى الذى شــهدته على وجوه الفتيات .

قال سامى « فلانه كانت قد ذهبت الى المستشفى فى بوخارست بسبب وجود ورم فى صدرها ، فأخطـروها هناك باشتباههم فى حالة سرطان ، وبضرورة اجراء عملية عاجلة .. » .

سرطان ! .. هكذا ببساطة ، وفى هذا السن ، انها لم تتجاوز السابعة عشر .. كيف حدث هذا ؟.. لماذا لم تتكلم ؟ .. كيف استطاعت برغم هذا أن تشارك فى كافة الحفلات التى قدمناها فى بوخارست والمدن الرومانية الاخرى ؟ .. اسئلة كثيرة ، لا اجد لها اجابة معقولة .

وبدون أن أدرى تسلل الى وجهى نفس التعبير الذى شاهدته على وجه كل من عرف خبر هذه المأساة .

لم احاول أن أتحدث معها أثناء رحلة القطار ، كنت اتابعها عن بعد ، فأعجب لشجاعتها فى تلقى وتقبل هذا الخبر المزعج ، فهى فيما عدا جلسة الديوان التى تحدثت عنها ، تتكلم وتضحك ، ولكنها بين الحين والآخر تصيبها حالة من الصمت والانعزال عن كل ما يجرى حولها .

فى موسكو .. انتحيت بها جانبا ، وتكلمت معها فى الموضوع مباشرة ، ووعدتها بأن أسهل لها أعلى وسائل التشخيص المتوفرة فى موسكو .. وطرحت احتمال خطأ التشخيص فى رومانيا .. وأهمية الروح المعنوية العالية فى مواجهة هذا الموقف .. وفى واقع الامر لم أكن فى حاجة الى هذا الحديث ، فقد أدهشتنى موضوعيتها وشجاعتها فى تقبل الموقف ، وبحثها لاحتمالاته فى هدوء وتماسك .

عرضت عليها الراحة التامة وعدم الاشتراك فى التدريبات أو الحفلات لحين انتهاء الكشف عليها .. لكنها هنا فقط ، فقدت تماسكها وكادت أن تبكى ، رافضة اى اجراء من هذا القبيل ، متمسكة باشتراكها فى كافة الرقصات التى تدخل فيها ، وقالت ان ممارستها للعمل بشكل طبيعى يساعدها على التماسك .. فاحترمت رغبتها .. وجرت التدريبات دون محاولة للتخفيف من عدد الرقصات التى تشارك فيها ..

كانت حفلتنا الاولى فى موسكو على مسرح قصر الكرملين

المهول ، بأبعاده الخرافية ، وصالته التى تضـــم ستة آلاف مقعد .. وقبل بداية العرض كانت هذه المقـــاعد جميعا قد تم شغلها بالجمهور ، وجلس فى الصف الاول نائب وزير الثقافة السوفييتي والى جواره ســـــفيرنا بموسكو فى ذلك الحين الدكتور مراد غالب .

انتهزت فرصة الاستراحة ، فغادرت المسرح وتوجهت الى الدكتور مراد غالب الذى رحب بى ممثلا للفـرقة . وقدمنى الى نائب وزير الثقافة السوفييتى ، ثم أفســح لى مكانا الى جانبه ، وأخذ يسألنى عن أحوال الفـرقة وسير العمل ، فأسرعت بطرح مأساة فتاتنا ... وقلت للدكتور مراد غالب أن الخدمة الحقيقية التى يقدمها لنا الاتحاد السوفييتى ، هى الاهتمام بهذه الحالة ، واتخاذ كافة الاجراءات الطبية الممكنة ، مهما طال أمد العــلاج وارتفعت تكاليفه ، ونحن من جانبنا على اســتعداد تام للاستغناء عن جهدها ، حتى لو اقتضى الامر ســفرها الى القاهرة مباشرة بعد انتهاء علاجها .

تأثر الدكتور مراد بالموضوع ، ونقله الى نائب وزير الثقافة الذى أخذ يستفسر عن الفتاة ، وهل هى فى المستشفى أم فى الفندق ، فقلت له انها معنا بالمسرح ، بل وستظهر حالا فى رقصة البمبوطية ، وما ان بـــدات الرقصة حتى أشرت اليها ، فكان تأثرهما عميقا بمقدرتها على العمل والابتسام للجمهور بهذا الشكل الطبيعى ، رغم ادراكها لابعاد المأساة التى تعيشها . أعطيت لنــائب وزير الثقافة كافة البيانات المتعلقة بها ، فوعد متحمسا ان يبذل كل مايستطاع فى علاج الفتاة .

وفى صباح اليوم التالى ، أخبرنى المرافق أن وزارة الثقافة قد قررت علاجا خاصا للفتاة ، وانه مطـــالب باصطحابها الى المستشفى لتبدأ الفحوص الاولية مباشرة قمت بابلاغها الخبر ، فاغرورقت عيناها بالدمـــوع ، وتخبطت على لسانها كلمات الشكر والامل .. وكانت هذه المحادثة آخر صلتنا بها ، لمدة شهرين ونصف .

تركنا موسكو وسافرنا الى ريجا ومنها الى بولندا ، فالمانيا الديموقراطية .. وهناك فى سفيكاو مدينة الجنوب الالمانى وصلت الفتاه أخيرا ، فى صحة جيدة .

كنا ونحن فى بولندا على اتصال بسفارتنا فى موســكو لمعرفة آخر الاخبار .. وقد سعدنا جميعا عنـــدما عرفنا فى وارسو أن الورم الذى أصيبت به من النـــوع الحميدى وليس خبيثا .. وانه قد تم استئصاله ، وأن الفتاه فى دور النقاهة ، وسيتم اخطارنا بموعد وصولها الينا فى الوقت المناسب .

وقد اقمنا فى « الناخت سيناتوريوم » حفلا خاصـــا بمناسبة وصولها ، شارك فيه الجميع ومسح من نفوسنا رواسب الالم التى خلفتها لنا هذه المأساة .

جلطة جيلان على يدها !.

لعــل من أهم بنود اتفاقيات التبادل الثقافى ، ذلك البند الذى يكفل للفرقة الزائرة ، الرعاية الصحية الكاملة ... ولولا هذا البند ، والتزام الدول التى زرناها بتنفيذه تنفيذا أمينا ، لما كان فى امكاننا أن ننجز هذه الرحــلة

فى ظروف العمل والطقس المنهكة التى صادفتنا . لقد كنا نحظى دائما بنفس الرعاية الكاملة التى يحظى بها مواطن اية دولة من هذه الدول ، بل لقد كان يتاح لنا أن نتخطى الدور ، ونتمتع ببعض الامتيازات الخاصة باعتبارنا ضيوفا على الدولة .

وقد أتيح لى فى هذه الرحلة ان ارى الكثير من مستشفيات الدول الاشتراكية التى زرناها ، بعضها يفوق مستشفياتنا تجهيزا واعدادا ، وبعضها متواضع أشد التواضع ، انما لا تقل الخدمة الطبية فيه عن أكبر المستشفيات ، من حيث اهتمام الاطباء ومستوى خبرتهم وكفاءة هيئة التمريض ، وتوفر الدواء والخدمات الصحية .. ثم النظافة ، النظافة الكاملة دائما .

ولاشك ان موقف الطبيب فى الدول الاشتراكية ، أيا كان مركزه أو مدة خدمته ، يختلف كثيرا عن موقف الطبيب عندنا . فالطب هناك مؤمم تأميما كاملا .. ليست هناك عيادات خاصة على الاطلاق .. ومن هنا كان الترقى الادبى والمادى للطبيب ، يتوقف أولا وأخيرا على مدى نشاطه ، ومهارته ، وأمانته فى تأدية وظيفته . ومن هنا كان اهتمام الطبيب بكل حالة تعرض عليه ، أيا كان مركز أو مكانة هذا المريض . الطب هناك خدمة كاملة لا يتطرق اليها احتمال السعى الى الكسب المادى على حساب سلامة العلاج .

وكانت مشكلة التفاهم مع الاطباء من أعقد المشاكل التى تواجهنا ، كان الامتحان الحقيقى للمترجم المخصص لنا يجىء عندما يبدأ الترجمة لنقل شكوى المريض

للطبيب . فأغلب المترجمين سواء كانوا يتكلمون العربية او الانجليزية أو الفرنسية ، كانوا هم أنفسهم لا يعرفون حصيلة مناسبة من المصطلحات الطبية باللغة التى يترجمون اليها ، كما أن أعضاء الفرقة ، لم يكن بامكانهم دائما شرح شكواهم بلغة اجنبية . من هنا كان ينشأ الكثير من الخلط وسوء التفاهم ، مما يضطر الطبيب الى مراجعة حالة المريض من جميع جوانبها حتى يصل الى التشخيص السليم .

ولا أنسى الفترة التى شغلتنا فيها جيلان الراقصة بالفرقة ، حول الجلطة التى قال الطبيب أنها أصيبت بها فى ظهر يدها !.

كانت تشكو من الم بظهر يدها ، وذهبت الى المستشفى مع المترجم وعادت تبكى ! ..

لقد قال الطبيب انها مصابة بجلطة فى يدها .. ومادام الجلطة فى اليد ، فما المانع فى أن تنتقل الى القلب أو المخ ؟ هكذا قالت جيلان .. وحاولت أن أفهم من المترجم حقيقة الموقف ، فلم أستطع ، وبقيت متيقنا أن تشخيص المرض والوصول الى تحديد كلمة جلطة ، كان مبادرة نشيطة من جيلان .. فلا المترجم يعرف معنى كلمة جلطة بالانجليزية التى يتكلمها .. ولا جيلان !.. فكيف توصلا الى هذه الكلمة ، لقد حاول الطبيب أن يشرح لها حالتها ، فسارعت هى على الفور باستنتاج انه يتكلم عن جلطة . وقد كان علاج هذه الجلطة المزعومة ، نوع من المرهم الابيض تضعه جيلان على ظهر يدها ... مادة يدها أمامها فى كل حركة وفى كل وقت .. وكانت الاحتجاجات تتصاعد ، كلما جلست جيلان بجلطتها ،

ومرهمها ، ويدها الممدودة الى الامام ، الى المائدة أثناء تناول الوجبات ... وعندما استنفذت قصة الجلطة اغراضها ، اختفت . وعادت يد جيلان الى جانبها بدون مرهم ، وبدون جلطة ، وبدون شكوى !.

وكان الاحساس بالغربة سببا فى حالة من الاحباط النفسى ، ينعكس فى شكل آلام جسمانية ، ويضيف الى قائمة المستشفى اعدادا من الاعضاء ، لم يكن بهم ما يستحق الذهاب الى المستشفى ، وان كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم بجدية آلامهم .. وكانت هذه الاحاسيس الكاذبة تتبدد بمجرد الذهاب الى المستشفى وتناول أى دواء يصفه الطبيب .

كما كانت هناك فى جانب آخر مجموعة من الاعضاء تكره المستشفيات والاطباء ، وتظل تتحمل وتعانى حتى افاجأ بها تنهار انهيارا كاملا .. ويأتى اللوم من الطبيب موجها الى شخصى ، كيف اهملتم هذه الحالة الى هذا الحد ؟ ..

من بين هذه الحالات ، كانت حالة المرحوم عبد الله .. طبال الفرقة .

الشكوى فى مستشفى البوليس ببرلين :

عبد الله ، طبال الفرقة يعتبر من القلائل المتفوقين فى فى فنون الايقاع بمصر ، واذكر أن الموسيقار السوفييتى العالمى خاتشادوريان ، سجل له ساعات طويلة من الايقاعات الشرقية المختلفة المعروفة والمهجورة ، عندما اكتشفه أثناء زيارته لمصر .

والفرقة تعتمد اعتمادا أساسيا على الايقاع فى عملها ، بل ان بعض الرقصات ، كرقصة العيش والحجالة تؤدى على الايقاع فقط .

ولعبد الله اخ ، هو عبد الرحمن يعمل فى الفرقة ايضا كعازف ايقاع ، الا أن ظروف التجنيد حالت دون اصطحاب عبد الرحمن معنا فى الرحلة .. واعتمدنا على الراقص السابق بهى الدين بركات ، الذى أصيب بنمو مطرد فى قامته جعله لا يصلح للظهور على المسرح وسط المجاميع ، اعتمدنا عليه فى مساعدة عبد الله عوضا عن عبد الرحمن خلال الرحلة .

واثناء الرحلة ، لاحظت يوما أن عبد الله يعرج فى مشيته ، وسألته عن السبب ، فقال بوجود جرح صغير فى قدمه لن يلبث أن يندمل . عرضت عليه الذهاب الى الطبيب ، فأخذ يضحك مستنكرا ، قائلا أنه لم يتعود فى حياته الذهاب الى الاطباء لمثل هذه الاسباب الطفيفة .

صدقته فى ذلك الوقت .. الا أن حالة العرج هذه طالت ، بل واخذت تتزايد بشكل ملحوظ ، تحدثت معه فقال ان أصابع قدميه قد أصابتها جروح جديدة ، وأن هذه الجروح لا تلتئم بسهولة . كنا قد وصلنا الى بولندا ، فطلبت منه أن يتنازل عن عناده ، ويذهب الى المستشفى ، لعلهم يزودونه بما ينفع فى علاج هذه الجروح .

كنا بالتحديد فى كاتوفيتسا ، وعاد عبد الله من المستشفى ، فسألته عن نتيجة الزيارة . اخذ يراوغ ويقول ان الادوية التى تسلمها لاشك ستساعد على التئام

هذه الجروح .. الا أن المرافق الذى اصطحبه الى المستشفى ، قال لى بالانجليزية أن حالته خطيرة ، فهو مصاب بمرض السكر المزمن ، ونسبة السكر عنده مرتفعة جدا ، وحالته تستدعي علاجا جادا ، واقامة فى المستشفى ، وقال ان ارتفاع نسبة السكر يحول دون التئام الجروح .

وللحقيقة ، هالنى الموقف . وبأمانة ، كان انشغالى على عبد الله لا يقل عن قلقى على مستوى العرض المسرحي فى غيابه .. الا أن الدافع الانسانى تغلب عندى على ماسواه ، فحسمت القضية وقررت دخول عبد الله الى المستشفى .

ودارت معركة .. رفض تام من عبد الله ، واتهام للأطباء والمرافق معهم بالتهويل ، وما الداعى للذهاب الى المستشفى .. ولو كان الامر كذلك ، لذهب ثلاثة أرباع الشعب المصرى الى المستشفيات ، وأن « الناس هنا خرعين .. مش متأسسين زينا .. الشىء اللى يخلى الواحد منهم يرقد فى المستشفى ، ياخده الواحد مننا على رجليه .. واسبرينه تقضى الغرض .. » الى آخر هذا الكلام .

وعندما أحس بتصميمى ، أدار اسطوانة أخرى ، حول مصير العرض ، وعدم قدرة بهى الدين على القيام بالايقاع منفردا ... ولكن النتيجة النهائية كانت استلقاء عبد الله على أحد أسرة المستشفى فى كاتوفيتسا ، وسط عنبر به عشرة مرضى .

كانت خطة العروض فى بولندا تقتضى أن نقدم عروضنا بعد كاتوفيتسا ، فى « ووتش » ، ثم فى وارسو العاصمة لنسافر بعد ذلك الى المانيا الديموقراطية . وقبل

مغادرتنا كاتوفيتسا طلبت زيارة عبد الله للاطمئنان عليه وللاتفاق معه على البقاء فى المستشفى لحين انتهاء عملنا فى بولندا ، ثم اصطحابه معنا الى المانيا .

دخلت العنبر الذى يرقد فيه عبد الله ، فوجـــدته جالسا على السرير ، بالبيجامة ذات الخطوط الحمـراء العريضة ، والى جانبه أكوام من الفاكهة ، وابتســـامة عريضة ترتسم على وجهه .

ـ هيه .. ازاى الحال ياعبد الله ؟..

ـ تمام التمام .. النـــــاس هنا آخر السطه !.. بيحبونى وبحبهم وطول الليل والنهار نرغى بالمشاورة ..

ومد يده الى تفاحة حمراء كبيرة وقدمها الى كتحية ، شكرته ، فقال مشيرا الى كوم الفاكهة وهو يقول :

ـ بيحبونى قوى هنا .. محدش مأخرلى طلب .. وكل شوية واحد من اخواننا العيانين دول يتحفنى بهـدية فاكهة .

ـ طب مالكش طلبات ؟.

ـ ابدا .. ابدا ..

ـ حالتك احسن دلوقتى ؟.

ـ جدا .. جدا ..

ـ احنا ح نسافر النهارده لبلد تانية ، وبعدين حنطلع على وارسو ، وانا اتفقت معاهم يوصلوك لحد وارســو قبل مانسافر المانيا ..

ـ وماله .. زى ماتشوف .

الحقيقة اننى لم اطمئن لهذه السعادة الدافقــة التى يمارسها فى المستشفى ، بعد كل الممانعة السابقة... ولم أفهم ساعتها السر فى هذه السعادة .

مرت الايام .. ووصل الينا عبد الله فى وارسو فى نفس يوم تحركنا الى ألمانيا ، حالته لم تتحسن ، والجروح لم تلتئم ، فسألت المرافق الذى اصطحبه من كاتوفيتسا الى وارسو عن رأى الاطباء هناك فى حالته .. فقال انهم غير راضين عن سير العلاج .. ويطالبون بتسليمه الى احدى المستشفيات فى ألمانيا .

سافرنا الى ألمانيا ، ووصلنا كما سبق أن قلت من الحدود الى مدينة سفيكاو فى الجنوب ، ولما كان من الضرورى سفرى الى برلين مع كبير المرافقين للاتفاق على برنامج العمل ، فقد طلبت اصطحاب عبد الله لعرضه على الاطباء هناك .. وكنت قد شرحت قصته لكبير المرافقين ، فأجرى اتصالاته ، وحجز له مكانا فى مستشفى البوليس ببرلين .

على مائدة العشاء فى الليلة السابقة للسفر . استأذن عبد الله فى زجاجة بيرة ، وكنت امنعه من تناول الخمور مراعاة لحالة السكر .. ولكنى وافقت هذه المرة باعتبار أنه سيخضع لنظام محكم فى التغذية عند وصوله الى المستشفى فى اليوم التالى .

وفى ظهر اليوم التالى كان عبد الله يرقد فى سريره بمستشفى البوايس ببرلين . مستشفى كبير ونظيف ومنظم ، يسوده هدوء كامل .. يوحى بالثقة الشديدة . وبعد الكشف الاولى اقبل الطبيب برفقة كبير المرافقين الى حيث كنت أنتظر . فقال الطبيب ان حالة المريض غير مشجعة ، وأن علاج الجروح التى فى قدمه لا يمكن البدء بها ، قبل علاج جاد ودقيق لتخفيض نسبة السكر العالية ، ولهذا يجب أن أن يبقى عبد الله فى المستشفى

لمدة شهر ونصف ، أو شهر كامل على الاقل . وافقت فقد كان هدفى أن انقذ صحته دون اعتبار لما يسببه تخلفه من تأثير على مستوى العرض . كنا فى بولندا قد جربنا بهى الدين بركات ، واثبت انه يستطيع ان يؤدى المطلوب ، لا يعوض عن غياب عبد الله ، ولكن لا يعوق تقديم العرض .

مر أسبوع ، وذهبت لزيارة عبد الله ، فما أن دخلت الى حجرته حتى هب ناهضا ، شاكيا ، طالبا الخروج فورا من هذا السجن الذى يسمونه مستشفى بوليس !.

وفهمت أن مصدر شكواه ، تلك المعاملة الحاسمة فيما يتصل بنظام الغذاء الخاص الذى وضع له .. وأخذت أسأله عن تفاصيل ما يقدم اليه فى كل وجبة ، فوجدت الا مجال للشكوى ، لا من الاصناف ، ولا من الكميات . وراح عبد الله يقنعنى أن صحته قد تحسنت كثيرا ، وان بامكانه مغادرة المستشفى .. ولما فشل فى هذا ، اخذ يشكو من انهم لم يبداوا فى علاج قدمه ، مكتفين بالنظافة اليومية ، دون علاج خاص .. فقلت له انهم ادرى بما يفعلون .

لم يكن عبد الله مستعدا لاى شرح أو تبرير .. وقد حاولت خلال الحوار المتصل أن أفهم سر رفضه الشديد للاقامة فى هذه المستشفى ، فلم أصل اليه .. العلاج منتظم .. والمعاملة طيبة باعترافه .. فلماذا هذا السخط على مستشفى برلين ؟ ..

عندما حضرت الفرقة بأكملها الى برلين ، أخذت أستقصى سر هذه الحالة من أخص أصدقائه بالفرقة ..

وعرفت السر .. عرفت سر استمتاعه بمستشفى كاتوفيتسا ، ورفضه لمستشفى برلين ، رغم ارتفاع مستوى الاخير من جميع الجوانب .

عبد الله يشرب الخمر يوميا ، وعند دخوله مستشفى كاتوفيتسا ، استطاع ان يعقد الصداقات مع بعض المرضى المقيمين بالعنبر ، وأن يتلقى هدايا الفودكا التى كان زوار العنبر يقدمونها الى أقاربهم فى يوم الزيارة .. من هنا كان تعلق عبد الله بذلك المستشفى ، واستعداده للبقاء لاى مدة .. ومن هنا كان أيضا ، عدم تحسن حالته . أما فى مستشفى البوليس ، فقد كانت الرقابة شديدة ومحكمة ، انهزمت أمامها مجهودات عبد الله فى الوصول الى قطرة واحدة من الخمر .. ومن هنا كان التمرد .

بل قالوا ، ان عبد الله ، فى اليوم السابق للسفر الى برلين ، وعندما ترددت فى السماح له بكوب من البيرة ، كان قد ابتلع زجاجة كاملة من البراندى ..

عندما فهمت السر انتهت حيرتى ، وحرصت على نقل هذه المعلومات الى الطبيب ، حتى يراعى حالته هذه فى العلاج ، فقال ضاحكا أنه أدرك هذا منذ اللحظة الاولى ، وأن العلاج يتضمن مراعاة هذه الحقيقة .

وزرت عبد الله يومها ، فبدأ اسطوانته التقليدية ، ولكنى أخبرته بلطف وبحزم فى نفس الوقت ، انه باق بالمستشفى حتى نهاية الشهر ، وأن عليه أن ييأس من أية محاولة للهرب من العلاج .. وخاصة من التفكير فى تناول قطرة واحدة من أى مشروب كحولى .. وصارحته

بالمعلومات التى وصلتنى عن مستشفى كاتوفيتسا ، وليلة السفر الى برلين .. فأخذ يضحك ، وقد شعر ان محاولاته اصبحت مكشوفة .

قبل مغادرتنا المانيا فى طريقنا الى تشيكوسلوفاكيا ، انضم الينا عبد الله وقد تبدلت حالته الصحية تبدلا تاما ، والتأمت جروح قدمه ، وانخفضت نسبة السكر عنده بشكل ملحوظ . واخذ يشكرنى على قسوتى معه واصرارى على استمرار العلاج ، مع وعود قاطعة بعدم الاقتراب من الخمر ، بعد أن عرف كيف يكون اثرها على صحته .

لكن راودنى ساعتها تساؤل حول مدى قدرته على التمسك بهذه الوعود . ثم حزنت بعد ذلك بسنوات عندما علمت أنه توفى بسبب مضاعفات مرض السكر .. عليه رحمة الله ..

فى مـواجهة الجماهير

البداية .. فى ملعب كرة السلة :

كانت زيارتنا لتركيا فى أعقاب فترة طويلة من انقطاع العلاقات الثقافية بين بلدينا ، وكان آخر نشاط ثقافى أو فنى قادم من مصر ، يذكره الناس فى تركيا ، هو زيارة المظ وعبده الحمولى !.

من هنا كان اهتمام الحكومة التركية بالزيارة ، ولهذا أوكل لوزارة الخارجية التركية أمر استقبالنا ، وتنظيم رحلتنا داخل تركيا ... وخصصت الخارجية التركية ممثلا لها يرافقنا طوال فترة تواجدنا داخل الحدود التركية ، ويكون بمثابة ضابط اتصال بيننا وبين وزارة الخارجية ، الملحق الثقافى .. توفيق بيك .

توفيق بيك ، الدبلوماسى التركى الشاب الذى استقبلنا فى أنقرة عند وصولنا ، متمسكا بأصول الدبلوماسية ، وتقاليدها ، ورسمياتها .. هو نفسه توفيق بيك ، الذى ودعنا بالاحضان فى حرارة تناسى معها شكليات البروتوكول ، قبل أن يتحرك بنا القطار من تركيا الى بلغاريا .

بدات مشاكلنا مع توفيق بيك ، عند زيارتنا للمكان الذى سنقدم فيه أولى حفلات رحلتنا الطويلة . لقد حرصنا قبل أن نتحرك من القاهرة ، على أن نرسل الى الدول التى سنزورها ، بيانات كاملة بمواصفات المسارح التى يمكن أن نقدم عليها عروضنا .. بيانات دقيقة تحدد أبعاد المسرح وعمقه وعدد الستائر المطلوبة ، والمكان الخاص بالفرقة الموسيقية ، ثم اماكن تغيير الملابس والماكياج للراقصين والراقصات . لهذا صدمنا عندما قادنا توفيق بيك ، الى استاد كرة السلة حيث سنقدم حفلتنا الاولى . وسألت توفيق عما اذا كانت قد وصلتهم المواصفات الاساسية للعمل التى كنا قد أرسلناها ، فأومأ بما يفيد أنها وصلتهم .. قلت محتدا ، فكيف تتصور اذا أن بامكاننا أن نقدم برنامجنا فى ملعب كرة سلة ؟! ... قال بدبلوماسية وهدوء ، لانه المكان المتاح الوحيد فى انقره .

هكذا بكل بساطة .. اما أن نعمل فى استاد كرة السلة .. أو لا نعمل فى انقرة ..

وعلى الفور ادركت ، اننى مطالب بأن اتنازل عن جميع احلامى بالعمل على المسارح الضخمة الفخمة فى اوروبا ، وأن ابحث عن حلول عملية تتيح للعروض المسرحية ان تظهر فى افضل شكل ممكن .

قلت لتوفيق بيك ، سنحتاج الى عدة اشياء حتى يمكن أن نحول هذا الاستاد الى مسرح . فقال مبتسما ، وهو يشعر أننى بدات أسلك طريق المعقول والممكن « رهن أوامركم .. » .

الاستاد ضخم يسع ثلاثة آلاف متفرج ، حديث التجهيز ، نظيف نظافة تامة ، مغلق ترصع سقفه أجهزة الاضاءة الضخمة . جلست مع سامى يونس مدرب الفرقة ، وحسين محمود القائم بأعمال الادارة المسرحية بالفرقة ، ومحمد عبد الله المدير الادارى ، ندرس جميعا مطالب تجهيز المكان للعرض المسرحى .. رفع أحد قائمى كرة السلة ليحل المسرح محله ، عدد الموائد التى ستثبت الى بعضها البعض لتصنع خشبة المسرح ، أنواع وكميات الاقمشة اللازمة لتغطية جوانب الخشبة ، سلالم على جانبى الخشبة لصعود وهبوط الراقصين فى كل رقصة تعديل اضاءات السقف ليتركز ضوءها على موقع خشبة المسرح .

لقد اتخذنا قرارا .. سنرقص على المكشوف ، بلا ستائر او كواليس ، وهذا يقتضى منا تدريبات شاقة لتعديل بداية ونهاية كل رقصة حتى تتفق مع الشكل الجديد للعمل .

تم ابلاغ توفيق بيك بالمطالب من جهة ، وبدات من جهة أخرى التعديلات فى بداية ونهاية كل رقصة .. وساعة أثر ساعة ظهرت معالم المسرح الذى اقترحناه ، وبدأت تدريبات الرقص فوقه .. وفى نفس الوقت انتحى المايسترو شعبان أبو السعد بالفرقة الموسيقية جانبا من الاستاد ، يجرى تدريباته على النشيد الجمهورى التركى ، والاغنية الشعبية التركية التى سيقدمها أعضاء الكورال بالفرقة كتحية للجمهور التركى ، وكان وراء تقديم هذه الاغنية قصة .

فقبل بداية الرحلة ، واثناء زيارتى للسفير التركى ، سألته عن مدى امكان تقديم قطعة موسيقى تركية كفاصل بين رقصتين ، وكتحية للجمهور التركى .. واخذنا نستعرض الاقتراحات الى ان خطرت على بال السفير فكرة مفاجئة .. لماذا لا تقدمون أغنية تركية محبوبة من الناس هناك ؟ ابديت مخاوفى نتيجة لضيق الوقت ، وقلت بضرورة اجادة نطق الكلمات التركية ، حتى لا تكون التأدية مثارا للسخرية .. الا أن حماس السفير اقنعنى بخوض التجربة . انتقلنا فى مكتبه الى حيث البيك - آب ، وتم الاتفاق على اغنيته المفضلة « كراجوز لم افكار لنما جال جايرى » .. وهى اغنية شائعة توجهها على ما أذكر فتاه الى حبيبها المجند وتقول له : يا « أبو » العيون السود .. بتفكر ليه ؟ .. شيء من هذا القبيل .

واخذ السفير يكتب نص الاغنية بالحروف اللاتينية ، وكتبت امام كل سطر الترجمة العربية حتى يفهم اعضاء الكورال معنى الكلمات التى يرددونها . وسلمنى الاسطوانة حتى يمكن عن طريقها ان نكتب النوتة الموسيقية للاغنية . بدأنا التدريبات وسط مشاغل السفر الاخيرة ، وفى وقت ضيق للغاية ، وكدنا نصرف النظر ، لولا أن شعبان ابو السعد تعهد باستكمال التدريبات فى أنقرة ، وتحت اشراف موسيقى تركى .

وقد حدث بالفعل أن اوفد الينا توفيق بيك فنانا تركيا يحضر بروفات هذه الاغنية ، وابدى اعجابه الشديد بمطابقة التأدية ، للأصل التركى .

قبل بداية العرض بساعات ، بدأنا التدريب النهائى ،

ووجدنا صعوبة كبيرة فى تدريب الراقصات على صعود السلم الضيق الموصل الى خشبة المسرح والهبوط عليه ... واقبل توفيق بيك يخبرنا بأن الجمهور بدأ يتزاحم عند مدخل الاستاد ، مطالبا السماح بفتح الابواب ، فصدرت التعليمات للجميع بالدخول الى حجرات خلع الملابس والاستراحات ، واخلاء صالة المسرح .. وبعد فتح الابواب بنصف ساعة كانت مدرجات الاستاد على سعتها تغص بالمتفرجين ، وبدأت المقاعد الاضافية ترص على جانبى القائم الخاص بكرة السلة والمواجه لخشبة المسرح .. وخصص الصف الاول من هذه المقاعد للوزراء وكبار المسئولين .

وبدأ العرض ...

وما ان انتهى السلام التركى والمصرى حتى صعدت الى خشبة المسرح ، وبرفقتى توفيق بيك الذى سيتولى ترجمة كلمتى الى التركية .. وفى نهاية الكلمة كنت قد أعددت مع توفيق بيك ، جملة ترحيب أقولها بالتركية « تشكر لار فاللاها اسمار لاديك » .

لم أكن أتوقع رد فعل هذه الكلمات التركية القليلة على الجمهور .. لقد انفجرت عاصفة من التصفيق والصياح استمرت لعدة دقائق .. واستطاعت عاصفة التصفيق هذه أن ترسى فى أنفسنا جميعا شعورا بالاطمئنان والثقة .. الجمهور معنا ، وعلينا أن نعطيه عرضا ممتازا بقدر ما تسمح به ظروف العمل . لقد احتلت خشبة المسرح ثلث ملعب كرة السلة ، وكان الجمهور يحيط بثلاثة اضلاع من خشبة المسرح .. ومن هنا كان وقع حماس

الجماهير على من يقف على خشبة المسرح عنيفا .. لقد انتقل هذا الحماس الى قلوب الراقصات والراقصين ، واحسست به ينعكس على عيونهم عندما هبطت اليهم بعد انتهاء كلمتى ، متمنيا لهم عرضا مسرحيا ناجحا .

تتابعت الرقصات وسط عواصف التصفيق ، ثم حل دور الاغنية التركية ، وكنت أضع يدى على قلبى خوفا من فشل التجربة .. بدات المقدمة الموسيقية للاغنية ، واخذت اتطلع الى الجمهور فى المدرجات باحثا عن تأثيرها عليهم .. وخاب املى .. البعض يستمع بترقب وبدون حماس ، والبعض الآخر يبدو غير مستجيبا لما تعـزفه الفرقة .. وقرب نهاية المقدمة الموسيقية ، بدأ تهامس الجمهور .. ثم بدأ الكورال « كراجوز لم أفكار ... » ، وارتجت جدران الاستاد بالتصفيق والصياح والاستحسان حتى نهاية الاغنية .. ثم أصر الجمهور على استعادتها من البداية .. فتنفست الصعداء .. وفهمت بعد ذلك أن التردد فى البداية كان يرجع الى تصور الجمهور أنه يستمع الى اغنية مصرية « لهف » ملحنها نغمات اغنيتهم المفضلة ونسبها الى نفسه .. وهم قد تعودوا على هذا « اللهف » لاغلب تراثهم الموسيقى .. ابتداء من سلامهم الجمهورى ، وحتى ابسط الاغانى الشعبية . لقد اكتشفت عند سماعى للتراث الموسيقى التركى ، أن عددا لا بأس به من الاغانى المصرية والسورية واللبنانية ، يعيش على خيرات الموسيقى التركية .

ولعل أعلا استجابة للجمهور كانت عندما قدمنا رقصة « المقاومة الفلسطينية » . كنت متخوفا بعض الشىء من

تقديم هذه الرقصة فى تركيا .. متخوفا من استجابة الجمهور ، ومن عدم موافقة الجهات المسئولة .. ففى أنقرة سفارة لاسرائيل .

لكن الذى حدث فى أنقرة عند تقديم هذه الرقصة لم يحدث فى أى مكان آخر قدمناها فيه ، رد فعل هذه الرقصة على جمهور أنقرة لا يضاهى أو يقارن برد فعلها على الجماهير العديدة التى شاهدتها ، بما فى ذلك جماهيرنا نحن فى مصر .

لقد تحولت الصالة ــ بلا أدنى مبالغة ــ الى مظاهرة صاخبة طوال عرض الرقصة ، بل لقد ترددت الهتافات .. هتافات حقيقية .. شخص يهتف ، وباقى المدرجات تهتف من ورائه .. هتافات لفلسطين والعرب .. ثم عواصف من التصفيق المدوى ، ضاعف من تضخيمها فضاء الاستاد المغلق ، فبدت كهدير متصل مخيف ، استمر لدقائق طويلة ، وجعل الراقصين يتسمرون فى أماكنهم عند نهاية الرقصة .. غير قادرين على الانصراف . غير مدركين لما يجب عليهم فعله فى مقابل هذه العواصف من التصفيق والهتاف .. ثم وبلا اتفاق سابق راحوا يشاركون بالتصفيق العنيف ، تفريغا لطاقة الانفعال التى تضطرم داخلهم .

بيس .. بيس .. ، وأزمة فى اسطمبول :

لم يقتصر هذا الحماس على جمهور أنقره ، بل تعداه الى جمهور اسطمبول . ونظرا لعدم وجود مسارح متخصصة فى العرض المسرحى ، تم اتفاق على أن نعمل

على مسرح دار من دور العرض السـينمائى الاولى باسطمبول ، على أن يحتل عرض الفرقة وقت حفـلة الماتينيه التى تبدأ فى السادسة .

مبنى السينما أنيق ، وصالتها فخمة واسـعة تستقبل مايقرب من الف وثمانمائة متفرج ، والمسرح الذى يمتـد خلف شاشة العرض السينمائى لابأس به من حيـث المساحة ، ويسمح بتقديم فقرات البرنامج دون عناء .

وكان مدير السينما مهذبا رقيقا يتصرف «كجنتلمان» .. بقوامه الفارع ، وسوالفه الطويلة ، قبل ان تستحدث موضة السوالف الطويلة .. وكلمات الترحيب التى كانت تصدر منه متعثرة متقطعة نتيجة لعيب فى النطق يعـانى منه .

مرت الحفلة الاولى بسلام ، وعلى خير مايكون العرض وبدأت أسطمبول تتناقل خبر الفرقة المصرية الزائرة . وشاع خبر برامجها الراقصة ، وضاعف من الاعلام عن برامج الفرقة ما ظهر فى الجرائد صباح اليوم التالى .. وحل موعد الحفل الثانى والاخير فى اسطمبول ، فتزاحم الجمهور على شباك التذاكر ، مما خلق ارتباكا للمرور فى الشارع الذى تقع فيه السينما .. وارتفعت أسـعار التذاكر فى السوق السوداء النشيطة عند مدخل الدار .. وما أن حل موعد العرض حتى كانت الصالة تستوعب ما يزيد عن طاقتها بعدة مئات من المتفرجين على اقـل تقدير .

توالت فقرات العرض ، والجمهور يصر فى نهاية كل رقصة على استعادتها ... بالصيحـات التقليـدية « بيس .. بيس .. » .

كنا نستجيب للجمهور فى بعض الرقصات ، فنعيد الشطر الاخير منها ، ونتغاضى عن هذه النداءات فى بعض الرقصات التى لم نكن قد اتفقنا على اعادتها مع الفرقة الموسيقية والراقصين ، لم نكن قد حددنا النقطة التى تبدأ عندها الاعادة . وفى مواجهة اصرار الجمهور ، التقيت فى الاستراحة مع المايسترو ومدرب الرقص لنتفق على نقط الاعادة بالنسبة لرقصات الفصل الثانى ، حتى لا يفاجئنا الجمهور .

تتابعت فقرات الفصل الثانى ، والجمهور على حاله من الحماس ، ومدير السينما ، يروح ويجىء ، فى حالة عصبية لم أفهم دوافعها . وعند انتهاء رقصة الفوازى ، وهى الرقصة السابقة لرقصة الختام « الدبكة الفلسطينية » ، أقبل مدير الدار مسرعا يطلب منى انهاء البرنامج ، لان موعد حفلة السواريه قد حل !! ، وان استجابتنا للجمهور واعادتنا للرقصات جعلنا نتجاوز الوقت المخصص لنا .

افهمته استحالة تحقيق هذا المطلب ، اذ لا يمكن اختتام البرنامج فجأة ، وبرقصة تشترك فيها ثلاث راقصات .. فقد جرى العرف فى العروض الراقصة أن تدخر الفرقة لختام برنامجها اضخم وأقوى الرقصات .. ولكنه صمم على مطلبه ، فأرسلت من يستدعى توفيق بيك مرافقنا حتى يتفاهم مع المدير .. وحضر توفيق بيك ، الا أن تصميم مدير السينما لم يتزحزح ، قلت له أن الرقصة الاخيرة لن تستغرق اكثر من ثلاث عشرة دقيقة وأن بامكان جمهور السواريه أن ينتظر هذه المدة . لكن المدير وقد تصاعدت عصبيته ، وضاعفت من عجزه عن

النطق ، راح يطلق فيضا من الكلمات المتقطعة المتعثرة ، لم افهم منها اكثر من .. الستار .. يجب .. سأغلقه .. بالقوة

نظرت الى توفيق بيك ، استشف منه طبيعة الموقف وعواقبه ، فوجدته مصرا على استكمال العرض ، فأصدرت الاوامر الى عمال المسرح بمواصلة العرض .. وكانت الفرقة الموسيقية ، وهى لا تشعر بما يدور على خشبة المسرح ، قد بدات بالفعل المقدمة الموسيقية والغنائية لرقصة الدبكة .. وفتح الستار ، وبدات الرقصة .

فانصرف المدير غاضبا مهددا متوعدا .. تشيعه ابتسامة توفيق بيك التى تعنى « ولو .. » . ونبهت على عامل الستارة الامامية ، أن يرابط الى جانبها ، خشية أن يتسلل احد عمال السينما ، فيعبث بها ويسدلها اثناء الرقص . الا انه فى النصف الاخير من الرقصة فوجئت بستارة امامية اضافية تهبط من سقف المسرح .. وحاول العمال أن يمسكوا بها قبل أن تغلق المسرح تماما ، وهاج الجمهور هياجا عظيما .. وارتفعت الصيحات والشتائم بالتركية .. وادركت أن المدير الناصح قد لجأ الى ستارة احتياطية تستخدم فى حالات الحريق لعزل المسرح عن الصالة ، ويتم التحكم فيها من حجرة العرض السينمائى .. اسرعت مع توفيق بيك والعمال برفع هذه الستارة الى منتصف فتحة المسرح . واشرت الى الفرقة والاوركسترا بمواصلة الرقصة ... وظللنا متعلقين على الاخشاب الجانبية للكواليس نمسك بأيدينا طرف الستارة حتى انتهت الرقصة ، وتحية

الختام ، مع حماس زائد أظهره الجمهور ، تعبيرا عن فهمه للموقف ، واستحسانا لمواصلتنا العمل بهذه الطريقة .

تعالت الاحتجاجات من اعضاء الفرقة ، فحرص توفيق بيك على تهدئة الجميع ، ووعد باتخاذ اجراء رادع مع ذلك المدير الاحمق ، على حد تعبيره . وانصرف الكل ، ولا حديث سوى عن المغامرة ، والكلمات الغاضبة ، لا توقفها الا ضحكاتهم عندما يأخذ احدهم فى وصف منظرى ومنظر توفيق بيك ، وقد تسلقنا الكواليس لرفع الستارة ، وكيف أنهم كانوا اثناء تأدية الرقصة ، يسترقون النظرات الخاطفة ذات اليمين وذات اليسار ، يتابعون فى اندهاش ، ذلك المشهد !.

فى صباح اليوم التالى كنا فى طريقنا الى محطة السكة الحديد ، لنركب القطار الذى سيصل بنا الى بلغاريا .. وعلى رصيف المحطة وجدت برفقة توفيق بيك ممثل لوزارة الخارجية جاء لوداعنا ، وشخص آخر قدموه الى باعتباره صاحب دار السينما التى حدثت فيها المغامرة .. واخذ الرجل يعتذر عن تصرف مدير الدار ، شارحا الموقف .. فهو يملك ثلاثة دورعرض أولى فى اسطمبول ، تقدم كلها نفس الفيلم ، وهو يستخدم نسخة واحدة من الفيلم فى دور العرض الثلاثة . مستعينا براكب دراجة بخارية يتسلم احدى بوبينات الفيلم بعد انتهاء عرضها فى احدى الدور ليمرع بها الى الدار الثانية ، يسلمها ويتسلم بوبينة أخرى يعدو بها الى الدار الثالثة .. وهكذا . وان تأخير عرض السواريه فى دار السينما التى كنا نقدم بها عرضنا المسرحى ، أدى

الى ارتباك العرض السينمائى فى دور العرض الثلاثة .. وأن هذا هو السر فى عصبية وغضب مدير الدار الانيق الجنتلمان .

رغم كل هذا ، فقد بقيت لنا من عروض تركيا ، ذكرى ذلك الحماس الجارف ، والتعطش الشديد لعروضنا ، ســـواء فى انقرة باستاد كرة السلة ، أو فى اسطمبول ، بمغامراتنا مع الستارة الهابطة من سقف المسرح .

تحية الجارسونات فى بوخارست :

فى اغلب الدول ، كانت تقاليـــد العرض المسرحى ، تقتضى كلمة ترحيب القيها فى بداية عروضنا فى أى دولة وعلى الاخص فى العروض الرسمية .. وكنت فى اغلب الاحيان القى كلمتى باللغة العربية ، ثم يقـــوم المترجم بنقلها الى اللغة المحلية ، بعد أن نكون قد أعددنا الـكلمة وترجمتها قبل بداية الحفل ... كانت كلمتى هـــذه تتكرر كما هى فى كل مرة ، بعد استبدال اسم دولة باسم دولة اخرى .

كنت فى أول الامر القى كلمتى بحماس يتفق مع المناسبة ولكن مع تكرار نفس الكلمات مع جمهور مختلف فى كـل مرة ، بدات تفقد كلماتى ـ بالنسبة لى على الاقـــل ـ محتواها .. واصبحت عملا روتينيا ، شديد الوطأة على نفسى .. أتحين الفرص للتملص منه ، كلمـا كان ذلك ممكنا . وكان الجديد فى كل مرة ، والذى كان يشـــكل تحديا نشيطا يطرد الملل والرتابة ، هو ضرورة اعـــداد جملة ترحيب باللغة المحلية اختتم بها تحيتى للجمهور

وكانت القيمة الحقيقية فى هذه الجملة ، تكمن فى مدى قدرتى على نطقها بلهجة سليمة ، وبطلاقة توحى بتمكنى من لغة الدولة المضيفة ، وبارتجالى العفوى لهذه الجملة !! .. تمثيلية طريفة ، لاحظت اصرار منظمى الحفل على قيامى بها .. كما لاحظت رد فعلها المثير على الجماهير . ولعل جماهيرنا فى مصر قد عايشت مثل هذه الاثارة ، عندما كانت احدى الفرق الصينية مثلا ، تقف على المسرح لتردد اغنية « بالاتحاد والنظام والعمل » ..

لقد كان النجاح المضمون لهذه « الحركة » ، هو المبرر الاول للجهد الذى كان على أن ابذله فى حفظ وتسميع هذه الجملة ، ومحاولاتى المتكررة لالتقاط اللهجة الخاصة ، حتى يتحقق الاثر المطلوب .

فى اغلب الاحيان ، كنت الجأ الى المترجم المرافق لاعداد هذه الجملة .. واذكر اننى فى بوخارست ، وبعد ان تدربت على الجملة التى اعدها المترجم ، التقيت بالسيدة مرجريتا نيكوليسكو مديرة ومخرجة مسرح تساندريكا للعرائس ، وهى صديقة قديمة زارتنا فى القاهرة أكثر من مرة ، واردت أن أمتحن نطقى لتلك الجملة امامها ، فأغرقت فى الضحك ، وتصورت أننى قد أخطأت خطأ جسيما فى النطق قلب معنى الكلمات ، ولكنها قالت ان سر ضحكها يكمن فى اختيار الجملة .. فهى تقال عادة فى المآدب والملاهى ، عندما يقف المتردى أوتيل ، معلنا افتتاح الحفل أو العشاء ، داعيا الجمهور الى الموائد ، متمنيا لهم الصحة والعافية ! .

صرفت النظر عن تلك الجملة التى كنت بالكاد قد

انتهيت من التدرب عليها ، واخذت مدام مرجريتا تعد جملة جديدة اكثر ارتباطا بالحدث الثقافى الذى تعنيه زيارة الفرقة ، وكان على ان انتهى فى اقل من ساعة ، من حفظ الجملة والتدرب على نطقها ، قبل أن يبدا الحفل .

فى ذلك اليوم اقامت وزارة الثقافة شبه استقبال صغير فى احدى قاعات الاستقبال بالمسرح الذى نعمل فيه ، فى خلال الاستراحة بين الفصلين . وقد حضر هذا الحفل عددا من الوزراء وكبار المسئولين .. واذكر أن وزير البترول كان يقف مع مدام مرجريتا عندما تم التعارف بيننا .. واخذ الوزير يشيد بمستوى الفرقة ، ثم بنطقى للجملة الرومانسية التى القيتها ، ويبدى ــ فى مجاملة تقليدية تعودت عليها ــ تساؤله عما اذا كنت أتحدث الرومانية .. تدخلت مدام مرجريتا ــ بمكرها المستحب ــ لتقول له اننى اجيد جملة أخرى اجادة تامة ، وطلبت منى أن القيها على مسامع الوزير .. الجملة الخاصة بجرسونات الملاهى . اخذت أحاول تغيير دفة الحديث ، بالكلام عن زياراتى السابقة لرومانيا ، ومدام مرجريتا لا تتوقف عن مشاغباتها ، والوزير ينقل نظره بينى وبينها فى محاولة لفهم الموقف .. فانتهى الامر بأن قصت مرجريتا القصة بأكملها ، وغرق الوزير فى الضحك ، وحمدت الله على ماتم ، فقد تصورت نفسى اقف على خشبة المسرح ، أمام آلاف المتفرجين لالقى فى حماس تحية الجرسونات تلك .. وعاصفة من الضحك ترددها هذه الالاف !!.

ولعل اغرب مطب وقعت فيه كان فى رحلة اخرى الى

قطر عربى لا يحتاج الامر فيه الى تدريب خاص على النطق ..

كان ذلك فى بغداد ، وكانت الفرقة تزور العـــراق بدعوة من الجيش العراقى ، بمناسبة عيد الجيش ... وكنا نقدم عروضنا فى « قاعة الخلد » أفخم المســـارح العراقية على الاطلاق ، وكان يعتبر بمثابة المسرح الملكى الخاص أيام الملك فيصل ، وقد بناه بالقرب من قصره فى أطراف بغداد .

كنت قد أعددت كلمة افتتح بها الحفل ، وعنــدما عرضتها على المسئول الذى كان بمثابة ضابط الاتصـــال بيننا وبين الحكومة العراقية ، قال أن التحية يجب أن تتضمن اسم نائب رئيس الجمهورية وممثله فى هذا الحفل .. وكان وقتها حردان التكريتى ، الذى اقيل بعــد ذلك ، ثم اغتيل فى الكويت على ما أذكر .. لم تــكن المشكلة فى اضافة الاسم ، بل فى اضافة الالقاب المتصــلة بالاسم .. ثم تحفظ آخر ، رجاء الا تذكر كلمة تكريتى هذه ، لانها تثير بعض الحساسيات ، باعتبار أن أقطاب النظام الحاكم وقتها كانوا كلهم تكريتية .. من تكريت ، وأن الافضل الاقتصار على ذكر حردان عبد الغفار . وبدأت أضيف الاسم فى نهاية كلمتى ، واسجل الالقاب المديدة ، تمهيدا لحفظها ، اذ اننى لم أكن أميل الى تلاوة التحية من ورقة امام الجمهور .. وأخذ ضابط الاتصال يملينى ، السيد الفريق الركن طيار ، عضو مجلس قيادة الثورة ، ونائب الرئيس ، والقائد الاعلى للقوات المسلحة ، ووزير الحربية و و و .. قائمة طويلة لا أذكرها الآن ، أربكتنى فى ذلك الوقت ، فأخذت فى الدقائق الباقية على رفــع

الستار ، احاول حفظها بالترتيب الذى وضعه المسئول المرافق .

المهم انه ما ان وقفت على خشبة المسرح وانتهيت من القاء كلمتى ، ووصلت الى كلمة الترحيب بممثل الرئيس العراقى ، ووقع نظرى على المرحوم حردان التكريتى ، ببدلته العسكرية والنياشين والشارات التى تتراكم على صدره وكتفيه .. حتى طارت من رأسى كل الالقاب التى حاولت حفظها .. ووجدتنى اقول « وارحب بالعقيد الركن تحران عبد الغفار !! » .. الفريق تواضعت عدة رتب فأصبحت العقيد .. وحردان تحورت فصارت تحران .. وتوقعت ازمة .. وأزمات العراق فى حدود علمى حمراء !! .

تركزت أنظار الصالة على حردان التكريتى فى فضول لمعرفة وقع هذا المطب .. فانطلق يصفق ضاحكا ، واستجابت الصالة لموقفه .. ومرت الازمة بسلام

الامبرازاريو ، دكتور عبدالعظيم انيس .

سبعون عرضا على مدى خمسة اشهر ونصف ، حضرها مايزيد على ١٢١ الفا من المتفرجين ، من بينها جميعا يقفز الى ذاكرتى العرض الذى قدمته الفرقة متبرعة فى يوم من أيام راحتها ، بمدينة ليبزج .

وصلنا اليها ، وما ان استقر بنا الحال فى فندق شتات ليبزج الضخم ، حتى تدفق على الفندق عدد كبير من الاساتذة والطلبة العرب يسألون عن موعد العرض ومكانه . وكان الدكتور عبد العظيم انيس من بين

المستفسرين . قلت له ، لاسف لم توضع ليبزج ضمن خطة عروضنا ، بل حضرنا فقط للاقامة بها ، وحتى نقدم عروضنا فى مدينة بوهلن التى تبعد ١٧ كيلومترا عـــن ليبزح .. أثار هذا غضب الجميع ، فتوجهوا الى المرافق الالمانى يسألونه عن سر هذا التصرف الغريب .. كيف تقدم الفرقة عروضها فى ثلاث عشرة مدينة المانية ، ولا يكون من بينها مدينة ليبزج ؟..

وأخذ المسئول الالمانى يشرح وجهة نظر وزارة الثقافة فى ضرورة توزيع الخدمة الثقافية توزيعا عادلا بين المناطق والمدن المختلفة ، وأن ليبزج قد حظيت فى ذلك الموسم بزيارة عدد من الفرق الاجنبية ، لذلك لم توضع المدينة فى خطة زيارة الفرقة .

وارضاء للاساتذة والطلبة العرب ، عرض المســـئول تدبير تذاكر فى عرضى مدينة بوهلين على أن ينتقلوا اليهـــا بسياراتهم او بالاتوبيسات العامة . وقد تم فى هـــــذه الحدود حضور عدد لا بأس به .. الا أن ثورة الجـــالية العربية الكبيرة بالمدينة بقيت كما هى . وفى اليوم التالى اتصل بى الدكتور عبد العظيم انيس ، ليقول أن لجنـــة الطلبة العرب قد قررت ضرورة تقديم حفل خاص يحضره كل العرب ، ويدعون اليه أساتذتهم وزملاءهم من الالمان ، قلت « كيف ؟ » .. قال « لا تقلق ، سندبر نحن كـــافة الاحتياجات ، فقط ارجو أن تستشير الفرقة فى الموضوع لتعرف مدى استعداد الاعضاء لتقديم حفل اضافى فى يوم الراحة » .

أثناء تناول الغذاء ، طرحت الفكرة على اعضاء الفرقة ، فرحبوا بها ، وتحمسوا لها اشد التحمس ، بل وابدوا

استعدادهم لتقديم أكثر من حفلة .. وكان الدكتور عبد العظيم على مائدتى ، فتأثر كثيرا بهذه الروح ، وتضاعف حماسه لتحقيق الفكرة .

انتهى دور الحماس وحل دور التنفيذ .. على اى مسرح يتم العرض ؟ .. جميع المسارح مشغولة ببرامجها التى تلتزمها التزاما تاما على مدى العام .. على الفور تشكلت لجنة برئاسة الدكتور عبد العظيم انيس ومعه مجموعة من الدارسين العرب ، للاتصال بادارة الجامعة ، وبحث امكانية تقديم الحفل فى احد مبانيها .. واسفرت الاتصالات عن اختيار الصالة الواسعة التى تستخدم كمطعم عام للطلبة .. وافقت ادارة الجامعة ، وبدات المساومات مع ادارة المطعم على تغيير موعد وجبة العشاء ، وتقديمه مبكرا بحيث نستطيع تسلم المطعم فى السادسة والنصف مساء ، بحيث نحوله الى مسرح قبل بداية العرض فى السابعة والنصف .

تم نقل الآلات والازياء ظهرا الى حجرة خاصة بالمطعم ، وعندما ذهبت مع الفنيين بالفرقة فى السادسة والنصف لاعداد مكان العرض ... كان المطعم مطعما ! مازال بعض الطلبة يتناولون عشاءهم المبكر ، ومازالت الموائد موزعة فى فراغ المطعم ، عليها بقايا طعام واطباق لم ترفع بعد .. وأعضاء اللجنة ينتحون جانبا من المطعم ، يتطلعون بصبر نافذ الى الطلبة الذين مازالوا يتناولون طعامهم ، فى انتظار اللحظة الحاسمة ، التى يبدأ فيها تحويل المطعم الى مسرح .

وما أن حلت هذه اللحظة ، حتى تحول المكان الى خلية نحل نشيطة ، الموائد ترفع ، المقاعد تصف ، الاحبال تمد

بعرض المسرح لتركب عليها الستائر ، حجرات مؤقتة لخلع الملابس من ملايات المدينة الجامعية .

وفى السابعة والنصف فتحت ابواب المطعم للجمهور من الالمان والعرب ، وتتابعت الفقرات وسط حماس جنونى ، يعود بعضه لنا ، ويعود اغلبه الى فرحة الطلبة العرب بنجاحهم فى تحقيق هذه الفكرة ، وتغلبهم على كافة العقبات .

الطريقة الشعبانية فى القيادة الموسيقية

اذا كانت مشاكل العرض المسرحى قد واجهتنا ابتداء من عرضنا الاول فى أنقرة .. فقد تعلمنا منذ ذلك الحين كيف نطور عروضنا بحيث تتفق دائما مع ظروف العمل الجديدة . ولعل قدرتنا على التصرف بلغت ذروتها فى حفل مطعم الجامعة بليبزج ، حيث استطعنا تقديم مجموعة من الرقصات والاغانى الشعبية فى ظروف صعبة لم نكن نتصور أننا سنواجه بمثلها فى رحلتنا لاوروبا . ولعل أصغر المسارح التى عملنا عليها كان فى مدينة « تلبوخين » ببلغاريا والتى تبعد عن مدينة فارنا السياحية بحوالى ٦٠ كيلومترا . ما أن وصلنا الى مبنى المسرح حتى فوجئنا بخشبة المسرح التى لا تزيد فى ابعادها عن حجرة عادية .. ما أن تدفق اليها ثلث أعضاء الفرقة بدافع الفضول حتى غصت بهم ولم يبق موضع لقدم .

ويبدو أن السيد يوردان كبير المرافقين لم يكن قد زار هذا المسرح من قبل ، فقد كانت خشبته الصغيرة مفاجأة للسيد يوردان بمثل ما كانت لنا .. فظهرت عليه

معالم الارتباك ، واختلى بى ليستتشيرنى فى الغاء الحفل ، رغم أن التذاكر كانت قد بيعت ، متحملا هو مسئولية هذا التصرف ، حتى لا يضعنا فى موضع الحرج . طلبت منه مهلة لدراسة الوضع ، وخلوت الى سامى يونس مدرب الفرقة ، واتفقنا على برنامج خاص يتضمن بعض الرقصات ذات الاعداد القليلة مع ضرورة اجراء بعض التدريبات العاجلة لضبط حركة الرقصات وتضييقها وفقا للظروف الخاصة جدا التى سنعمل فى اطارها .. مع الاستعاضة عن الرقصات الناقصة ، بفواصل من الموسيقى والاغانى الشعبية .. وقد نجح الحفل رغم هذه الظروف .. واحتفل بنا مجلس المدينة احتفالا صاخبا عقب انتهاء العرض .

وكانت مشكلة الفرقة الموسيقية ، ومكان جلوسها ، تواجهنا فى اكثر من مسرح .. ويبدو أن بعض الدول كانت تتصور أن فرقة الرقص الشعبى ، تعمل كما هى العادة عندهم ، مع فرقة موسيقية محدودة ، لا يزيد عدد أفرادها عن ثمانية عازفين .. وفى الغالب يدبر لهم مكانا خاصا على جانب خشبة المسرح .. لذا كانت فرقتنا بعازفيها الذين وصل عددهم بعد الضغط الشديد الى ٢٥ عازفا ، مفاجأة متكررة للمسئولين فى كثير من البلدان .

ففى صوفيا ، قدمنا حفلتنا الاولى فى صالة للموسيقى السيمفونية .. مثل صالة سيد درويش عندنا .. وواجهتنا الكثير من الصعوبات فى تعديل تشكيلات الرقصات لتتفق مع الحيز الشديد الاستطالة القليل العمق الذى كان مخصصا للرقص .. ويبدو ان هذا

الحيز يخصص عادة لفرقة الكورال فى بعض العــروض السيمفونية . واضطررنا الى وضع الفرقة الموسيقية على مسطح مرتفع خلف هذا الحيز ، فبدت كخلفية دائمــة للعرض الراقص .. وقد شعر المسئولون بغرابة هــذا الوضع ، فنقلوا العرض فى اليوم التالى الى دار الاوبرا ، باستعداداتها المسرحية الكاملة . وفى نهاية العرض جاء السيد بوبوردينوف احد كبار المسئولين بوزارة الثقافة ، يهنىء بالنجاح ، ويعتذر عن ظروف العرض الســابق ، ويقول مبتسما « ظلمناكم ! » .

بل اضطررنا فى بعض الاحيان الى توزيع الفرقــة الموسيقية الى مجموعتين على جانبى مقدمة المســرح .. الآلات الوترية فى جانب ، وآلات النفخ والايقاع فى جانب آخر ، وبقى على المايسترو شعبان أبو السعد ، أن يبتكر وسيلة التفاهم التى تسمح له بقيادة الفرقة الموسيقية بهذا التقسيم المبتكر .. وكانت محاولاته لقيادة الفــرقة مرة ملتفتا الى هذا الجانب ومرة الى الجانب الاخر ، وبين هذا وذاك متابعا الحركة على المسرح ، كانت هذه المحاولات مصدرا للعديد من القفشات التى كان من بينها مطالبتــه الاسراع بتسجيل هذه الطريقة الشعبانية فى القيــادة الموسيقية ، التى تفوقت على قيادة أحمد فؤاد حســن للفرقة وهو يعطيها ظهره !!

آخر شكوى فى تيرانا :

واذا كانت الفرقة القومية للفنون الشــعبية قــد استطاعت أن تواصل عملها على مدى خمسة اشــهر

ونصف ، بعدد الاعضاء المضغوط ، وفى ظروف التنقل والسفر المستمر ، وبرغم درجة الحرارة التى لم يسبق لاعضاء الفرقة تحملها ، والتى كانت تصل فى كثير من الاحيان الى ٢٥ درجة تحت الصفر ، وفى مواجهة حالات المرض الخفيفة والشديدة والعمليات الجراحية .. أقول اذا كانت الفرقة قد استطاعت أن تؤدى عملها على خير وجه رغم كل هذه الظروف ، فمرجع هذا بلاشك الى نظام البطولة الجماعية الذى تلتزمه اشد الالتزام ، والذى يميزها عن غيرها من الفرق المسرحية والشعبية والاستعراضية ، والذى يعتبر تقليدا راسخا من تقاليد الفرقة منذ بداية تكوينها .

لقد نشأت الفرقة ونمت وتطورت ، وعقيدة اساسية لا تغيب عن وجدان افرادها ، ان الفرقة أكبر من مجموع اعضائها .. وان العمل يجب ان يسير دائما على أكمل وجه ، مهما كانت أهمية الذين يتخلفون عن العرض ، او حتى ينهون عملهم بالفرقة .. لا يوجد فرد واحد ، مهما كانت درجة تفوقه ، لا يمكن للفرقة أن تستغنى عنه ، وتمضى فى عروضها دون أن يهتز مستوى هذه العروض .

وقد استتبع هذا الفهم ، ضرورة وضع نظام دقيق للبدائل ، أو مايسمى عادة « الدوبلير » . كل راقص أو راقصة له بديل جاهز يمكن أن يحل محله فى لحظة ، ويؤدى عمله على اكمل وجه .. سواء فى الرقصات الفردية أو الجماعية . شق رئيسى من تدريبات الفرقة ينصرف الى تحقيق كفاءة عالية لهذا النظام .. تدريبات مستمرة تسمح للفرد الواحد أن يشارك فى الرقصة

الواحدة ، فى أكثر من موقع .. الرقصة التى يؤديها ١٢ راقصا ، يتدرب عليها ٣٦ راقصا . والفرقة تتبع فى عروضها نظاما خاصا يستهدف تدريب الجميـــع على مواجهة الجمهور ، فى جميع المواقع التى تدربوا عليها .. فالامر لا يقتصر على التدريبات ، بل يقضى بمواجهـــة الجمهور بطريقة دورية ، بحيث لا يسبب تغيب عشرة راقصين وراقصات مثلا ، وأيا كانت مواقعهم ، تعثرا فى مستوى العرض . بل يمكن مواجهة الظروف الطـارئة ، باستبدال راقص بغيره فى لحظات ، دون أن يشـــعر الجمهور بأدنى اختلال فى سياق العرض .

وإلى هذا النظام ، نظام البدائل « الدوبلير » ، يعــود الشق الاكبر من الحماس للعمل الذى يتصف به أعضـــاء الفرقة فى العروض الداخلية والخارجية .. هذا الطريق المفتوح امام كل راقص وراقصة ، لكى يتفوق على غيره وعلى نفسه ، خلق جوا صحيا من التنافس والحــرص على التجويد ، والرغبة فى الحصول على فرص أوســع للعمل والاشتراك فى عدد أكبر من الرقصات .. لقـــد كانت المشكلة الحقيقية طوال هذه الرحلة ، هى ارضــاء الجميع بالسماح لهم بمزيد من العمل .. المشكلة دائما ، فلانة دخلت اليوم فى خمس رقصات ، ولم أدخل سوى فى ثلاث فقط .. فلان ادى الدور الفردى « السولو » فى الرقصة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، ولم أكلف بدور فردى طوال هذه الايام الثلاثة .. وهكذا .

قد نتصور ان هذا الحماس لابد ان يفتر على مــدى شهور الرحلة ، الا اننى مازلت اذكر أن مشكلة العمــل الاخيرة ، كانت بسبب استياء أحد الراقصين من حرمانه

من الاشتراك فى العرض الاخير بمدينة تيرانا . وكان قد حرم من الاشتراك فى العمل لمدة ثلاثة عروض ، نتيجة لخطأ ارتكبه قبل هذا .. وقد يبدو غريبا أن يكون الحرمان من العمل احد اشكال العقوبات الفعالة التى كنت أسعى بها الى اقرار النظام فى سير العمل بالفرقة أثناء الرحلة .. الا ان هذا العقاب كان فى كثير من الاحيان أشد ايلاما للعضو من الخصم المالى .. لقد تضمنت الشكوى الاخيرة فى رحلتنا ، اعتراف الراقص بخطئه السابق ، وبعدالة الجزاء ، وطمعه فى العفو برفع عقوبة اليوم الثالث حتى يمكنه ان يشارك فى العرض الاخير للفرقة فى رحلتها .

كلمات عن موسكو .. والاعتذار فى الاقصر .

وكانت عقوبة الحرمان من الاشتراك فى العروض تصل الى قمة تأثيرها فى عروض العواصم الهامة . أذكر أن راقصة قد أخلت بنظام العمل فى أحد العروض ، فوقعنا عليها عقوبة الحرمان من العرض التالى ، وكان العرض التالى فى مدينة موسكو .. وقد اختارت لنا وزارة الثقافة السوفييتية مسرح قصر الكريملين لنقدم عليه برامجنا .. وما أن وصلنا الى المسرح لنجرى التدريبات ورأت الفتاة صالة المسرح الضخمة بطوابقها الثلاثة ، ومقاعدها التى تبلغ ستة آلاف مقعد ، حتى جن جنونها، وبذلت جهدا متصلا فى الرجاء والاعتذار والتعهد بعدم التهاون فى نظام العمل مستقبلا ، بل واستعدادها لقبول اى عقاب آخر غير عقاب الحرمان من العرض

ومسرح قصر الكريملين يقع داخل أســـوار قصـــر الكريملين ، ولا يسمح للسيارات بالدخول حتى بـــاب المسرح ، بل تقف عند أبواب السور ، ويبقى على الجمهور ان يقطع أكثر من مائتى متر على الاقدام حتى مدخـــل المسرح .. ولقد شهدت منظر انصراف الجمهور بالآلاف من حفلتنا الاولى ، وموكبه الضخم من باب المسرح حتى أسوار الكريملين .. تمتد فوقه مظلة هائلة صنعها تكدس المظلات التى رفعها كل واحد لحمايته من الجليد الهابط بفزارة من السماء .

ومبنى مسرح قصر الكريملين يتكون من خمسة طوابق ـ على ما اذكر ـ وتضم طوابقه أكثر من مسرح ، وبه ثمانية مطاعم كبيرة .. والطابق الثالث عبارة عن حديقـة كاملة تتوسطها نافورة . هذا من ناحية المبنى .. الا أن الاعجاز الحقيقى يتجلى فى المسرح الكبير الذى عملنـــا عليه ، بامكانياته الاوتوماتيكية المتفوقة ، وبالخـــدمات المسرحية المتعددة التى يقدمها . الاجهزة الصوتيةالحديثة بامكانياتها الواسعة ، وسائل الاضاءة المختلفة ، وطريقـــة ضبطها آليا بحيث تسير الاضاءة خطوة بخطوة مع فقرات العرض ، دون احتمال خطأ واحد ، أو تخلف بســـيط عن التوقيت الدقيق لكل تغيير فى الاضاءة . الســـــتائر الضخمة المتعددة الالوان والاشكال ، والتى تتحـــرك من جانب لآخر ومن أعلى لاسفل فى نظام آلى دقيق .. هذا بالاضافة الى الخدمات الجانبية الفريدة التى يتيحها هذا المسرح .. حجرات خلع الملابس والماكياج بأثاثهـــا الجميل والمريح .. اجهزة التليفزيون المنتشرة فى كل مكان ، فى حجرات الملابس والاستراحات والطرقات والبوفيهـــات

ومدخل الجمهور ، كلها تعرض ما يجرى على المسرح ، بحيث يستطيع كل واحد من المشتركين فى العرض ان يكون مستعدا فى الكواليس عند اللحظة المناسبة .. وأخيرا ، وبعد كل هذا ، النظافة الكاملة التى تفرض نفسها على كل شىء .

كان من المقرر منذ بداية الرحلة أن نكتفى بعرضين على مسرح الكريملين ، فسعة المسرح ستة آلاف مقعـــد ، والمقاعد كلها مشغولة ، ومعنى هذا ١٢ ألف متفرج على مدى يومين . اقول هذا لاننا صدمنا جميعا بقصاصة من جريدة « الجمهورية » ، وصلتنا بعد أكثر من شهر مـن تاريخ عرضنا هذا ، بها مقال او خواطر كتبها الاســتاذ محمد عودة عن عرضنا هذا .. وكان قد حضــر عــرض الكريملين مع عدد من المصريين الموجودين فى موسكو فى ذلك الحين .

ماذا يقول عوده ؟ .. يقول « لا أحد يستطيع أن يقول ان الفرقة قد فشلت ، ولكننا لا نستطيع ان نقــول ان الفرقة قد نجحت » ، ثم يقول « وبعد حفلتين على مسرح الكريملين ، تأجلت الحفلة الثالثة ، وسافرت الفرقة الى مدن الدرجة الثانية فى الشمال ، ومنها الى بولنده » .

كلام غريب اثار ثائرة الجميع .. خاصة واننا تسلمنا هذه القصاصة فى الثلث الاخير من الرحلة ، وكنـــا فى المجر .. وعروضنا تلقى حماسا خرافيا على مســـارح بودابست ، واذكر أن كمال نعيم مصمم الرقصات بالفرقة اصر على أن يأخذ معه الى المسرح جهاز التسجيل الصغير الخاص به ، ليسجل عاصفة التصفيق التى تعقب تقـديم البرنامج ، وعند عودتنا بالاتوبيس الى الفندق فى نهاية

الغرض ، اخذ يسمعنا التسجيل ، ناظرا الى ساعتـه ، ليقول أن عاصفة التصفيق دامت لاكثر من ست دقائق ، قوية صاخبة .. وجمهور بودابست جمهور ذواق ، يتاح له أن يشهد أعظم فرق الرقص الشعبى العالمية ، بمـا فى ذلك الفرقة القومية المجرية .

ثم ماهذا الكلام عن الغاء حفلة ثالثة ، والسفر الى مدن الدرجة الثانية بالشمال ؟ .. لقد تحدد برنامج عملنـا منذ يوم وصولنا الى موسكو .. بل لقـد أخطـرنا بتفاصيل البرنامج ونحن فى رومانيا قبل وصـولنا الى الاتحاد السوفييتى ، ونشرته الجرائد المصرية ، وجريدة « الجمهورية » بالذات التى كتب فيها الاستاذ عـوده كلمته .. ظهر هذا البرنامج كاملا فى عدد ١٨ نوفمبر ٦٨ ، وكنا فى ذلك الحين لم نبدأ عروضنا فى موسكو التى تمت فى يومى ٢١ ، و٢٢ نوفمبر !!.

وقد تضمن هذا البرنامج تقديم ثلاث حفلاتفى لينينجراد ثم حفلتى موسكو ، وبعدها حفلتان فى ريجـا عاصـمة جمهورية لاتفيا على بحر البلطيق .. بحيث نأخذ طريقنـا بعد ذلك الى جديانسك فى بولندا التى تقع على بحـر البلطيق أيضا .

لقد أساءت كلمات عوده الى جميع أعضـاء الفرقة ، وأثارت سخطهم وغضبهم .. الا يكفى أن الصـحافة المصرية لم تكن تتابع نشاط الفرقة بما يوازى الصـدى الذى كانت تثيره زيارتها لعشرات المدن الاوربية ؟.. الا يكفى أن أحدا لا يدرى بالجهد البدنى والعصـبى الذى يبذله اعضاؤها فى رحلتهم .. بينما يتصور الـكثيرون بمصر اننا فى « فسحة » الى أوروبا ؟ ... ثم يجىء الذين

« يتفسحون » فعلا ، ليقولوا ان حفلة ثالثة قد الغيت ، وأن برنامجنا قد تغير ، وأن الفرقة قد اطيح بها الى مدن الدرجة الثانية .

ومن أين أتى الاستاذ عوده بهذا التقييم لحفـــلات موسكو .. ومن أين له أن يعقد المقارنات بين عروضـــها والعروض التى قدمتها الفـــرق الاخـــرى على مسرح الكريملين ؟ ... اليست شهادة الدكتور مراد غـــالب سفيرنا فى موسكو فى ذلك الحين أحق بالتصديق ؟ ... ولن نقول شهادة المسئولين السوفييت التى تحتمـــل المجاملة ..

لقد تسببت كلمات الاستاذ عودة فى جرح عميق بقلب كل عضو بالفرقة ، لم يكتب له أن يندمل الا بعد حوالى سنة كاملة ، عندما كانت الفرقة تقدم عروضها بمدينـــة الاقصر فى مهرجانها السياحى السنوى .. وكان الاستاذ عودة من بين المدعوين الى هذا المهرجان . قلت له « رغم اننى لا افهم حتى الآن السر الحقيقى فى كلمـــاتك التى كتبتها عن رحلتنا الى أوروبا ، الا أننى أنقل اليك رغبة الفرقة فى مواجهتك لتشرح لهم قصة هذه الكلمات . كانت الفرقة مجتمعة حول مائدة العشاء ، عندما دخلت اليهم مع عوده .. عرفتهم به ، فاندلعت بينهم ثورة احتجاج .. وبصعوبة استطعت ان اخمد ثورتهم .. وجاء اعتذار عوده عما كتبه ، والتصفيق الحاد من أعضاء الفرقة ، كنهاية لهذه القصة .

مقارنات غير عادلة .

وأنا لا أريد بهذا الدفاع أن أدعى مـــكانة للفـــرقة لا تستحقها ، فقد كنت أكثر من غيرى ادراكا للنـــواقص

التى تعترى الفرقة ، من حيث تشكيلها ونظام عملهـــا ومستوى انتاجها .. الا أن الدوافع النفسية الخفية التى لا اعرفها ، والتى أملت كلمات الاستاذ عوده ، لا يمـكن ان تتخذ اداة لتقييم مدى استجابة الجماهير لعـــروض الفرقة فى رحلتها .

ولعل مرجع النجاح الذى لاقته الفرقة الى انها فرقة للرقص الشعبى بالتحديد ، وفرق الرقص الشعبى ، أيا كان مدى تطورها مسرحيا ، تبقى لها دائما فرصة النجاح واستجابة الجمهور الاجنبى ، بما تنقله من مذاق خاص لشعبنا فى الرقص او الازياء أو الموسيقى .. الجمهـور هنا ، لا يجىء ليعقد المقارنات بين مستوى الفـــرقة القومية المصرية ، وفرقة موسييف السوفييتية مثلا .. انه يقبل الى المسرح مستهدفا التعرف على خصائص الفن الشعبى للدولة التى تنتسب اليها هذه الفرقة الزائرة .. وعلى قدر صدق الفرقة فى تصوير فنون شعبها ، يكون مدى نجاحها ، واقبال الجمهور عليها . من هنـــا كانت أهمية الاستفادة من نشاط الفرقة الشعبية فى تحقيـق تواجدنا العالمى ثقافيا وحضاريا .. نحن لا نســتطيع أن نوفد فرقة للباليه أو الموسيقى السيمفونية ، فمعنى هذا أن ندخل فى منافسة مع المستوى العـــالمى الذى تحقق فى هذين المجالين ، وستكون المقارنة والمقابلة هنا فى غير صالحنا .. وهنا أيضا تكون المجاملة الخالصـــة ، هى دافع الاستقبال الحماسى الذى قد تلقاه هذه الفرق .

لقد استطاعت الفرقة القومية للفنون الشعبية أن تنقل الى شعوب الدول التى زارتها ، صورة مشرفة عن فنوننا الشعبية ، بمذاقها الخاص وطبيعتها المتميزة .. وهنــا

يكمن السر الحقيقى فى عواصف التصفيق ، وكلمات الاعجاب والتقريظ التى زخرت بها الجرائد والمجلات ومحطات الاذاعة والتليفزيون .. ولدى الفرقة حتى الآن اكوام من قصاصات الجرائد ، التى تعكس بما فيها من تقييم موضوعى ، رأى المختصين والنقاد فى مستوى الفرقة بالقياس الى غيرها من الفرق الزائرة .

وتقييمنا نحن لمستوى الفرقة يجب أن يتجاوز مستوى التقييم العام الذى يجريه الناقد الاجنبى ، فنحن أكثر من غيرنا ادراكا لظروف تكوين الفرق الشعبية ، والصعوبات التى يوجهها العمل اليومى بها .. ان المقارنة التى تعقد بين فرقتنا وفرقة عالمية أخرى كفرقة موسييف السوفييتية ، يجب أن تدخل فيها عدة اعتبارات خاصة .

اهمها حداثة اهتمامنا بالفنون الشعبية ، ووجود هوة عميقة امتدت لآلاف السنين بين فن السادة أو الفن الرسمى ، وبين فنون الشعب .. وجهودنا فى جمع وتسجيل وتصنيف التراث الشعبى ، ثم تطويره مسرحيا تعود الى زمن قريب لا يتجاوز خمسة عشر عاما . هذا فى الوقت الذى يمتد فيه عمر هذه المحاولات فى دول أوروبا الشرقية الى عشرات السنين .

كما أن الرقص الشعبى بصورته الاصلية ، ما زال يمارس حتى يومنا هذا ، بصفة منتظمة ، فى دول أوروبا الشرقية .. ما أن يجتمع النساء والرجال فى مناسبة ما، حتى تبرى من بينهم جماعة تروح تعبر عن فرحتها برقصات شعبية نشيطة .. فالتراث الشعبى مازال حيا بين الناس ، يسهل تسجيله وتطويره . هذا بالاضافة الى

ثراء هذه البلاد بالتراث الشعبى المتصـــل بالرقص اذا قيست بما لدينا .

وفرقة كفرقة موسييف مثلا ، عندما ترغب فى تدعيم أفرادها من الراقصين تجد تحت يدها ، آلاف الراقصين والراقصات فى الفرق الشعبية المحترفة الاخرى أو فى فرق الهواة فى كل حى وقرية ومصنع ومزرعة ... أمـا عندنا وحتى بعد أن تضاعف الوعى بجدية هذا النشاط ، نشاط الرقص الشعبى ، نفشل فى العثور على عدد قليل من الراقصات والراقصين لفرق الرقص الشــعبى ... ولعل هذا هو ما الجأنى الى انشاء مركز تدريب للرقص الشعبى ، ملحق بالفرقة ، يتولى على مدى أكثر من ثلاث سنوات تدريب الاطفال فى سن الحادية عشرة أو الثانيــة عشرة على الرقص الشعبى ، حتى يمكن أن نختار منهم فى نهاية فترة التدريب العناصر الصالحة للانضـــمام للفرقة وهى لا تتجاوز فى اغلب الاحيان نصف العدد الذى بدأنا به التدريب .

وتسقط دعوى المقارنة بين مستوى فرقتنا وفرقـــة موسييف أو غيرها من الفرق الرومانية أو المجرية أو البولندية ، اذا ماسبقتها ، مقارنة أخرى حول الظـروف والامكانيات ، ومدى الخدمات المادية والصـحية .. ثم الضمانات التى يحظى بها الراقص ، ومدى اطمئنانه على مستقبله ، بعد أن ينتهى عمر عمله على خشبة المسرح .. وهو عمر محدود فى فرق الرقص الشعبى .

الاكل الميكانيكى .. والجرامات الزائدة .

اكثر من سبعين عرضا قدمتها الفرقة فى رحلتها .. فاذا عرفنا ان كل عرض يحتاج فى أغلب الاحيـــان الى

تدريبات خاصة على خشبة المسرح التى سيؤدى عليها العرض ، وفى اليوم السابق للعرض غالبا ، ادركنا ان أيام العمل بلغت فى المتوسط ١٢٠ يوما .. فاذا عرفنا أن رحلاتنا بالقطارات والاتوبيسات استغرقت ٤٦٩ ساعة ، اى حوالى ٢٠ يوما .. وجدنا ان مجموع ايام العمل والسفر يكون قريبا من عدد أيام الرحلة ذاتها .. ومعنى هذا ان أيام الرحلة مع امتدادها ، قد استغرقتها التدريبات والعروض والسفر من مدينة الى اخرى ..

رغم هذا فقد كان قلقى شديدا على مستوى لياقة اعضاء الفرقة البدنية ، هذه اللياقة التى تتحقق عادة للراقصين والراقصات بفضل التدريبات اليومية التى تسمى تدريبات « البار » ، بما فيها من تدريبات كلاسيكية وشعبية .. هذه التدريبات تستمر عادة لما يزيد عن ساعة ونصف يوميا ، ويتم تتابعها بحيث تستوعب تدريبا كافيا على كافة اللياقات المطلوبة فى الراقص . لم يكن وقتنا يسمح فى اغلب الاحيان باجراء هذه التدريبات ، فكثيرا ماكنا نفضل استغلال الوقت المتاح على المسرح فى التدريب على الرقصات ، وضبطها على مقاييس المسرح الذى سنعمل عليه ، وتحديد مواقع الدخول والخروج فى كل رقصة . والوقت المتاح فى المسارح كان دائما محدودا للغاية ، فكل مسرح له برنامج عمل كامل على مدى اليوم لا يتيح لنا سوى وقت قصير .. قد يكون فى مطلع النهار ، أو فى الظهيرة .. أو بعد انتهاء العرض الذى يقدم على المسرح ، وهذا يعنى أن نبدأ تدريباتنا بعد منتصف الليل .

لقد كان حرصى على اجراء التدريبات اليومية شديدا

وكلما وجدت الى ذلك سبيلا ، حتى أواجه زيادة الوزن التى بدأت تظهر على الاعضاء ، برغم عناء السفر والعمل .. وربما بسبب انتظام تناول وجبات الطعام الكاملة . لقد لاحظت هذه الزيادة فى الوزن على نفسى أولا .. فرغم أن الجهد الذى كنت أبذله فى الرحلة يفوق ضعف الجهد الذى أبذله عادة فى مصر ، الا أن وزنى أخذ يتزايد بشكل ملموس ، وقد اكتشفت بعد بعض الوقت أن مرجع هذا الى الطريقة الميكانيكية التى أتناول بها طعامى وسط الفرقة . لقد اكتشفت بعد عدة أسابيع من بداية الرحلة ، اننى أصبحت آكل مايقدم الى أيا كانت كميته ، وأيا كان نوعه .. نوع من الامتثال للنظام العام .. وبحكم الوجود فى جماعة . الوجبة دائما وجبة كاملة ، طبق يرفع وطبق يوضع ، وأنا جالس فى مكانى أبتلع مايقدم لى فى استسلام تام . وجبة العشاء التى كثيرا ما اكتفى فيها بسندوتش صغير ، أصبحت وليمة كاملة تزيد عن وليمة الغذاء بطبق الحساء ! . الافطار الذى كنت استغنى عنه فى مصر ، أو اكتفى فيه بعدد محدود من اللقيمات ، أصبح هو أيضا وجبة كاملة ، أتناولها مرغما لمواجهة الطقس الشديد البرودة .

ان الشهور المتوالية من الطقس البارد الذى يتراوح بين ٥ فوق الصفر ، و ٢٥ تحت الصفر ، كان يرغمنا جميعا على التزود بكل مايقدم الينا من طعام .. الا أن الجهد المبذول لم يكن يستوعب كل هذه الطاقة من السعرات ، فيتحول الفائض الى جرامات جديدة تضاف الى وزننا . ولقد اتفقنا فى النهاية على ضرورة اجراء بعض التدريبات

الرياضية كل صباح ، ونصحنا الراقصات والراقصين باجراء هذه التدريبات فى حجراتهم بالفندق فى بداية اليوم .. وقد نجحت الخطة مع الذين التزموا بها ، وظهرت الجرامات الزائدة لتكشف « تزويغ » الذين لم يلتزموا بها .

مرافقون .. ومرافقات

مايك .. وكشرى جحا :

ما أن يجتمع مصريان فى بلد اجنبى ، حتى يبـــدآ التعليق على كل مايعرض لهما ، باللغة العربية ودون تحفظ .. فتنطلق منهما الاقوال الجارحة والالفاظ الخارجية فى الاماكن العامة ، اعتمادا على أن اللغة العربية لغـة غـير مفهومة فى ذلك البلد . كنت أدرك اغراء هذه المغامرة ، وكنت أعلم أنه فى حالتنا لا يجب أن نسمح بمثـل هذه المغامرات ، بصفتنا الرسمية من جهة ، ولان الدول المضيفة كثيرا ما توفر لنا مترجما أو مترجمة ممن يتكلمون العربية تسهيلا للتفاهم مع كافة أعضاء الفرقة .

وقبل أن نتحرك من القاهرة ، حرصت على أن الفت نظر الفرقة الى هذا الموضوع ، وشرحت الاســباب بالتفصيل .

وكالعادة ، لم يقدر لهذه النصيحة أن تدخـل دور الاقتناع ، قبل أن تتدعم بتجربة شخصية . كنا قد وصلنا بودابست بالقطار ، وعلى رصيف المحطة جرى استقبالنا رسميا ، ثم انصرف كل واحد الى حقائبه ، يتثبت من اكتمالها ، ويلاحظ نقلها ، ثم انطلقنا الى الاتوبيســات

وصعد فى كل أتوبيس أحد المرافقين المجريين . تحـــرك الموكب الى الفندق .. وبدات التعليقات ، كـــان الوقت ليلا ، والطريق من المحطة الى الفندق لا يعبر قلـــب المدينة التجارى ، واخذت عيون الاعضاء تتحـــرك ذات اليمين وذات اليسار ، بحثا عن واجهات المحال التجارية ... ويبدو أن اختفاء واجهات المحال المضيئة ببضائعها المرصوصة قد خيب أمل البعض ، فانطلقت التعليقات ، الى أن قال احد خبراء المشتروات ، « الظاهر يا جدعان ان البلد دى مقلب ، مافيهاش حاجة نشتريها . ! » . وبهدوء وقف المرافق المجرى مايك ، بعوده النحيـــل ، ليقول « ماتخافش يا أستاذ ، بكره ح أوريلك السوق ، وح تلاقى حاجات تعجبك ! » . مرت فترة صمت طويلة نتيجة للمفاجأة ، ثم تعالت الضحكات على المفـــــارقة الغريبة ، ذلك الخواجة الذى يتكلم المصرية القـــاهرية الدارجة بكل هذه المهارة .

وبقدر الحرج الذى احسوا به بسبب تعليق زميلهم ، كانت فرحتهم بهذا المترجم العجيب الذى يتكلم العامية « لبلب » .. والذى سيكون عونا حقيقيـــا لهـــم فى استفسارتهم التى لا تنتهى حول الســـــوق ومـــكانه واسعاره .. وكيفية الوصول الى ارخص الاسعار .

وقد عرفت فيما بعد أن مايك ، قضى فترة منحـــة دراسية بالقاهرة ، وأن الفضل فى اجادته للعامية القاهرية يرجع الى سكناه طوال فترة اقامته بالقاهـــرة .. فى بولاق ! .

ولقد كان مايك ، بلغته العامية القاهرية ، وروحـــه المرحة ، قريبا الى نفوس أعضاء الفرقة .. وكـــانت

تعليقاته الساخرة سببا فى رفع الكلفة بينه وبين أفراد الفرقة ، ماجدة تسأله عن مكان تشترى منه « حلة بريستو » ، فيقول مايك ساخرا « ايه الكلام ده ؟ ... عاوزة ترجعى لامك من أوروبا وفى ايدك حلة ؟!! » . ممدوح يميل على أذن زميل معلقا على جمال حسناء تدخل المطعم ، ومايك يدخل راسه بين راسيهما قائلا « خد بالك ، جوزها جاى وراها ! » .

وقد سألت مايك يوما عن سر سكناه فى بولاق ، قال كنت أسكن قبل هذا فى الزمالك ، ولكنى وجدت أن نفقات المعيشة هناك لا تتناسب مع مرتب المنحة ، هذا بالاضافة الى أن جمهور الزمالك اغلبه « خواجات ! » .. فانتقلت الى بولاق ، حيث ايجار الغرفة رخيص ، و « سندوتش البدنجان المقلى بسلطة القوطة » لا يكلف شيئا .. ولقد أحببت الناس فى بولاق ، وأحبونى ، واستفدت كثيرا من معيشتى بينهم .

وأسأل مايك .. هل أكلت الكشرى فى مصر ؟.

ويضحك مايك طويلا ثم يقول « أحكى لك .. » ... ويمضى مايك فى سرد قصته بالعامية « كنت فى شارع عماد الدين ، وحسيت انى جعان قوى ، لقيت محل مكتوب عليه كشرى جحا ، والناس داخلة خارجة منه .. وفى الفترينة ، ريقى جرى لما شفت جبال الرز والعدس متذوقة بالبصل المحمر .. قلت ، آكل من كشرى جحا ده .. دخلت المحل وطلبت طبق كبير .. وقدامى على الترابيزة لقيت قزازة فيها صلصة ، قعدت احط منها على الكشرى ، بصيت لقيت اتنين عمال مبيضين بيأكلوا على الترابيزة اللى قدامى ، عمالين يبصولى ، وواحد

قال للتانى « الخواجه ده عمال يحط دقة شطة .. وح يموت قبل مايخلص الطبق ! . » .. قال الـــكلام ده بصوت عالى ، وهو فاهم انى ما اعرفش عربى .. قلت فى نفسى ، أنا ح اكل الطبق كله ، ولما اخلص ؛ ح اقف وأقول له ، « ايه رايك الخواجة ما ماتش ! » ، وفعــلا قعدت آكل الكشرى .. وكان حاجة فظيعة .. بقيت آكل معلقة واشرب وراها كباية مية .. لغاية طبق الكشرى ماخلص ، ورحت واقف علشان أقول لهم الكلام اللى كنت محضره . بصيت لقيت لسانى وارم ومالى بقى كله .. وماقدرتش أنطق كلمة واحده .. ومشيت وانا ساكت من غير ماأقول لهم .. الخواجة ماماتش ! » .. ويصمت مايك قليــلا متذكرا وقائع التجربة التى مرت به .. ثم يتنهد قائلا « انما ايه ؟ .. تانى يوم كان حاجة صعبة خالص !! »

آدم .. والبحث عن رصيف :

كان عالم المرافقين والمرافقات بالنسبة لنـــا مصـــدر امتاع كبير ، بنوادرهم وتباين طباعهم ، واختلاف قدراتهم على الترجمة .. المرافق هو الشخص الوحيد الذى نحتك به احتكاكا متواصلا طوال جولتنا فى كل دولة ، يتسلمنا من الحدود ، ويصل بنا الى الحدود . كان فيهــم خفيف الظل الذى تستمتع بصحبته ، وكان فيهم « اللخمة » الذى يغرق فى شبر ماء .. كان فيهم « العشـــــرى » الاليف ، والمتحفظ الجامد الذى يؤدى واجبه بالـكاد ، ويختفى عن أنظارنا كلما أمكنه ذلك .

وأيا كان المرافق .. من أولئك أو هؤلاء ، فقــد كان

الشيء الوحيد المألوف لنا فى زيارتنا لكل دولة .. عنصر الالفة الوحيد وسط هذه الغربة المتواصلة . ورغم أنها كانت دائما ألفة مؤقتة لا تستمر لاكثر من أسبوعين ؛ الا انها كانت بالنسبة لنا شيئا كبيرا . كانت لحظات وداعهم ، لحظات صادقة ، حافلة بالتأثر العميق من الطرفين .

كنا ونحن فى طريقنا الى دولة جديدة ، نتذكر دائما ما مر علينا من مرافقين ومرافقات ، ونعقد المقارنات ، ونستحضر المواقف المتميزة والنوادر الطريفة .. ونروح نتنبأ بطبيعة المرافق الجديد الذى سيستقبلنا فى الدولة التى نصل اليها .. كان هذا يبعث فينا نفس الاثارة التى يشعر بها من يمد يده الى صندوق البخت ، أو الذى يمسك بكشف الارقام الرابحة فى اليانصيب ، باحثا عن رقم الورقة التى فى يده الاخرى !.

وعادة لم يكن الامر يقتصر على مرافق واحد او مرافقة واحدة ، بل كان هناك كبير مرافقين او كبيرة مرافقين ؛ ثم عدد من المرافقين والمرافقات ، بلغ فى كثير من الاحيان خمسة .. ولم يكن فى هذا مبالغة ما ، فعددنا الكبير ، والخدمات المطلوبة سواء للمعيشة أو العمل ، أو حتى للعلاج ، كانت تشغل أيام هؤلاء المرافقين بعمل متواصل لا ينتهى .

وكان من الخطأ ان نحكم على شعب من الشعوب من واقع اخلاق وطبيعة تصرفات من يصحبنا من المرافقين أو المرافقات .. فقد كان بينهم فى البلد الواحد من التناقض ما يؤكد خطأ التعميم واستحالته .

فى الاتحاد السوفييتى مثلا ، كانت هيئة المرافقين

تتكون من خمسة اشخاص ، أذكر منهم رئيس الهيئة العجوز العصبى الطيب القلب ، والذى وقف يسألنى ، على الحدود السوفيتية الرومانية بمدينة أونجين ، عن تذاكر السفر الخاصة بنا من الحدود وحتى موسكو ، وهل قمنا بحجزها ! فقلت له أن هذه هى مهمة ادارة « الجوسكونسيرت » التى تتولى استقبالنا ، وان الاتفاق كان ينص على نقلنا من الحدود الرومانية وحتى الحدود البولندية بعد انتهاء العمل . وأصر الرجل بعصبيته على ضرورة أن ندفع ثمن التذاكر ، فأخبرته أننا لا نملك ما ندفعه ، وكان ذلك حقيقيا ، فلم اكن قد أخذت من وزارة الثقافة عندنا مليما واحدا للانفاق على أى غرض طوال رحلتنا ، اعتمادا على أن كل دولة مسئولة عنا من حدود الدولة السابقة وحتى حدود الدولة التالية .

اخذت الدقائق تمضى ، والرجل العصبى العجوز يرغى ويزبد بانجليزيته المتواضعة ، ويهدد بأننا سنبقى فى محطة الحدود « أونجين » يوما كاملا ، اذا مافاتنا قطار موسكو الذى يتحرك بعد دقائق ، قلت له تصرف .. اتصل بموسكو ، أو ادفع وحاسب سفارتنا .. المهم أن نتحرك .. وغاب عدة دقائق .. ثم اقبل الرجل الطيب مسرعا يلهث ويقول « اركبوا » ، والقطار يطلق صفارته ايذانا بالتحرك . وكان علينا فى أقل من دقيقتين ، أن نقذف بحقائبنا ، وبأنفسنا الى القطار الذى كان قد بدأ فعلا حركته .

رغم هذه البداية التى قد تبدو غير مشجعة ، فقد تكشف الرجل بعد ذلك ، طوال مدة اقامتنا فى الاتحاد

السوفييتى ، عن شخصية لطيفة ، واصبحنا نعامله جميعا كوالد لنا .

كما ضمت هيئة المرافقين فى الاتحاد السوفييتى النقيضين .. رانا .. وآدم ..

رانا تتكلم العربية الفصحى بطلاقة .. ذكية ، لماحة ، نشيطة ، منظمة فى عملها غاية التنظيم ، القلم والمفكرة فى يدها دائما لتسجيل الاحتياجات والتأكد من تلبيتها ، دقيقة الجسم ، شرقية الملامح والقسمات ، من أصل أوزبكستانى ، ولكن يبدو انها نشأت وتعلمت فى موسكو .

كانت رانا هى المنظمة الفعلية لتحركاتنا وشئون عملنا ، وكان العجوز العصبى الطيب يترك لها فى أغلب الاحيان مهمة البت فى الامور واجراء الاتصالات .. وكانت دائما فى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقها .

اما آدم .. الطويل العريض ، بلونه الاسمر ، ولغته العربية الضعيفة ، وقلة حيلته فى كل مايعرض له من أمور ، فقد كان النقيض المباشر لرانا .. وعلى مر الايام ، أدرك أعضاء الفرقة قدرة كل منهما ، فكانت الاستفسارات والطلبات توجه دائما لرانا ، مع حرص واضح على عدم الاعتماد على آدم ... او الالتجاء الى المرافقين الآخرين ، رغم أنهما لا يتكلمان العربية .

وكان يحدث أن ينصرف كل مرافق الى عمل ما ، ولا يبقى معنا سوى آدم .. وهنا كانت تظهر المشاكل ..

كنا فى ريجا .. وأصيب الراقص جميل جابر بما اقتضى نقله الى المستشفى ليلا .. وفى صباح اليوم التالى ، استأذن بعض اصدقائه فى زيارته ، وكنت مع رانا فى طريقنا لمقابلة أحد المسئولين ، فوافقت على

الزيارة ، وطلبت منهم الاعتماد على آدم فى هذه المهمة ، مع امكان استعمال احد الاتوبيسات المخصصة لنا .

وعندما عدت من المقابلة ، وجدت المجموعة التى ذهبت الى المستشفى فى صالون الفندق ، إستفسرت منهم عن حالة جميل ، وموعد خروجه من المستشفى ، فضحكوا ، وتبرع من بينهم من شرح لى سر هذه الضحكات .

لقد اتصلوا بآدم فى حجرته ، واخبروه بموافقتى على الزيارة ، فهبط اليهم ، وتوجهوا جميعا الى المستشفى .. وما أن وصلوا الى الباب الخارجى للمستشفى ، حتى اشار الى المبنى قائلا « هذه مستشفى » ، وعاد الى مكانه فى الاتوبيس .. فأفهموه أن وجوده معهم ضرورى ، للاستفهام عن مكان المريض ، وسؤال الطبيب عن حالته .. فمضى معهم غير مقتنع ، وراح يدخل فى عنبر ليخرج من الآخر ومن خلفه طابور الزوار من اصدقاء المريض .. واخيرا توقف ليقول فى بساطة « انه جميل ليس موجود!! » وعبثا حاول الاعضاء التفاهم معه .. واخيرا لجأ واحد منهم الى طبيب يتكلم الانجليزية ؛ فاتصل الطبيب بادارة المستشفى ليكتشف انه لا يوجد بهذا المستشفى مريض من الفرقة المصرية ، وتبرع بالاتصال بمستشفى آخر رجح ان المريض به ؛ فصدق ظنه ، واخذ يشرح لآدم مكان المستشفى الجديد وكيفية الوصول اليه .. وبدأ ادم وقد فهم كلام الطبيب .. ثم تكشفت الحقيقة عندما اخذ يلقى اوامره الى سائق الاتوبيس ، مرة الى اليمين واخرى الى اليسار ، دون أن يتوصل الى مكان المستشفى .. واخيرا ثار السائق ، وكانت ساعة الغداء قد حلت ، فعاد الى الفندق .. وفى طريق العودة ، راح آدم يبرر

ماحدث قائلا « أنتم طلبتم ذهاب الى مستشفى .. وانا لا أعرف الا هذا مستشفى .. فماذا أفعل ؟؟ » .

الا أن تجربتى الشخصية مع آدم كانت اشد اغاظة ! تحركت الاتوبيسات من الفندق مساء الى محطة ريجا ، لنسافر منها الى الحدود البولندية ، وقد بقيت بالفندق حتى يتحرك آخر أتوبيس ضمانا لركوب الجميع .. وشاء حظى العثر ، أن أجد السيد آدم يجلس على المقعد الاول من الاتوبيس ، ليقول فى هدوء لا يعكس معنى الـــكلمات التى ينطقها « من الضرورى أن نكون مسرعا .. فقطار يتحرك قريبا » .

وصلنا الى المحطة بعد وصول الفرقة بعدة دقائق ... كانوا قد هبطوا من الاتوبيسات ، وتوجهوا الى الرصيف الخـــاص بقطارنا برفقة باقى المـــرافقين ... قلـــت ونحن ندخل باب المحطة ذات الارصفة المتعددة المتداخلة « اين نذهب يا آدم ؟ » .. قال بحماس الزعيم القائد « اتبعونى » .. حملنا حقائبنا وتبعناه .. راح يعـــدو بخطواته الواسعة من رصيف الى رصيف ، وكلما وصل الى رصيف سأل احد الواقفين عدة أســـئلة بالروسية ، ثم عاد ليقول لنا « ليس هذا رصيف مطلوب .. اتبعونى» .. ونروح نعدو من خلفه الى رصيف جديد ، لتتكرر نفس التمثيلية . أخيرا ، نفذ صبرى ، وانا أرى الدقائق تمر ، وموعد تحرك القطار أصبح وشيكا .. فأسرعت أمسك بطرف معطفه لاوقف عدوه العشوائى ، وانا اقول محتدا « يا سيد آدم .. هل تعرف مكان الرصيف المطلوب ؟» سحب نفسا طويلا قبل أن يقول « أنا لا اعرف ! .. » ، قلت له وقد تضاعف غيظى « اذا .. قف ، وانتظر حتى

أسأل » .. واخذت استفهم من بعض موظفى المحطـة بالمفردات الروسية التى اعرفها عن طريق رصيف بولندا .. فحددوه لى باشارة بسيطة .. ورحت أعدو ومن خلفى باقى اعضاء الفرقة فى اتجاه الرصيف المنشود ... وآدم يسير متباطئا فى نهاية الطابور ، وقـد أحس ان مسئوليته المرهقة قد انتهت !!.

مذبحة راس السنة .. على الفاتورة :

وحياة المرافق حياة غريبة .. فهل يظل طـوال العام يستقبل ويصاحب ويودع وفودا من جميع انحاء العالم ، من افريقيا وآسيا واستراليا وامريكا واوروبا .. وفودا من كل صنف ونوع ، أطباء ، رجال سياسة ، علمـاء اجتماع ، رجال صناعة ، طلبة ، أعضاء مجالس نقابية ، رجال زراعة ، فرق فنية .. رقص وتمثيل وسيرك وغناء .. عمال مناجم ، وملكات جمال .. شباب نشيط مشاغب وكهول يتحركون بحساب ..

والمرافقون انفسهم ، البعض محترف ، تحس بالعمـر الطويل الذى امضاه فى هذا العمل ، من خبرته وقدرته على التنظيم .. ومن ظلال السأم التى تلف نشـاطه اليومى ، والبعض الآخر مستجد تبهره الوظيفة بما تتيح من تنقل دائم فى انحاء البلاد ، فنادق الدرجة الاولى ، مقابلة كبار المسئولين مع الوفود الزائرة ... نسـاء مسنات ، تحس ان وراء كل واحدة منهن قصـة طويلة أوصلتها الى هذا العمل .. فتيات نزقات يبحثن مع كل وفد قادم عن فتى الاحلام الذى سيطير بهن الى الجنـة

الموعودة . البعض محترف ينظم حياته على أســاس استدار أكبر مكسب من هذه الوظيفة ، والاستمتاع بكافة المزايا التى تتيحها حتى الثمالة .. والبعض الآخر ، طلبة جامعات ، تضطرهم ظروفهم العائلية الى الاعتماد على هذا العمل المؤقت لمواجهة نفقات الحياة ، ينظرون الى كل وفد قادم ، باعتباره مصدر دراسة جديدة تتكامل بها دراستهم الاصلية فى الجامعة .. ثم مرتزقة من جميــع الجنسيات ، كل مؤهلاتهم معرفتهم باللغة المحلية بالاضافة الى لغة الوفد الزائر .

ولا أنسى المرافق العراقى الذى لازمنى فى برلين ، فى فترة مناقشة برنامج العمل مع المسئولين الالمان ..

كنا قد وصلنا الى برلين ، أنا وبعض مسئولى الفرقة ، قادمين من سفيكاو ، لمناقشة خط سير العمل الغــريب الذى وضعوه لنا .. وعرفت أن السر فى هذا ، هو تخلفنا فى تحديد موعد زيارتنا تحديدا قاطعا ، مما جعل الجهات المسئولة تبحث فى برامج عمل المسارح لتحشرنا يوما فى الجنوب ويوما فى الشمال .. فكل مسرح فى المانيـــا الديموقراطية ـ وفى أوروبا بشكل عام ـ توضع له خطة عمله السنوية بالتفصيل فى بداية العام ، أو قبل بدايته بفترة كافية على الاصح ، وخريطة العمل تتضمن نشــاط الفرق المحلية والزائرة .. لهذا كانت مهمة المشرفين على رحلتنا شاقة فى البحث عن ثغرات فى هذه الخطة يمكن أن تدخل عروضها منها .. ولهذا ظهر خط سير عملنا مرتبكا من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ثم الى الشرق من جديد . وفى محاولة لانقاذ مايمكن انقاذه ، سافرت مع قيادات الفرقة الى برلين خلال عطلة عيــد

الميلاد وراس السنة ، وعقدنا عدة اجتماعات لمناقشة بعض التعديلات التي تختصر رحلات السفر الطويلة التي يمليها البرنامج الموضوع .

قلت .. اصطحبني في هذه المقابلات مرافق عراقي يقارب الخمسين من عمره ، يدرس الموسيقى في برلين . وكان « ح » ، ولنتفق على أن هذا هو اسمه ، منفلت العيار ، تزوغ عينه بسرعة على متع الحياة .. يحب الرقص والنساء والاكل والشرب ، اكثر من حبه للموسيقى التي يدرسها ، أو وظيفة المرافق التي ينتحلها ..

كنا ننزل بفندق « اونتر دير ليندن » ، وهو نفس اسم الشارع الذي تقع فيه ، ومعناها « تحت الزيزفون » .. كانت اجتماعاتنا مع المسئولين الالمان تتم في أحد صالونات الفندق ، او على مائدة احد المسئولين ، فالفترة كلها عطلات رسمية ، والمكاتب مغلقة في اجازة طويلة .... طوال مناقشات العمل كان السؤال الذي يلح على خاطر اخينا « ح » ، هو كيف واين سنحتفل بالعام الجديد ؟.

قلت ، حتى انهى استفساراته المتوالية « سنترك إلك ترتيب هذا الموضوع » .. وكأنه تلقى اشارة البدء في سباق الماراتون .. مضى الاستاذ « ح » مسرعاً يجري اتصالاته لترتيب السهرة الموعودة . واسترحت من تساؤلاته ، الى ان اقبل علينا في اليوم التالي ، وقد بدت عليه علامات الاحباط وانكسار النفس !

ـ ايه الحكاية يا اخ « ح » ؟

ـ شي فظاعة .. شي فظاعة .. ماكو مكان خالي .. ماكو فد مكان خالي !!.

وفهمنا من لهجته العراقية انه لم يوفق الى مكان مناسب لقضاء السهرة .. الاستاذ « ح » كان يمني النفس بسهرة صاخبة في أحد أماكن اللهو العديدة المنتشرة في المدينة .. الا أن جهده المتأخر في الحجز ، لم يسمح له بالعثور على مكان واحد .. حتى في السهرة الضيقة التي يقيمها الفندق الذي نقيم فيه .

ـ وبعد يا أخ « ح » ؟

ـ أكو فد مكان في يوهانسوف .

وبعد الاستفسارات فهمنا أنه يوجد مكان لنا لتمضية سهرة راس السنة في مطعم فندق آخر ، هو فندق يوهانسوف . وكانت المفاجأة الكبرى له أولا .. ولنا ثانيا ، عندما وصلنا الى المطعم الصغير الذي سيتم فيه الاحتفال .. الاضاءة خافتة .. وجهاز راديو ضخم يذيع الاغاني الشعبية الالمانية القديمة .. والجمهور ... اى جمهور ؟! . مجموعات من العجائز والكهول ، أكثرهم شبابا تجاوز الستين ..

أخذنا أماكننا حول المائدة المحجوزة ونحن نخفي ابتسامات الشماتة في أخينا « ح » ... الذي اكفهر وجهه لدى اكتشافه لطبيعة الجمهور . ورحنا نتبادل الاحاديث همسا ، احتراما للجو العام بالمطعم .. وكمال نعيم يميل من حين لآخر على اذن « ح » مؤنبا لائما .. والمسكين لا يحير جوابا ..

وأخيرا .. التمعت عيناه ، ودب النشاط في كيانه .. وأشار الى الميتردي أوتيل .. وقال ضاحكا ، ينفض عن نفسه شعور الكآبة الذي تسلل اليه ، لا يهم ، نأكل ونشرب ! .

وكانت كلماته هذه اشارة البداية أو ساعة الصفر لمعركة صاخبة نشيطة ، امتلأت بعدها مائدتنا بالشراب والطعام .. وأستاذنا « ح » يميل بين لحظة واخرى على قائمة الاطعمة ، ليختار أغلى الاصناف واعلاها سعرا .. ليس مهما طبيعة الطلب .. المهم أن يكون غاليا ..

أكلنا وشربنا وشبعنا .. واستأذنا « ح » مازال يواصل طلباته التى لا تنتهى .. احسست انه قد جاوز الحد .. فالدعوة موجهة الينا من وزارة الثقافة ، وهذه الطلبات ستتحول فى النهاية الى فاتورة .. نحن حقيقة فى احتفال خاص براس السنة ، لكن الاحتفال شيء ، والانتقام شيء آخر !.. افهمته اننا قد شبعنا فلا داعى لاية طلبات جديدة .. بل وفكرنا فى مغادرة المطعم وانهاء السهرة .. الا أن أخونا « ح » كان قد استعاد شبابه بعد كؤوس الويسكى العديدة التى ابتلعها ، ورفض بحسم مثل هذا الاقتراح ، وبدأ على الفور يتلفت حوله ، ثم قام فغير محطة الاذاعة ، واختار أخرى تذيع الحانا راقصة ، وتوجه فى نشاط وخيلاء ، الى أصغر العجائز ، يطلبها للرقص .. وكأنما قد مس صاحبنا الجميع بعصا حيويتهالسحرية فتحرك الكهول والعجائز جميعا ، وأزاحوا الموائد جانبا ، مفسحين فى وسط المطعم مكانا للرقص .. وجلسنا نحن حول مائدتنا ، نستمد استمتاعنا من استمتاعه وهو يصول ويجول بينهم كفارس الفرسان .

هانا .. ماياكوهانا :

لم انتبه لوجودها ، الا بعد عدة أيام من وصولنا الى بولندا . كنت أتعامل مع كبيرة المرافقين ، ومندوبة وزارة

الثقافة البولندية ، وكنت أعرفها منذ الرحلة السابقة الى بولندا مع مسرح القاهرة للعرائس .. كما كان هناك فرانك مساعدها الذى يتكلم العربية ، ويتولى عنها متابعة العمل ومصاحبة الفرقة فى تحضير العروض . لم أنتبه لوجود « هانا » طوال وجودنا فى جديانسك . وفى الاتوبيس الذى سافرنا به من جديانسك الى فروتسلاف تنبهت لوجودها .. بجسمها الدقيق النحيف ، ووجهها المريح رغم افتقاده لمواصفات الجمال التقليدية ، وشعرها الصبيانى المقصوص .. وبحركتها النشيطة المتوثبة ، وحيويتها ، ومحاولاتها الظريفة للتحدث بعربية فصحى متقعرة !.. كانت نموذجا للولد الشقى .

سألتها السؤال التقليدى .. أين تعلمت اللغة العربية ؟ .. وعرفت من اجابتها ، أنها مرافقة مؤقتة ، تقوم بهذا العمل للحصول على دخل اضافى يساعدها فى دراستها الجامعية للحصول على الدكتوراه من جامعة وارسو .. كانت طالبة بقسم اللغات الشرقية ، ودرست اللغة العربية ولهجتها العامية .. ودرست الى جانبها الفارسية والتركية .. ذلك بالاضافة الى دراستها للغات الانجليزية والفرنسية والالمانية والروسية واللاتينية .. وكانت اللغة العربية مادة تخصصها .

وكانت المفاجأة ، أنها انتهت لتوها من مناقشة رسالة الماجستير وموضوعها « واقعية مسرح نعمان عاشور الاجتماعى » ! .. هكذا فى أقصى شمال أوروبا ، ووسط الجليد المتساقط بغزارة ، تجلس هذه الفتاة الرقيقة الدقيقة ، وداخل رأسها مادة ماجستير عن مسرح نعمان عاشور .

قلت لهانا « وكيف وقع اختيارك على نعمان عاشور .. لماذا نعمان بالذات ؟ » .

قالت « بالصدفة .. أستاذى فى قسم اللغات الشرقية ، بروفيسير بيلايفسكى ، كان قد زار القاهرة ، وتعرف على الحركة الادبية المعاصرة ، وقابل نعمان عاشور ، وحضر عروض بعض مسرحياته ، فأعجب بها ، وبمضمونها الاجتماعى ، ونصحنى بأن أتخصص فى مسرح نعمان عاشور .. »

قلت « وهل توجد فى جامعتكم المراجع الكافية التى تتناول حركتنا الادبية المعاصرة ، والتى تساعد فى اعداد وتحضير هذه الرسالة ؟ » . قالت « ابدا .. وحتى الرسالات السابقة ، كان معظمها حول التاريخ القديم للادب العربى .. عن أبى نواس أو المتنبى .. وفى أحسن الاحوال عن ابى شادى .. لقد درست النصوص المسرحية التى كتبها نعمان عاشور ، كما درست حياته ونشاطه الادبى فى غير مجال المسرح .. ومن خلال بعض الدراسات الاخرى بالعربية عن الثقافة المصرية المعاصرة ، استطعت أن أعد رسالتى » .

قلت « هل تعلمين أن نعمان من أعز أصدقائى .. واننا عملنا معا لعدة سنوات فى جريدة الجمهورية .. وقد عايشت خلق وتجسيد الكثير من أعماله المسرحية » .

صفقت ابتهاجا بهذا الاكتشاف ، وطلبت منى أن أسمح لها بساعة من وقتى لمناقشة موضوع دراسة الادب المعاصر فى مصر ، ومعرفة المزيد من المعلومات عن نعمان عاشور . وقد امتدت هذه الساعة الى عدة ساعات ،

كلما انتهت هانا من مشاغلها ، أسرعت الى وفى يدهـا المفكرة والقلم ، وعلى لسانها العديد من الاسئلة الجاهزة ، « وماذا عن الفريد فرج ؟ .. وهل أنجز عبد الرحمن الشرقاوى عملا جديدا ؟ ... ثم حدثنى عن نجيب محفوظ .. » .

وعلى مر الايام أصبحت هانا صديقة للجميع ، تسللت الى جميع القلوب بفطرتها وبساطتها وروحها المرحة ، وحضور بديهتها .. ولا أذكر أنها أكملت وجبة واحدة طوال فترة تجوالنا فى بولندا .. كانت تجلس على مائدتى دائما .. ولكنها كانت تختفى دائما وسط الوجبة ، وربما فى بدايتها ، لتلبى رغبة هنا ورغبة هناك .. وكم حاولت أن أثنيها عن هذا النشاط الذى يخطىء توقيته السليم .. وكم سعيت الى اقناعها بأهمية تناول الوجبات كاملة ، لمواجهة الجهد الشاق الذى تبذله ، مما لا يتفق مع بنيتها الدقيقة .. ولكنها كانت تتخلص من نصائحى بلطف ، قائلة فى حركة تمثيلية « تمام .. يا افندى باشا .. ! » .. أو « أوامر افندى باشا على الراس والعين » ، ثم تنطلق الى العمل الذى تسعى الى انجازه .

واذا كانت هانا قد أنعمت على بلقب « أفندى باشا »، فهى لم تحرم الكثير من أعضاء الفرقة من هذه الانعامات .. وتوالت ألقابها .. هذه لقبها « المعزة » ، وتنطقها «المئزة» ... وهذا لقبه المفضل « الشيطان » .. وثالث طويل عريض أصبح لقبه « الباب » .. وهكذا . وفى مقابل هذا اتفق الجميع على منح هانا لقب « ماياكوهانا » .. وهى عبارة بولندية تعنى بالعربية « ياحبيبتى » .. ويوما بعد يوم نسى الجميع معنى هذا اللقب ، وأصبح اسمها

« هانا ماياكوهانا » .. وكنت تجد من أعضاء الفرقة من يخاطبها ويناديها بهـذا اللقب أمام بعض الرسـميين البولنديين ، فيحمر وجه هانا ، وترتبـك .. وينتهي الموقف بشرح قصة لقبها .

وعلى مائدة الفداء ، تقف هانا ، وترفع بيدها كوبا زجاجيا ، وباليد الاخرى شوكة ، وتقرعهما ، فتحـدث رنينا متصلا حتى يصمت الجميع .. وتقول « ياكل من أهل رقص .. قلنا الف مرة ، هده القاب خصوصية .. لا يصح الكلام بها أمام الشخصيات الرسمية .. وهـذا آخر اندار !! » ، وتضيع كلماتها وسـط ضـحكات الجميع .

لقد اكتسبت هانا مكانة كبيرة فى قلوبنا ، وكان وداعها لنا قاسيا على الجميع .

أبو موسى .. و « كيف مابدك » :

كان وصولنا الى تشيكوسلوفاكيا فى فترة حرجة من حياتها السياسية ، وكان الجيش السوفيتى مازال مقيما بالبلاد ، والشاب « بلاخ » ، الذى أحرق نفسه احتجاجا على تدخل الجيش السوفييتى ، يلهب مشاعر الشباب .

كان وصولنا الى براغ فى اليوم التالى لهذا الحادث .. الرايات السوداء تمتد بطول المبانى ، وتحتل مسـاحات واسعة من واجهاتها ، وصورة « بلاخ » بالورود مـن حولها : فى واجهات المحال التجارية .. الميدان الـكبير فى براغ « فاتسلافسكى ناميستى » يعج بآلاف الشباب، وقد تجمهروا حول التمثال الضخم فى صدر الميدان ،

وثبتوا عليه الشموع المضيئة فى كل مكان ، من قاعدته الى قمته .. وأمام التمثال ، وقف فتى وفتاة يحمل كل منهما العلم التشيكوسلوفاكى فى ورديات متتابعة طوال الليل والنهار .

كان عملنا فى تشيكوسلوفاكيا مثار اشكالات لا تنتهى حتى قبل وصولنا اليها .. فوزارة الثقافة التشيكوسلوفاكية وقد سادها فى هذه الفترة الجناح اليهودي بميوله الصهيونية ، يريد أن يلغى الزيارة التى كان قد سبق الاتفاق عليها ، وعلى أحسن الاحوال كان يطمع فى ضغطها الى ثلاثة ايام نقدم فيها حفلة واحدة فقط .. وسفارتنا فى براغ تتمسك تمسكا شديدا بتنفيذ الخطة السابق الاتفاق عليها .. وبرقيات وزارة الثقافة التشيكوسلوفاكية وسفارتنا فى براغ تتوالى علينا فى المانيا ، حاملة التعليمات المتناقضة .. وأخيرا وصلتنى برقية من القاهرة تفيد أن زيارتنا ستستمر لمدة خمسة أيام ، وان الجيش التشيكوسلوفاكى سيتولى الاشراف على الزيارة والحفلات .

وبالفعل ، قدمنا حفلة واحدة فى مسرح الجيش ببراغ .. ثم حفلتين فى مراكز تجمع للجيش قريبة من براغ واحدة فى ميلنيك والاخرى فى بشيبرام .. وعينوا لنا « أبو موسى » مرافقا ..

و « أبو موسى » هذا شخصية طريفة للغاية .. تجاوز الخمسين من عمره ، نحيف ، عصبى ، مازالت لهجته العربية الفلسطينية تكشف عن مسقط رأسه .. كان قد مضى على هجرته من فلسطين الى تشيكوسلوفاكيا أكثر من

عشرين سنة .. تزوج من تشيكوسلوفاكية ، وأنجب منها واصبح مواطنا تشيكوسلوفاكيا . عمل فى عدة أعمال .. واستقر به المطاف فى نهاية الامر موظفا فى مكتب الاتحاد العالمى للصحافة ببراغ .

وقد استطاع « أبو موسى » أن يخفف كثيرا من وحشتنا وسط الجو السائد فى براغ ذلك الحين ، وجاهد لكى تكون اقامتنا مريحة بقدر الامكان ، رغم موقف وزارة الثقافة والجو السائد فى البلاد ، نركب الاتوبيس المتجه بنا من الفندق الى المسرح ، فيصر أبو موسى على أن يؤدى دور الترجمان « هادا الشارع بيوصل ع فيينا ..وهوناك مصنع أخشاب .. وع يمينك المقبرة أو المحرقة ، هون ع كيفك .. كيف مابدك .. بدك تندفن بتندفن سليم ، بدك تنحرق ، بحرقوك وبحطوا رمادك بالقبر » .. وتصيح احدى الفتيات منزعجة « فال الله ولا فالك ياشيخ .. ايه الكلام البايخ ده ؟ » ، ويضج الجميع بالضحك ... وأبو موسى فى حيرة يحاول أن يفهم سر هذه الضجة .

وتتكرر المطبات التى يقع فيها أبو موسى بفضل لهجته الفلسطينية .. سعاد تحاول أن تهبط من الاتوبيس ولم يتوقف تماما ، فيصيح أبو موسى بغضب « ديرى بالك يامره .. وين بدك تروحى .. » ، وتنفجر أزمة جديدة فى وجه « أبو موسى » .. كيف يخاطب فتاه فى الفرقة قائلا « يامره » .. فيسأل صادقا و « شو بدى أقول ؟ » ؛ وأحاول أن أتدخل شارحا حسن مقصد « أبو موسى » وأن كلمة « مره » فى اللهجة الفلسطينية الدارجة لا تحمل أية اهانة .. ويتدخل أبو موسى محتدا « ولك شو الخطأ ؟

انا ايش بقول لام موسى ؟ .. يا ميره .. بدها تغضب مني ؟! » .

فى أوقات الفراغ كنت أقول لابى موسى أننى حزين على براغ ، بهذا السواد الذى يلفها ، والقلق الذى يعيشه أهلها .. فأنا أحب براغ حبا خاصا ، وهذه هى زيارتى السادسة لها ، أذكرها فى صيفها الحار وشتائها البارد ، ولا احب ان اذكرها فى جو الكآبة الذى تعيشه حاليا .. فيهز ابو موسى رأسه ، ويتكلم بلهجة العليم ببواطن الامور « الله يخرب بيتهم لليهود .. مافى مكان بيدحشوا حالهم فيه ، الا وتكثر المصايب » ويقول ابو موسى أن اليهود قد تغلغلوا طوال السنوات الماضية فى جميع أجهزة الثقافة والاعلام والجامعات ، وان كانوا لا يتولون أبدا قيادة جهاز من الاجهزة .. كانوا دائما يكمنون فى المستوى الثانى أو الثالث بكل جهاز .. لكنهم متواجدون دائما ، يشكلون طبقة عازلة بين قيادات الاجهزة وباقى جسمها .. وأنهم وراء مايحدث الآن فى تشيكوسلوفاكيا ، بعد تنسيق امورهم مع بعض الدول الغربية .. وأنهم استطاعوا من مواقعهم الكامنة أن يضللوا الكثير من الشباب وأن يقودوا المظاهرات التى نراها الآن .. وأن قصة الشاب « بلاخ » الذى حرق نفسه ، تحوطها الكثير من الشكوك والريب ، وأن خيوط التآمر فى هذه القصة بدأت تتضح .. فهناك مستندات موجودة تفيد أن الشاب كان على صلة بجماعة متواطئة مع دولة رأسمالية ، وأنهم دفعوه الى حرق نفسه بعد أن أوهموه أنهم قد وضعوا على ملابسه مادة تمنع من وصول النار الى جسمه ، وأنهم سيتداركوه بمجرد أن تؤدى هذه الحركة مفعولها الدعائى المطلوب .. ويمضى

أبو موسى قائلا ، ان الشاب صدقهم ، ولكن ما ان وصلت النار الى جسده ، حتى أخذ يجرى يمينا ويسارا طالبا النجدة .. ثم يتساءل أبو موسى محتدا .. بماذا تفسر وجود أجهزة الاذاعة والتليفزيون فى حالة استعداد كامل قبل الحادث ، تنتظر فى شارع جانبى يوصل الى الميدان ؟.. بماذا تفسر وجود هذا الحشد الضخم من المراسلين الاجانب وبخاصة مراسلى الوكالات الغربية ، فى مكان الحادث وقبل وقوعه فى حالة تأهب كامل ؟... صدقنى انها مؤامرة دعائية محكمة ، وقع الشاب المسكين فى براثنها .

مرافقون من عندنا .. بلا عمل :

الى جانب المرافقين الذين كانت الدول المضيفة تختارهم لمساعدتنا ، كان هناك مرافق مصرى توفده ادارة التبادل الثقافى عندنا ، يصاحبنا فى زيارتنا لكل دولة من الدول .. وقد حاولت أول الامر أن أعتمد على هؤلاء المبعوثين فى انجاز بعض الاعمال التى تتصل بنشاطنا ، الا أننى اكتشفت منذ البداية عدم رغبتهم فى المشاركة ، وأيقنت أن ايفادهم كان كنوع من المكافأة لهم على عملهم بالادارة ، وعلى سبيل « الفسحة » .. بل اكتشفت ان وجودهم يضيف الى أعبائى أعباء جديدة ، تتصل بتلبية رغباتهم ، وافراد مرافق لكل واحد منهم ، يسهل انجاز المشتروات التى سبق اعداد كشوفها بالقاهرة !!.

ولا تغيب عن ذاكرتى مواقف أحد هؤلاء المرافقين

المحليين ، وقد كان يغادر مصر لاول مرة فى حياته ... تعليقاته الساخرة على كل مايقدم له من طعام أو شراب .. لا يكتفى بأن يرددها بينه وبين نفسه ، ولكن يحرص على اشاعتها بين أعضاء الفرقة « ايه ده ؟ رز ده ؟ .. وماله معجن كده .. فين الرز المفلفل بتاع مصر ؟ » ، ثم « ومال أكلهم ماسخ كده ؟ .. صحيح من خرج من داره اتقل مقداره » ، الى آخر هذه التعليقات . وأذكر أننا كنا قد قطعنا رحلة طويلة بالاتوبيس ، بدأناها فى الصباح الباكر ، وقبل أن نتناول افطارنا ، اكتفاء بالسندوتشات التى وزعت علينا فى الاتوبيس .. ووصلنا وجهتنا بعد موعد الغذاء ، فاتجهنا مباشرة الى المطعم ، وقبل أن نشرع فى توزيع الاعضاء على حجرات الفندق ، على أساس أن أنتهى من هذا العمل أثناء تناولهم لطعام الغذاء .. جلست فى بهو الفندق مع كبير المرافقين ومندوب الفندق ننجز هذه المهمة ، ففوجئت بالمرافق « اياه » ، يقبل ناحيتى وعلى وجهه غضب الدنيا والآخرة ، يداه ترتعشان وهو يقول « دى مش عيشه .. عمال اطلب منهم فنجان قهوة فى المطعم يقولوا مش فاضيين .. أنا ماشربتش قهوة من الصبح .. أنا مش متعود على كده .. » ، وقد ذعر كبير المرافقين ، وسألنى عن السبب فى الحالة التى يعلن منها مندوب وزارة الثقافة ، فأخبرته بطلب الاستاذ ، وعلى الفور انطلق الى المطبخ محاولا اقناعهم بتفرغ أحد الطهاة لاعداد القهوة المطلوبة ، وسط « هيصة » تقديم الغذاء لاعضاء الفرقة .

أستاذ آخر ، كان قد أوفد خصيصا لعلاج نظره ، وكان واجبى أن أدبر له مسألة العلاج هذه حتى يدخل

المستشفى .. واستاذ ثالث ، رايناه عند قدومه ، ثم في حفل السفارة عند سفرنا ! .

وسيدة وصلتنا في احدى الدول ، ولاداعي لذكر الاسماء ، كان همها أن تنفرد بمعاملة خاصة ، بحيث تتقاضى من الجهات المختصة بدل غذاء لمواجهة كشف المشتروات الطويل الذى تحمله ، وعندما تنجح في هذا ، تواظب على تناول الوجبات معنا بهدف مزيد من التوفير .. وقد فوجئت يوما بكبير المرافقين في هذه الدولة يقول عند مغادرتنا احدى المدن الى مدينة تالية ، ان ادارة الفندق قد اخطرته بأن احدى الفتيات قد ذهبت الى « كوافير » الفندق ، ولم تسدد فاتورة تصفيف الشعر ، وطلبت اضافتها الى مصاريف الاقامة .. وقد اغاظتني هذه الواقعة .. « كوافير ايه ؟ .. وليه ؟ » ، فبرنامج العمل المتصل لا يسمح لاى فتاة أن تذهب الى الكوافير لتصفيف شعرها ، واغلب الرقصات تتطلب اغطية للرأس تهدم احسن تسريحة ! .. واخذت استفسر عن صاحبة هذه الغلطة .. حتى اكتشفت انها الاستاذة التي اوفدتها ادارة التبادل الثقافي .. ووجدتنى اصر على أن تدفع المبلغ المطلوب .. واحس كبير المرافقين أن المسألة ستدخل في دور ازمة ، فعرض اضافة الفاتورة على حساب الضيافة ، الا انني صممت على أن تدفع السيدة .. فثارت والقت بالمبلغ المطلوب على المائدة وهي تقول « انا اعمل ايه .. جورج هو اللى فهمني انى ممكن اعمل شعرى على حساب اللوكاندة » ، وسألت جورج هذا وهو احد المرافقين .. فقال انها طلبت منه أن يدلها على

مكان كوافير فى المدينة ، فأخبرها بوجود كوافير بالفندق وقادها الى مكانه .. وانصرف .

وبين هؤلاء جميعا ، الوحيدة التى حرصت كل الحرص على أن يكون وجودها مفيدا ، بقدر ماسمحت لها الظروف ، كانت السيدة كريمة الجوهرى التى رافقتنا فى بولندا .. فاكتسبت بسلوكها احترام ومحبة الجميع .

فرانك .. ومغامرته الفاشلة :

فى بولندا التقينا أيضا بالمرافق « فرانك » الذى يتكلم العربية . وكان فرانك سببا فى حدث لا يمكن أن انساه وسط احداث الرحلة المتشابكة .

كنا قد وصلنا الى وارسو فى نهاية زيارتنا لبولندا .. وكان يومنا الاول فى وارسو .. عندما أقبل فرانك ، وعلى وجهه تعبير جاد متزمت ، قال « أيها السيد المدير .. أريد أن اتحدث معك حديثا خاصا وهاما » ، فأفسحت له مكانا الى جانبى ، وقد كنت أجلس مع بعض أعضاء الفرقة ، الا أن فرانك قال ومازال واقفا « أريدكم على انفراد ، لحديث خاص » .

نهضت ، فاتجه بى الى المطعم الذى كان خاليا فى ذلك الوقت من النهار ، وجلسنا الى احدى الموائد ، منتظرا أن يبدأ فرانك حديثه ، الا انه أخذ يعبث بالشوك والملاعق والسكاكين وباقى أدوات المائدة التى أمامه فى عصبية واضحة ، ودون أن ينطق احسست بطلائع أزمة فى الطريق .. فقلت قلقا « خيرا ؟ » .

أخيرا ، رفع فرانك رأسه ، فتلاقت أعيننا ، وبدأ

حديثا طويلا عن الشباب ونزوات الشباب الطبيعية التى يعرفها جيدا لقرب عهده بها ، وعن أن خطأ الاقلية لايمكن أن يدين الاغلبية ، وعن اهمية الحلم مع الحـــزم فى معاملة الناس .. محاضرة طويلة ، ذات طابع تجـريدى لـكنها تنبىء بعاصفة مقبلة .. فقاطعت فـرانك قائلا « ياسيد فرانك ، ادخل الى الموضـوع مبـاشرة ... أرجوك » .

فرك فرانك يديه ، واعتدل فى جلسته ، ثم أخذ نفسا طويلا ، وقال أخيرا فيما يشبه طلقات المدفع الرشـاش « سيدى انت تعلم انه بحكم معرفتى باللغة العربية ، قد كلفت بمراقبة الراغبين فى زيارة الطبيب يوميا .. واليوم طلب منى أحد الاعضاء دواء معينا .. وعندما ذهبت الى الطبيب أطلب الترخيص بصرف الدواء ، اذ انه لايمكننا هنا صرف أى دواء من الصيدلية الا باذن خاص مـن الطبيب .. اقول عندما قدمت اسم الدواء الى الطبيب ؛ رفض صرفه ، وطلب حضور الشخص الذى طلب هذا الدواء بصفة عاجلة للكشف عليه .. فوجدت أن من واجبى ان اخطرك بهذا .. » .

قلت : « ليس فى هذا أية مشكلة .. الطبيب يطلب رؤية المريض .. فما المانع ؟ .. هل تعرف الشـــخص الذى طلب الدواء ؟ »

قال بحسم « اعرف شكله .. ولا أعرف اسمه » .

قلت « المسألة محلولة اذا .. اذهب اليه واصطحبه حالا الى الطبيب » ، قلتها مبتسما فأحس أننى لم أفهم الموضوع تماما .. فعاد ليقول « يا أستاذى ، يبدو أنك

لم تفهم المطلوب تماما ، لقد قال الطبيب ان هذا الشخص يطلب دواء للمصابين بأحد الامراض التناسلية المعدية .. والقانون هنا فى بولندا ، يعاقب المريض بهذا المرض اذا لم يتوجه الى الطبيب فور شعوره بالمرض .. وهـذا الشخص أعطانى علبة دواء فارغة ، مما يؤكد أنه قد سبق له تعاطى الدواء .. وهذا يعنى بالتبعية أنه يعرف باصابته منذ مدة طويلة ... وفى هذا مسئولية قانونية » .

هنا .. اتضحت اركان المأساة .. فهالنى الوضع .. واحسست بالدماء تتصاعد الى رأسى ، وبأعضائى جميعا ترتجف من الغضب .. ويبدو ان اثر الحالة على مظهرى كان حادا مما جعل فرانك يقول بعطف « يا استاذى لا تنزعج .. هذه مسألة بسيطة .. كل يوم يقع فيها عدد من الشباب البولندى .. ولكننى أحببت ان اخطرك حتى تتصرف بهدوء ودون ضجة » .

جاء دورى لاصمت .. فنكست رأسى ، واخذت افكر فى عواقب هذا الموقف .. هنا فى وارسو ، وهناك فى القاهرة .. حادث سخيف مثل هذا يؤثر على سمعة الفرقة ، ويعطى انعكاسا خاطئا عن مجرى الامور فى الرحلة ، ويسىء الى بنات وأبناء العائلات الذين تضمهم الفرقة .

وأراد فرانك أن يقطع هذا الصمت الطويل ، فقال « كذلك ، لابد ان يعطينا الشاب اسم وعنوان المرأة التى كان معها .. الشرطة لابد ستطلب هذا .. » .

قلت لفرانك « اولا .. أريد ان تحدد لى اسم هذا الشخص .. وأن تحتفظ بهذا الموضوع سرا بيننا ، حتى

استطيع ان اتصرف بروية ... » فتحمس فرانك وقال « سأعطيك اسمه على مائدة الغذاء .. بعد ان اراه واسأل بعض اعضاء الفرقة عن اسمه » .

قال فرانك « الا تأتى معى الى الصالون » ، قلت : « اتركنى هنا قليلا .. » . وبقيت فى مكانى لزمن لا اعرف مداه ، اقلب الامر على كافة وجوهه .. يا للمصيبة .. كيف حدث هذا ؟ ومن هو صاحب هذه الفضيحة ؟ .. ارجو الا يكون من بين الراقصين .. فملابس الرقص تتكدس فوق بعضها البعض بعد نهاية العرض ، واحتمال انتقال العدوى الى الآخرين كبير .

بعد ان هدأت حالتى بعض الشىء ، تحاملت على نفسى وتوجهت الى حجرتى ، حيث ارتميت بملابسى على السرير ، وقد احسست ان الجانب الايسر من جسمى على امتداده ، من الراس الى القدم يتخدر ويرتعش .. حضر الفنان جمال كامل ، الذى كان يزاملنى فى الحجرة ، ورآنى على هذه الحالة ، فانزعج ، وأسرع يحضر لى بعض الحبوب المهدئة للاعصاب .

سألنى .. فوجدتنى احكى له القصة كاملة . استرحت بعض الشىء ، وانتقل قلقى اليه ، فقال « وماذا ستفعل ؟» قلت بلا تردد « سأسلمه للمستشفى والشرطة ، وبعدها للسفارة حتى يتم ترحيله الى القاهرة فورا .. هذه مسألة لا يجوز فيها التهاون » .

قال « وماذا يقول المسئولون بالقاهرة ؟ »

قلت « فليقولوا ما يشاءون .. المسألة الآن تتعلق بسلامة عشرات من الفتيات والفتيان من ابناء وطنى ،

لا يمكن أن اجازف تحت أى اعتبار بأن يهدد سمعتهم وجود مثل هذا العنصر الفاسد » .

عندما حل موعد الغذاء ، هبطت الى المطعم ، ألمس أطراف ثباتى ، وأحاول أن أبدو متماسكا .. جلست فى مكانى المعتاد ، توضع أمامى الاطباق وترفع دون أن أمسها .. وبعد قليل ظهر فرانك عند مدخل المطعم ، وأشار الى براسه ، فذهبت اليه .. وكما يحدث فى القصص البوليسية ، سار الى جانبى فى الممر دون أن يتكلم ، ثم مد يده الى يدى ، ووضع فيها قصاصة صغيرة من الورق ، وعاد ثانية الى المطعم .

وعند استقبال الفندق ، فتحت الورقة لاجد بها مفاجأة ، لا تقل فى غرابتها عن المفاجأة السابقة .. ورقة صغيرة مكتوب عليها بالقلم الرصاص ، وبحروف عربية ركيكة « محمد عبد الله » !!

محمد عبد الله .. لا يمكن !.. وأعدت قراءة الاسم ، فربما أكون قد أخطأت . ومحمد عبد الله ، هو المدير الادارى للفرقة .. شخص عاقل لا يمكن أن يصدر عنه هذا التصرف .. لابد أن فى الامر خطأ ما .. وحتى أحسم الامر ، أسرعت الى المطعم ، وطلبت من محمد عبد الله أن يغادر المطعم ويتبعنى الى استقبال الفندق .. أريته الورقة وحكيت القصة ، وطالبته بالتفسير .. فأخذ يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه ، وأنا على أحر من الجمر انتظر التفسير .

قال محمد عبد الله وهو يلتقط أنفاسه « الحكاية اننا كشفنا على عبد السلام عبد المتجلى ، عازف المزمار الشعبى بالفرقة ، فى موسكو . واكتشفوا هناك انه يعانى

من بلهارسيا شديدة ، ومزمنة .. فأعطوه هذا العــلاج الذى يعتمد على المضادات الحيوية .. وعندما أخبرنى أمس أن الدواء الذى تسلمه من موسكو قد نفذ ، وطلب تجديده ، أعطيت العلبة الفارغة لفرانك حتى يطلب لنــا كمية جديدة من الدواء ، حتى يســـتكمل عبد الســلام علاجه ... »

لم أشاركه الضحك .. ولكنى ارتميت على أقــرب مقعد .. وأخذت نفسا طويلا ، طويلا جدا ، أحاول به أن أستعيد هدوئى ، وأطرد المخاوف التى انتابتنى طوال الساعات السابقة .

وهكذا انتهت مغامرة فرانك البوليسية الفاشلة .

لقاءات.. وزيارات

درس فى البروتوكول :

بعد نهاية عرضنا الاول فى انقرة ، اقبل مستشـــارنا الثقافى يهنىء بنجاح العرض ، ويتفق على موعد فى صــباح اليوم التالى للقاء خاص مع مندوب من ادارة المراسيم التركية ، للاتفاق على تفاصيل زيارة ضريح الزعيم التركى مصطفى كمال اتاتورك .

وفي الموعد المحدد تم اللقاء بيني وبين مندوب ادارة المراسيم ، بحضور مستشارنا الثقافى ومرافقنا التركى توفيق بيك ... وكنت اتصور ان الاتفاق على الزيارة لن يستغرق اكثر من عدة دقائق يتحدد بها موعد الزيـــارة والوفد الممثل للفرقة ، الا اننى فهمت منذ بداية اللقـــاء ان لزيارة الضريح تقاليد خاصة معقـــدة ، واجراءات متتابعة ، اغلبها يقع تنفيذه على كاهلى .

اتفقنا اولا على ان تشارك الفرقة باكملها فى هـــذه الزيارة ، ثم اننى سأكون فى مقدمة الموكب خلف اكليـــل الزهور الضخم الذى ستتكفل به سفارتنا ، وأن الحرس الخاص للضريح سيتقدم المسيرة التى تؤدى بنا الى المبنى الذى يضم الضريح ، وعندما أصل الى موقع محـدد

من القاعة التى تضم الجثمان اتقدم مع الحـــرس الذى يحمل الاكليل وأشارك فى وضعه عند قاعدة المدفن ، ثم اتقهقر الى موقعى الاول ، ومع انتهاء نغمات البروجى ، اتجه الى جانب من القاعة حيث يوجد السجل الضخم ، فأكتب فيه كلمة تحية مناسبة ، واتقهقر مرة ثانيـــة فى انتظار صوت البروجى الثانى الذى يفيد انتهاء الزيارة الرسمية للضريح ، فنتوجه بعد ذلك الى متحف الزعيم الراحل الذى يضم كل مايتعلق بحياته .

وقفت بنا عربات الاتوبيس فى الموعد المحدد عند بداية ممر طويل من البلاط الابيض الكبير الذى ينبت على حوافه زرع أخضر دقيق ، يردد الخضرة التى تكتنف جـــانبى الممر ، ممر طويل يمتد على مدى البصر . وجدت رجال سفارتنا مع مندوبى الخارجية التركية فى استقبالنـــا ، وطلبوا من الفرقة أن تشكل طابورا يضم ثمانية أفراد فى كل صف ، ثم وقفت فى مقدمة الطابور مع رجـــال السفارة والخارجية التركية .. ومن مبنى صغير فى بداية هذا الطريق ، خرج اكليل الزهور يحمله جنديان بملابس عسكرية زاهية ، ثم خرج قائد المسيرة يتقدم الجميـــع بسيفه المشهر ، وملابسه العسكرية البيضاء الناصعة ... وبدأت الرحلة .

مع الخطوات الجنائزية البطيئة ، ومع امتداد الطريق الطويل ، بدا وكأن هذه المسيرة لن تبلغ نهايتها .. الصمت المناسب يلتزمه الجميع ، الا من وقع أقدام على بلاط الطريق .. ثم لاحت عن بعد الساحة الكبيرة التى بهـــا الضريح والمتحف ، وعندما اصبحنا داخل الساحة ، توقف

قائد المسيرة ، وبحركة عسكرية حادة ، استدار الى اليسار ، وتقدم الى الضريح ونحن من خلفه .

لقد نجحت هذه المسيرة الطويلة فى ارساء شعور الرهبة لدى الجميع ، حتى يكونوا عند وصولهم الى الضريح فى حالة استعداد روحى مناسب للقاء الزعيم الراحل .

وبنفس الصمت ، والهدوء ، والخطوات القصيرة المنظمة ، صعدنا الدرج الفخم العريض الذى يؤدى الى الضريح . وما أن وصلت الى داخل الضريح ، حتى أخذت استرق النظرات لاتعرف على معالم المكان الذى وصفه لى مندوب ادارة المراسم ، وأحدد خطواتى داخله .

أومأ لى مستشارنا الثقافى ، فتقدمت مع الجنديين أضع الاكليل على الضريح .. ثم تقهقرت حسب النظام الموضوع الى مكانى . وفجأة .. انطلق البروجى فى الحيز الضيق الذى يضم الضريح بسقفه المرتفع ، فتردد صداه عنيفا قويا .. اربكتنى المفاجأة ، رغم علمى السابق بها ، وكادت تضيع من ذاكرتى باقى الاجراءات التى تعب مندوب المراسيم فى شرحها لى .. ومن خلفى تصاعدت همهمات ، تميزت من بينها الهمهمات النسائية كرد فعل لهذه المفاجأة ، وما سببته من زعر بعد مرحلة الصمت الطويل .

وخشيت أن تتحول هذه الهمهمات الى تعليقات تفسد تنظيم المسيرة ، فأسرعت الى المنصة الجانبية اسجل كلمتى فى عجل ، محاولا الانتهاء من رسميات هذا الموكب قبل أن ينقلب الى مهزلة .

عندما انسحبنا من مبنى الضريح الى الساحة الخارجية

وحتى بعد أن تبدد نظام الطابور الطويل ، وتجمعنا في انتظار التوجه الى المتحف ، كانت الانفاس المعلقة مازالت على حالها ، مع حرص كل واحد على الا يكون البادىء بتبديد جو الصمت الطويل ، فوجدتنى أصيح فيهم » ، ايه .. مالكم .. خلاص انتهينا .. » ، وعلي الفور انهالت التعليقات فى وصف ماحدث لحظة انطلاق البروجى .

توجهنا بعد ذلك الى متحف الزعيم الراحل .. وكان عبارة عن دراسة كاملة شاملة عن حياته وكل مايتصل بها .. صوره منذ طفولته حتى وفاته ، تسجل كل جانب من جوانب حياته .. فى مراحل عمره المختلفة .. صورا تذكارية للاحداث السياسية الهامة .. مقابلاته ، هواياته اجتماعاته. . ثم عرضا كاملا لملابسه ومقتنياته ...

والهدايا التى تلقاها من الملوك والرؤساء .. وبالمناسبة بينها هدية كان قد اهداها الى الملك السابق فاروق واستطاع المتحف أن يشتريها ، لا ادرى من أين ، ويضمها الى مقتنيات المتحف . ثم مجموعة ضخمة من الساعات التى كان يقتنيها ، وعقارب هذه الساعات جميعا تشير الى ساعة وفاته .. لقد كانت زيارتنا لمتحف الزعيم اتاتورك بمثابة الاطلاع على دراسة كاملة عن حياته وما حفلت بها من أحداث .

امبرازاريو الدولة :

لقد حفلت رحلتنا هذه بالعديد من المناسبات واللقاءات الرسمية .. وكان كل شىء يتم وفقا لنظام ثابت ،وترتيب

مدروس .. فمنذ اليوم الاول لزيارة الدولة يتم الاتفاق على برنامج الزيارة ، من حيث عدد الحفلات ومواعيدها . المدن التي سنزورها .. حفلات الاستقبال التى ستقام لنا .. اللقاءات الرسمية مع المسئولين .. برامج الزيارة الثقافية والسياحية . زيارة فرقة فنية لدولة من الدول الاشتراكية تعنى مجموعة من الترتيبات الخاصة والالتزامات المحددة ، لا يمكن التحلل منها ، أو حتى اغفال بعض جوانبها .. بل لقد تحولت هذه الترتيبات الى نوع من التقاليد الراسخة ، ابتداء من باقة الورد التى يتم تقديمها عند الوصول ، الى الهدية التذكارية التى تتلقاها الفرقة الزائرة ساعة السفر .

وكلما كنت أواجه بهذه التقاليد .. أتذكر الاستقبال « الاحمدى » الذى يجرى لفرق هذه الدول عندما تزورنا ، وضياع هذه الفرق بين موظفى التبادل الثقافى وموظفى هيئة المسرح عندنا ، واتذكر تصاعد احتجاج هذه الفرق بسبب نقص الاجراءات او عدم الوفاء بالالتزامات ، ذلك الاحتجاج المتصاعد الذى يبدأ عادة بالابتسامات المهذبة والملاحظات الرقيقة المتحفظة ، ويتصاعد يوما بعد يوم الى مستوى « التكشيرة » والكلمات الجافة ، والاحتجاج لدى المسئولين فى هذا الجهاز أو ذاك .

وقد حرصت طوال رحلتنا هذه على دراسة سر نجاح هذه الدول فى تنظيم استقبال الفرق الزائرة ، فوجدت أن السر يكمن دائما فى التخصص . ففى جميع الدول الاشتراكية التى زرناها ، لم تكن ادارة التبادل الثقافى أو وزارة الثقافة ممثلة فى أجهزتها المسرحية مسئولة عن الوفاء بهذه الالتزامات او القيام بهذه الاجراءات ، وانما

كانت هناك دائما مؤسسة خاصة ، لتتولى استقبال الفرق الزائرة وتنظم معيشتها وعملها . فى الاتحادالسوفييتى « جوسكونسيرت » ، فى رومانيا « أوستا » ، فى بولندا « بوجارت » ، فى تشيكوسلوفاكيا « براجوكونسيرت » ، فى المانيا الديموقراطية « تياتر أجنتورا » ، فى يوغوسلافيا « يوجوكونسيرت » .. وهكذا . هذه الاجهزة تتولى كل مايتصل بترتيب زيارة الفرق الوافدة ..الحجزفىالفنادق .. تحديد مواعيد الحفلات وحجز المسارح وعمل الدعاية .. ترتيب وسائل الانتقال .. تحديد طاقم المرافقين والمترجمين .. توفير الرعاية الطبية الكاملة .. وضع البرامج الترفيهية والثقافية والسياحية .. ثم بالاضافه الى هذا كله ، توفير المجاملات الضرورية من باقات الورد الى الهدايا التذكارية ، الى تنظيم حفلات الاستقبال لتكريم الفرقة الزائرة .

ومع التخصص ، وتحديد المسئولية ، يأتى التجويد ، واستكمال اللمسات الدقيقة .

وقد اتيح لى ان احضر المؤتمر الصحفى الذى عقده جهاز « تياتر أجنتورا » بألمانيا الديموقراطية بمناسبة نهاية السنة الميلادية .. وكان وجودى باعتبار ان زيارة الفرقة القومية للفنون الشعبية ستكون اول نشاط لهذا الجهاز فى العام الجديد . وقد قام مدير الجهاز باستعراض النشاط الذى تم فى العام المنصرم ، ثم ادلى ببيان شامل دقيق لنشاط العام التالى .. مئات الفرق الزائرة والفنانون الزائرون .. ثم مئات الزيارات التى تقوم بها الفرق الالمانية والفنانون الالمان الى جميع أنحاء العالم . وقد أدهشنى حجم ذلك النشاط ، وايقنت انه بدون مثل هذا

الجهاز ، ما كان يمكن تنظيم مثل هذا النشاط الضخم ، بمثل هذه الكفاءة .

وفى رومانيا قمت بزيارة لمدير هيئة « الاوستا » ، فى محاولة لتفهم طبيعة عمل هذه الاجهزة ، فقال لى ان « الاوستا » تابعة مباشرة لوزارة الثقافة ، وهى جهاز بلا ميزانية أو اعانة ، بل هو يحقق ايرادا سنويا لوزارة الثقافة . وهذا الجهاز مسئول عن التسويق الداخلى والخارجى للنشاط المسرحى الرومانى ، بالاضافة الى تسويق النشاط الاجنبى داخليا . وهذا الجهاز يدير فى رومانيا حركة النشاط اليومى لعدد ضخم من الفرق المسرحية .. وعلى سبيل المثال ، ٣٨ مسرحا دراميا ،و٢٠ مسرح عرائس ، و ٦ مسارح استعراضية للمنوعات ، و ١٨ اوركسترا سيمفونى ، و ٧ مسارح أوبريت وأوبرا ومنوعات غنائية ، وسيرك قومى واحد .

وتتولى « الاوستا » التعاقد نيابة عن الفنانين المحليين مع الجهات الاجنبية مقابل عمولة تبلغ ١٥ فى المائة عن كل عقد . كما تتولى نيابة عن ادارة التبادل الثقافى استقبال وتنظيم عمل الفرق الاجنبية الزائرة . هذا بالاضافة الى الفرق التى تقدم عروضها على الاساس التجارى .

ورغم الطابع التجارى لهذا الجهاز ، فهو يقوم ببعض النشاطات التى قد تحقق بعض الخسائر المادية بهدف تحقيق الخطة الثقافية لوزارة الثقافة ، واغلب نشاطها الخاص ينصب على حفلات الموسيقى الخفيفة نظرا لدخلها الكبير ، ولكونها لا تشكل ازدواجا مع نشاط الاجهزة الثقافية الاخرى .

وبحكم التخصص تتضاعف اتصالات « الاوستا » بالاجهزة الفنية والمتعهدين الفنيين فى جميع أنحاء العالم ، ولا يقتصر نشاطها على انتظار الدعوة لاستضافة فرقة أو فنان ، بل تصدر كل عام عدة مطبوعات اعلامية ، ونشرات دورية توزعها باللغات المحلية على جميع أنحاء العالم ، تطرح فيها امكانياتها من العناصر والخدمات الفنية ، كما تقوم بالدعاية لفنانيها فى الخارج منفقة على هذه الدعاية من ميزانيتها .

وفيما يتصل بالتسويق الداخلى تلجأ « الاوستا » الى كل وسيلة تضمن لها عدم وجود مقعد واحد شاغر فى اى مسرح من المسارح على مدى العام ، حتى انه فى بعض المدن الصغيرة تلجأ الى توقيع عقود مع بعض الاشخاص غير المتفرغين ، لبيع تذاكر الحفلات فى مقابل نسبة تبلغ ٤ فى المائة من حصيلة البيع ، وهى فى هذا تعتمد على اطباء ومحامين وموظفين وعمال ممن يتيح لهم عملهم اتصالات جماهيرية واسعة .

عندما عدت من رحلتى هذه اعددت تقريرا شاملا عن جهاز « امبرازاريو الدولة » الذى تأخذ به كل الدول الاشتراكية بعد انتهاء العمل بنظام الامبرازاريو المعروف فى الدول الراسمالية ، وبينت فى ذلك التقرير حاجتنا الشديدة للاستفادة من نظم عمل هذه الاجهزة ، وخاصة فى التسويق الداخلى ، لمواجهة مشكلة المقاعد الشاغرة فى مسارحنا ، الا ان تشابك الاختصاصات بين هيئة المسرح وادارة التبادل الثقافى ، لم يسمح لهذا المشروع ان يأخذ طريقه الى التحقيق .

فى عالم بريخت :

الى جانب الوظائف التجارية والتنظيمية لاجهزة التسويق المسرحى التى تحدثت عنها ، تقوم وظيفة دعائية تتحقق فى حرص هذه الاجهزة على تعريف الفرق الزائرة بالانجازات الثقافية والمعالم السياحية للبلد .

مع برنامج العمل والزيارات الرسمية ، كانت توضع لنا فى كل دولة برامج للزيارات السياحية تستوعب مشاهدة أهم الاثار والمناطق السياحية ، كما كان ييسر لنا متابعة أهم العروض المسرحية والاحداث الثقافية ... ولعل من أهم الزيارات الفنية التى قمنا بها فى رحلتنا هذه كانت زيارتنا لمسرح الفرقة البرلينية « برلينر انسامبل » الذى يعرف بمسرح بريخت .

لقد اتيح لى ان اشاهد العديد من الاعمال الهامة لبريخت ، مثل « الام شجاعة » ، و « كوريولانوس » ، و « أرتورو أووى » ، و « أوبرا الثلاثة قروش » ،و«الام» لجوركى .

كنت قد قرات بعض هذه النصوص ، كما كنت قد اطلعت على بعض الاسس التى يقوم عليها مسرح بريخت الملحمى ، الا ان مشاهدة هذه الاعمال على المسرح أوصلتنى الى جوهر ماقرات مباشرة . وقد حرصت فى كل مرة زرت فيها المانيا الديموقراطية بعد ذلك على أن أضمن مقعدا فى مسرح بريخت المزدحم دائما . ولولا مساعدة وزارة الثقافة بتسهيل حجز هذا المقعد ضمن الاماكن المخصصة لعملها ، لما أمكننى الاستمتاع بروائع بريخت ، نتيجة الازدحام الشديد ، وذلك الجمهور المنتظم من برلين

الغربية الذى يجتاز الحدود كل ليلة ليحضر العرض . ثم ليعود الى الغرب مرة اخرى فى نهاية العرض .

واغلب المسرحيات التى حضرتها كانت من اخراج بريخت ، الا أن مسرحية « كوريولانوس » التى قدمها المسرح بعد وفاة بريخت ، كانت من اخراج مانفريد فكفرث ، ولذا حرصت على ترتيب لقاء خاص معه فى اليوم التالى لمشاهدتى المسرحية .

وكنت قد علمت أن فكفرث هو الابن البار لبريخت ، وان بريخت كان قد التقطه بعد ان شاهد اخراجه لمسرحية « أسلحة السيدة كرار » فى مدينة صغيرة كان يعمل مدرسا بها . لم يكن فكفرث حتى ذلك الحين قد تلقى اية دراسة منظمة فى فنون المسرح ، وبرغم هذا اسند اليه بريخت وظيفة مساعد مخرج فى مسرحه ، بعد ان اقتنع بموهبته . واصبحت صلة فكفرث ببريخت من خلال العمل اليومى هى المدرسة الحقيقية التى تعلم فيها واكتملت عن طريقها ثقافته المسرحية . وفى حياته ، أتاح بريخت لفكفرث فرصة اخراج اكثر من عمل ، فاخرج مسرحية من فصل واحد باسم « اذرة للجيش الثامن » عن نص صينى تم تأليفه وعرضه اثناء المسيرة الكبرى ، ثم اكتملت شهرته باخراجه مسرحية « أرتورو أووى » التى تندد بالفاشية وبالنازية الهتلرية .

ومسرحية « كوريولانوس » استوحاها بريخت من مسرحية لشكسبير ، وتوفى قبل أن يقدم على اخراجها . وفى هذه المسرحية لم يغير بريخت كثيرا فى المواصفات الاصلية لمسرحية شكسبير ، ولكنه عمق الصراع بين

عناصرها ، واخضعه لاصول علمية . والصراع يــــدور أساسا بين ارادة الفرد وارادة المجتمع ، ويظهر كيف تنهزم ارادة الفرد اذا ماتعارضت مع ارادة المجتمع .

وقد اجريت يومها مع مانفيرد فكفرث حوارا طـــويلا حول هذه المسرحية ، وحول مسرح بريخت عامة .

وسألته عن وجهة نظره فى اخراج هذه المسرحية ، فقال ان تفسير المخرج للنص يفعل الكثير ، فأصـــل هذه المسرحية الذى كتبه شكسبير كان هتلر يعرضـــه على الجنود فى الحرب العالمية الثانية ، قبل أن يزج بهم فى جبهاته الحربية المختلفة ، لازكاء روح الحروب والعدوان لديهم ، وتزيين الحرب فى عيونهم . بل أن النص الذى كتبه بريخت ، اخرجه مخرج ايطالى فى مسرح « بيكولو تياترو » فأفقده مغزاه الاساسى عندما صور القائد بطل المسرحية فى صورة زعيم فاشيستى . لقد عرضت فى هذا الاخراج شخصية كوريولانوس كقائد حــربى عظيم .. وصفة العظمة هنا لا تقتصر على الحرب ، بل تنســحب ايضا على السياسى العظيم ، والزعيم العظيم ، والعــالم العظيم . والمضمون الاساسى لهذه المسرحية ، يفيــد أن النتيجة الحتمية لوجود رجل عظيم يقوم بأعمال بطولية كبيرة ، هى أن يرتفع هذا الرجل فوق مستوى الجموع .. وهذا أمر طبيعى ، ولست ضده بأى حال من الاحوال ، بل ونطالب دائما بوجود مثل هذه الشخصية .. ولكن ، فى اللحظة التى يبدأ فيها هذا الرجل العظيم اســـتغلال الوسط الذى يعيش فيه ، ايا كان نوع ذلك الاستغلال .. فى تلك اللحظة ، يجب على الوسط أن يرفض الاستغلال

.. وان يقصى هذا الرجل ، مهما كلف اقصاؤه من خسائر كبيرة .

وعن مبدأ التغريب او التبعيد فى مسرح بريخت يقول فكفرث ؛ التغريب هو احالة العادى الى غير عادى بهدف خلق لحظة اكتشاف عند المتفرج ، تدفعه الى الاحساس بما يعرض عليه ، ثم تعقله والاستفادة منه .. هو وضع المتناقضات فى مقابل بعضها البعض لتنتج حالة من الوعى ثم التفهم .. ومن الأمور التى تساعد على تأكيد عنصر التغريب فى المسرحية ، نقل أحداثها فى الزمان أو المكان . فعندما نعرض قضية الفاشية الهتلرية فى مسرحية « أرتورو أووى » ، نجرى حوادثها بين افراد احدى العصابات الامريكية .. اى ننقل مكان الاحداث من مجاله الاصلى الى مجال آخر ، وهذا يتيح مزيد من الرؤية والتفهم عند الجمهور .

وفى مسرحية « كوريولانوس » نجرى نقلا فى الزمان والمكان .. فنناقش قضية الزعامة والقيادة فى مجتمع روما القديم حيث تجرى احداث المسرحية ، ذلك ان المتفرج يكون على استعداد الوقوف موقفا نقديا من قائد رومانى ، اكثر منه فى حالةالقائد المحلى المعاصر .

ويعود فكفرث ليقول ، من المقاييس الرئيسية عند بريخت ، ان المنطلق الفنى يجب ان يكون دائما من وضع اجتماعى سياسى .. فعندما نعرض هاملت مثلا ، لانقدمه على انه شخصية مترددة ، وان هذا التردد طبيعة فيه .. لكننا نعرض المرحلة التاريخية التى يعيش فيها بالضبط .. لماذا يتردد هاملت ؟.. ومن داخل هذا الفهم لا يكون

موقفه موقفا شخصيا ، لكنه سيرتبط بمرحلة تاريخية معينة . نقول ان هاملت اثناء دراسته قد طور عقله ، فاستحال الى ما يمكن أن نسميه « بالبرجوازى التقدمى » وانه أصبح يقيس الامور بمقاييس عامة . هذا التركيب الجديد جعله يفشل فى الوفاء بالتزاماته الاقطاعية ، وفى استغلال حقوقه .

ودار بيننا بعد ذلك حوار حول مسرحيته الاخيرة ، وكانت لى بعض الملاحظات التى اخذ فكفرث يجيب عليها ، وعرض اثناء الحديث موضوع التأدية فى المسرحية ، ومستوى الممثلين وخاصة الطبقة العالية فى الالقاء التى التزمها الممثل الكبير اكهارد شال منذ بداية المسرحية وحتى نهايتها ، فقال فكفرث وهو يتململ ، انت على حق فى ملاحظتك .. لكنه لم يكن يؤدى الدور فى المرات الاولى بهذه الطريقة .. وقد أرسلت اليه خطابا ، أوضح له ضرورة التزام الحدود الاولى للتأدية فى هذا الدور . استلفت نظرى تعبير « أرسلت له خطابا » ، فقال فكفرث ان من تقاليد مسرح بريخت ، أن يوجه المخرج ملاحظاته الفنية الى الممثلين بواسطة خطابات تحفظ نسخة منها فى أرشيف المسرح ، وترسل النسخة الاخرى الى الشخص المعنى بهذه الملاحظات .. وعقب فكفرث ، ان هذا الاسلوب يجعل الملاحظات أكثر موضوعية ، ويعطى فرصة أكبر للتأمل ، كما أن استجابة الفنان لها لا تتضمن رد الفعل الشخصى .

لاشك أن تجربة بريخت تعتبر من أضخم الانجازات الثقافية والفنية فى الدول الاشتراكية . الا أن هذا لا ينتقص من التجارب الثقافية والفنية الاخرى التى أتيح

لى أن أتعرف عليها خلال رحلتنا هذه .. تجربة « منظمة الرواد » لتثقيف الاطفال وتنظيمهم منذ مطلع حياتهم .. الانجازات الخرافية للسيرك القومى السوفييتى .. الكمال التام لعروض الباليه فى مسرح البولشوى بموسكو ... تجربة مسارح الاسترادا أو المنوعات فى رومانيا ، وما تتضمنه من تحقيق لجانب الترفيه بشكل لائق .. مسرح عرائس المجر ببرامجه التى صعدت بهذا الفن الى أعلى مدارجه .. معهد تطوير الوسائل المسرحية المسمى « سينوجرافيكال لابوراتورى » فى براغ ، والورشة المسرحية الكاملة فى براتسلافا عاصمة سلوفاكيا بتشيكوسلوفاكيا .. التطبيق الحى النشيط لفكرة قصور الثقافة فى الاقاليم وبين التجمعات العمالية وفى الريف .

كل هذا يؤكد أن أمامنا الكثير الذى نستطيع أن نفيد منه ، بدراستنا لتجارب الدول الاشتراكية فى حقل الثقافة .

صفعة ترحيب البانية !

كان برنامج زيارتنا لكل دولة من الدول يتضمن العديد من اللقاءات الرسمية ، مع وزراء الثقافة والمسئولين عن النشاط الثقافى ، وكانت هذه اللقاءات تتراوح بين الزيارة الرسمية للمسئول فى مكتبه ، الى لقاء حول مائدة الغذاء أو العشاء ، تحضره مجموعة من قيادات الفرقة ، الى حفل كوكتيل تدعى اليه الفرقة بأكملها .

كان القاسم المشترك فى هذه اللقاءات تبادل الانخاب والكلمات الرسمية .. وكالعادة كانت جدة الموقف فى بداية

الامر تقتضى الاستعداد المسبق والانتباه الـــــكامل والحرص على انتقاء الكلمات .. ومع تكرار الموقف اكثر من مرة فى كل دولة ، بدات هذه العملية تشكل عبئـــا نفسيا جديدا ، بعد ان تكررت نفس الكلمات فى كل مرة وكل دولة .. وكان وضع المسئول هو نفس وضــعنا تقريبا ، فهذا الموقف يتكرر معه بالنسبة لغيرنا من الوفود والفرق الزائرة أكثر من مرة فى الاسبوع الواحــد ... وكانت مسئوليتى تتركز فى معالجة فترات الصـــمت وتجنبها ..

وبعد فترة من الزمن تكشفت مواهب المايسترو شعبان ابو السعد .. كنت ابدأ الشق الرسمى من الحديث ، واتابع حمل مسئوليتى حتى يوشك الموقف على التجمد وهنا ينطلق شعبان ابو السعد ويكون قد تجاوز نخبه الثالث ، فى حديث عفوى مؤكدا حديثه بحركات ذراعيــه التى لا تنتهى والتى يمارسها فى حياته اليوميــة امتدادا لعمله كقائد أوركسترا ، فترتفع الضحكات من الجانبين ، وتتهاوى قشرة التحفظ الرسمى . ويطرأ التغيير شاملا على كل من يشارك فى اللقاء .. طبيعة الموضـــوعات المطروقة .. حتى طريقة الجلوس على المقعد .

ونظرا لازدحام برامجنا ، كانت حفلات الاستقبال تجىء فى أغلب الاحيان قبل العرض ، ومن هنا كانت تظهـــر صعوبة اشتراك الفرقة بكاملها فى هذه الاستقبالات ، فأغلب الراقصات والراقصين يفضلون أن ينالوا قســطا

من الراحة قبل العرض ؛ فكنا نجرى مايشبه القرعة لاعفاء البعض فى كل مرة بما لا يخل بمظهر الاستقبال .

ولعل أجمل الاستقبالات ، كانت فى وارسو . تحدد للاستقبال يوما حرا لا تجرى فيه الفرقة تدريبات أو عروض .. وعندما وصلنا الى القاعة التى يجرى فيها الاستقبال ، وجدنا أعضاء فرقة مازوفشا البولندية بملابسهم القومية وآلاتهم الموسيقية الشعبية . رما أن انقضى بعض الوقت حتى تحول الاستقبال الى حفل راقص ، فاشتركنا جميعا فى تأدية بعض الرقصات الشعبية البولندية البسيطة ، بما فى ذلك سفيرنا فى بولندا ومن معه من رجال السفارة ، ثم قدموا لنا فى نهاية الحفل لوحة من الزخارف البولندية الشعبية ، عليها توقيعات جميع أعضاء فرقة مازوفشا .

ومن احرج المواقف التى قابلتنا فى هذه اللقاءات الرسمية ، ماتم عند زيارتنا لوزير الثقافة الالمانى فى تيرانا .. اقتصرت الزيارة على قيادات الفرقة ، وكان معنا فى هذه الزيارة الفنان كمال نعيم مصمم رقصات الفرقة . عندما تحركنا من الفندق ، وجدت كمال يحمل آلة التصوير السينمائى التى كان قد اشتراها أثناء الرحلة ، ويصمم على تسجيل هذه الزيارة سينمائيا . وصلنا الى الوزارة فاستقبلنا الوزير فى مكتبه ، واخذ كمال منذ البداية فى التحرك حولنا ليكون تسجيله للقاء كاملا . وقرب نهاية اللقاء ، اخذت احدث الوزير الالمانى عن مصمم رقصاتنا الشاب الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، واستطاع ان يقدم للفرقة انجح

رقصاتها ، كل هذا وكمال منهمك فى مهمته السينمائية نهضنا للانصراف ، فاقترب الوزير من كمال ، ونظر اليه فى اعجاب شديد .. ثم فجأة .. صفعه على قفاه صفعة قوية كادت مع نعومة الارض الخشبية أن تلقى به مع آلة التصوير الى الارض .. احتفظ كمال باتزانه فى صعوبة شديدة .. وتكهرب الجو .. ووقف كمال مزهولا لا يعرف كيف يتصرف ، ونحن جميعا فى حالة ترقب لما يمكن أن يتمخض عنه هذا الموقف الغريب .. الا أن الوزير لم يظهر مايفيد انتباهه لما ينتابنا من مشاعر ، وعاجل بمد يده الى كمال نعيم يسنده ثم يحتضنه ، ويطلب الى المترجم أن ينقل اعجابه الشديد الى كمال .

انتهى اللقاء ، وانصرفنا دون أن نجد تفسيرا للصفعة القوية التى كادت أن تفقد كمال توازنه ، وكنوع من التفريج عن النفس من حالة التوتر التى انتابتنا ، انطلقنا جميعا وفى مقدمتنا كمال فى حالة هستيرية من الضحك الصاخب . الوحيد الذى لم يكن يشاركنا هذا الضحك كان المترجم الذى يرافقنا .. وبعد أن انتهت تعليقاتنا الضاحكة ، بدا عليه فضول شديد ، لم يتجاوز حد النظرات المتطلعة ، فحكيت له بالانجليزية سر ضحكاتنا ، وحيرتنا فى تفسير تلك الصفعة .. فاصفر وجهه ، واخذ يلقى علينا محاضرة طويلة فى تقاليد التعبير عن الاعجاب فى ألبانيا ، والتى ينوب فيها الربت على القفا عن الربت على الظهر فى الدول الاخرى ، وأن سيادة الوزير تعبيرا عن اعجابه البالغ بكمال نعيم ، قد ضاعف بعض الشيء من قوة الربت الودى !!

زفه .. فى بوخارست :

كان سمير جابر وزوجته ثريا فى حالة خطبة طـويلة لعدة سنوات .. وعندما كنا فى القاهرة ، كان موضـوع هذه الخطبة الطويلة مثار تعليقات ومداعبات لاتنتهى مع سمير وثريا .. وكانت التساؤلات لا تتوقف حول موعد الزفاف .. وبدأت رحلتنا ومازال سمير وثريا فى حالة الخطوبة التى عرفناها دائما .

ما أن وصلنا بوخارست ، حتى كان سمير يطرق باب حجرتى بالفندق ، يطلب بصوته الهـادىء وابتســامته الرقيقة ، أن يتحدث معى حديثا خاصا .. قلت ، خيرا. .. قال والابتسامة لا تفارق شفتيه .. « أنا عـاوز اتجوز !! » .

قلت ضاحكا « وماله .. » ، واعتبرتها نكتة ، ومدخل من المداخل اللطيفة التى كان كثيرا ما يقدم بها لمطـالبه الحقيقية .

احس اننى لم آخذ الامر مأخذ الجد ، فتراجعـت ابتسامته بعض الشىء ، واكتسى صوته بالجدية ، وقال « أنا باتكلم جد .. أنا وثريا عاوزين نتجوز هنـا فى بوخارست .. » .

قلت وقد انتقلت الى عدوى جديته « ازاى ؟؟ .. »

قال ببساطة « أبدا .. فى السفارة .. انا ســألت وعرفت أن الواحد ممكن يتجوز فى السفارة » .

قلت « وأهلك .. وأهلها ؟ .. » .

قال « ما احنا ح نبعت لهم تلغرافات نبلغهم .. » .

وفى الطريق الى المسرح حيث كنا سنجرى تدريباتنا ، وجدت ان الخبر قد شاع وانتشر بين الجميع ، وان حالة من الحماس الشديد قد انتابتهم جميعا .. ودخل الكلام فى دور التفاصيل ، الفرح ، وفستان الفرح ، و.. و .. الى اخر هذه التفاصيل .

فى صباح اليوم التالى توجهنا جميعا الى السفارة ، حيث أقام لنا السفير حفل استقبال دعا اليه عــــدة شخصيات من الحقل الثقافى الرومانى .. وفى اثنـــاء الحفل أخذ السفير يستفهم منى عن سير العمل ، ومدى استعدادنا لحفل الافتتاح الرسمى فى مساء ذلك اليوم . وخلال هذا الحديث اكتشفت أن سمير يتربص بى عـــن بعد ، وتعبيرات وجهه تطالبنى بطرح موضوعه ، فأشرت اليه أن يقبل ، وقلت للسفير « بقيت مشكلة واحدة .. هذا الاخ يريد ان يتزوج عندكم ! » . اول ما تبادر الى ذهن السفير ، انه يريد الزواج من فتـــــاة رومانية ، فسارعت بسرد قصته كاملة . ارتسمت على وجه السفير ابتسامة عريضة ، وأسرع يبحث عن زوجتـــه ليزف اليها الخبر السعيد ، وبدأ البحث عن ثريا حتى وجدوها ، فارتفعت الزغاريد فى قلب السفارة .. والسفير سـعيد بهذا الحدث ، اخذ ينقل القصة الى أسماع الضـــيوف الرومانيين ، ويفسر لهم سر الاصوات التىارتفعت ملعلعة وسط حفل الاستقبال .

وتلفت السفير يبحث عن طاقم السفارة ، ليسألهم فى تفاصيل اجراءات الزواج ، فقالوا انه لابد من الرجوع الى القاهرة للتثبت رسميا من خلو الطرفين من الموانع ..

وتحمس سمير وقال انه لا يمانع فى الانتظار لحين وصول الافاده من القاهرة ، بحيث يتم الزواج فى أيامنا الاخيره برومانيا .. وتحول حفل الاستقبال الى زفة عروسه حقيقية ، وتبرعت هيام بتقديم وصلة رقص شرقى . واستخدمت الصوانى المعدنيه كدفوف .. و ... « اتمخطرى ياحلوه يازينة .. »

طبعا لم تصل الافادة .. وحل موعد الرحيل الى موسكو .. فطيب السفير خاطر سمير وثريا ، وقال انه بمجرد وصول الافادة سيبرق بها الى سفارتنا فى موسكو لتتولى اجراءات الزواج .

وطبعا لم تصل الافادة الى موسكو .. ولا الى وارسو .. ولا الى برلين .. ولا الى براغ .. ولا قبل أن نركب الباخرة من ألبانيا فى طريقنا الى الاسكندرية .

تذكرت هذه القصة أخيرا ، وأنا أرى ثريا فى شهر حملها الاخير .. وحمدت الله على أن الزواج لم يتم في رومانيا ، حتى لايصبح منظر فرقة الرقص الشعبى القادمة من مصر مثيرا ، واحدى راقصات الفرقة لاتشارك بالرقص نتيجة للحمل الذى كان سيصبح حملا فى الشهر الخامس عند نهاية رحلتنا !!.

فهرس

	صفحة
مجتمع بلا حكومة	٧
فنادق .. فنادق	١٤
حياته كاملة على عجلات	٤٩
أزمة خبز ومـــاء	٩٠
عـلاج .. بالجملة	١٢٠
فى مواجهة الجماهير	١٤٢
مرافقون .. ومرافقات	١٧٦
لقاءات .. وزيارات	٢٠٦

رقم الايداع بدار الكتب ٢١٤٨ ـ ٨٤

الترقيم الدولى ٠٨٠ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ
الصفاه ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

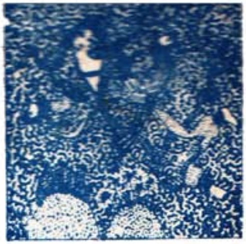
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٤٠٠ مليم :

سوريا ٨٠٠ ق٠س ، لبنان ٨٠٠ ق٠ل، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠ فلس، العراق ١٤٠٠ فلس، السعودية٧ ريالات ، السودان ٧٠٠ مليم ، تونس ١٠٠٠ مليم ، المغرب ١٠٠٠ فرنك ، الجزائر ١٠٠٠ سنتيم ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠سنت ، اليمن الشمالية ٥ ريالات ، اديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنس ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٤ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ كروزيرو ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٨٠ بنى ٠



هـذا الكتـاب

« راقصون بلا حكــومة » يحكى قصة تجربة ارتحـال فريدة ، قام بها اعضاء الفرقة القومية للفنون الشعبية الى عشر دول آسيوية واوربيـة على مدى ستة اشهر .

يحكى عن الغربة المركبـة التى فرضت على مجتمع كامل من الشباب والشيوخ نتيجة للتنقل الدائم بين ٦٠ مدينـة مختلفة .. عواصم كبـرى ، ومدن صغيرة ، وقرى لاتكاد تظهر على الخرائط .

قصة مجتمع قطع صلته بكل ما يحكم المجتمع من سلطات تنظيـم وتشريع ورقابة ومحاسبة ، واصبح عليـه أن يبتكر لنفسه قانونه وسلطاته الخاصة ..

مؤلف الكتاب راجى عنايت يسجل هذه التجـربة التى عاشهـا عندما كان مديرا للفرقة ، ومسئولا عن تسيير امور ذلك المجتمع .. ومـن خـلال ذلك يورد عشرات الحكايات المؤثرة والطرائف المضحكة ، فى نفس الوقت الذى يطرح فيه ملامح الحياة فى الدول التى زارتها الفرقة .. الارض والبشر .

٤٠ قـرشـا